كتاب الهلال



قصة حياة عادية

د. يحيى الجمل



سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٩٥ - ربيع ثان - يوليو ٢٠٠٠

NO - 595 - ju - 2000

اسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الاردن ٢ دينار الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ابو ظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال

عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

قصة حياة عادية

بقلم :
د. يحيى الجمل

الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

أم ذهبت ... وأم جاءت

كان البكاء قد أرهقه وتحول إلى نشيج وزفرات وهو يلقى برأسه على صدر جده إلى أن أخذته سنة من النوم لم يفق منها إلا وذلك المركب الشراعى يعبر به النيل من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، وجده يحنو عليه ويحاول أن يسرى عنه ببعض مااشتراه له من حلوى، ولكن الصبى الصغير كان فى شغل عن ذلك كله ، وكان منظر جدته وهى مسجاة على فراش الموت لايكاد يبرح خاطره . لقد كان يسمع من الناس أنها جدته، ولكنه لم يعرف له أما غيرها فقد احتضنته وهو لم يجاوز العام إلا بشهور قليلة ، وعاش معها فى تلك القرية من قرى «البحيرة» يعب من حبها وحنانها عبا ويتمتع بما أفاء الله به عليها من بعض الثراء لايشاركه فى ذلك أحد ، ذلك أن جدته تلك التى اعتصرها الموت منذ الأمس الحزين ، لم تكن قد انجبت إلا أمه فلما رزق الله أمه بغلامين رأت هى تخفيفا عن ابنتها وملئا لحياتها أن تأخذ ثانى الغلامين لتقوم على تربيته ، وظل فى كنفها حتى جاء ذلك اليوم الأخير وجاء معه من عرف فيما بعد أنهم أمه وأهل أبيه ، وبقيت أمه إلى جوار جثمان أمها وبقى معها أبوه وأدرك الجميع أن الطفل الصغير لن يقوى على كل مشاهد الحزن التى أحاطت بذلك البيت الذى كان لايرى فيه إلا الحنان، فاقترحوا أن يأخذه جده لأبيه معه بعد أن أدى واجب العزاء لكى يعود

به إلى تلك القرية الصغيرة من قرى «المنوفية» على الضفة الشرقية من النيل لكى يبدأ حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياته الناعمة المدللة طوال تلك السنوات الأربع التى قضاها مع أمه الجدة لايشارك فى حبها شريك.

ويوشك الصبى ألا يذكر شيئاً ولا حدثاً فى طفولته الباكرة مثل ذكره لذلك اليوم الذى أخذه فيه جده وعبر به النيل من قريته على الضفة الغربية إلى قرية أخرى على الضفة الشرقية للنيل، ورأس الصبى على صدر ذلك الجد والدموع ماتزال تنسكب من عينيه وصدره يفور زفرات من آن لآن.

ويعرف الصبى بعد ذلك أن له أماً غير تلك التى كان يعيش معها والتى لم يعرف له أماً غيرها ، أماً كان يراها فى زيارات خاطفة فينكر على «أمه» ان تشركها معه فيما كان خالصاً له من حبها وحنانها وبرها ، ويعرف أكثر من ذلك أن له أخاً يكبره باربع سنوات وأن له أختاً تصغره بثلاث سنوات وأن له أبا وأن عليه منذ اليوم أن يعيش مع تلك الأسرة الجديدة وأن يعايشها وأن يرضى بهذا الواقع الجديد الغريب .

وكأنه قد سقط من حالق . بعد أن كان متربعاً وحده على عرش الحب كله إذ به يجد نفسه مضطراً إلى مشاركة أخوين فى قلب أم محزونة الحزن كله والضنى كله لفراق أمها التى لم يكن لها غيرها فى الوجود وكان تعلقها وارتباطها بها يوشك أن يكون تعلقاً مرضياً . ومازالت أمه هذه لاتفتأ رغم مرور السنين الطوال – وحتى وفاتها – تذكر أمها بعين باكية وقلب مكلوم .

هكذا بدأ حياته الجديدة ضائعاً أو كالضائع .. وأدرك بعد فترة أنه قد حيل بينه وبين الضفة الغربية من النيل ، وحيل بينه وبين تلك القرية من قراها التى نعم فيها بدفء الحنان وغمرة الحب على نحو لم يجد له عوضاً قط.. ووقر فى قلبه الصغير - على غير وعى منه - أن جوعه إلى ذلك الحب سيظل جوعاً أبدياً بغير ارتواء.

وأدخل الصبى بعد ذلك - فيما يذكر - كتاب القرية ليحفظ بعض سور القرآن الكريم وليتعلم القراءة والكتابة مع بعض لداته ، وكان شيخ الكتاب واحداً من عائلة أبيه وهو فى ذات الوقت إمام مسجد القرية مما كان يحيطه بهالة تجعله مرهوب الجانب مسموع الكلمة لا يجرؤ أحد على مراجعته فى رأى يبديه.

وانهمك الصبى فيما أريد له وأظهر تفوقاً سريعاً على كل لداته حتى أنه ليحفظ بعض أجزاء القرآن ويحسن القراءة والكتابة فى بضعة شهور ، ويوشك ألا يذكر ذلك اليوم الذى بدأ فيه قراءة «الأهرام» وجلوسه بين بعض أقربائه ممن لا يقرأون ولا يكتبون وهو يقرأ لهم ما جاء فى «الجرائد» من أخبار السياسة وأخبار «الوفيات» جميعاً ، وما أقل ما كان يعى مما يقرأ وما أكثر ما كان يحس بنوع من العوض يسعده بعض السعادة إذ يحس بشىء من الأهمية لأنه يستطيع ما لا يستطيعه الكثيرون من لداته فى القرية.

وكان أبوه قد آثر - تلبية لرغبة أمه فيما يبدو - أن يبتنى بيتاً مستقلا عن بيت العائلة الكبيرة، ولم يكن ذلك البيت يفصله عن البيت

الكبير إلا بضع خطوات مما جعل الصبى وأخاه الأكبر أيضاً يترددان دائماً على جدهما وجدتهما حيث كانا يجدان لديهما من التدليل مالا يجدانه عند أبويهما .

ومازال الصبى يذكر كيف كان جده فارع الطول جهورى الصوت محباً للأكل ولكل متع الحياة، وكيف كانت جدته ضعيفة البنية خفيضة الصوت قانعة راضية النفس إلى أبعد حدود الرضا كريمة إلى حد يشبه السفه .

وكان «دوار» جده هو أهم مبانى القرية وأفخمها جميعاً ، وكانت تتقدمه عواميد أربعة ضخمة تظلها «شكمة» أو ما يمكن أن يقال له الآن «فراندة» و فى هذه الشكمة تمتد «دكك» خشبية على جانبى باب الدوار حيث كان يجلس جده منفرداً حينا ومعه بعض أعيان القرية وكبار رجالها حيناً ، وكان الصبى يحس برضا عميق وهو يرى أهل القرية يمرون أمام جده راجلين لايجرؤ أحدهم أن يمر أمامه مهما كبرت سنه أو علا مقامه وهو راكب حماره أو دابته .

وما أكثر ما كان ذلك الجد يلقى الألفاظ الغليظة على هذا الشخص أو ذاك فلا يقابل بأكثر من عبارة «ليه بس ياعم الحج» وحتى الذين كانوا يستطيعون مواجهته بتلك العبارة من أهل القرية كانوا قليلين.

حتى أولاده وبنو عمومته كانوا يخشونه . وكان عمدة القرية هو أحد بنى عمومته وزوج أخته فى أن واحد ، ومع ذلك فقد كان لايستطيع مع هذا الجد الغاضب دائماً الصاخب باستمرار إلا أن يسترضيه حيناً وأن يتجنب احتمالات هياجه فى كثر من الأحيان.

وكانت جدته هى ملاذ الأقربين والأغراب من أهل القرية إذا كان لهم عند ذلك الجد حاجة أو إذا أرادوا أن يطمئنوا من ثورته حين يثور وما أكثر ما كان يثور.

وكان الصبى الصغير معجباً بذلك الجد أيما اعجاب وكان محباً لجدته أيما حب وكان لايلقى من أيهما إلا كل الاعزاز والحنان والعطاء.

ومازال يذكر تلك الليلة التى اتفق فيها مع كثير من لداته وأقاربه على الذهاب إلى مولد «سيدى شبل» فى مدينة الشهداء على مبعدة بضعة كيلومترات من قريتهم ، وذهب إلى جده يستأذنه فى أن يذهب مع رفاقه هؤلاء ويطلب منه «مصروفه» وأذن له جده – ولم تكن به حاجة بعد هذا الاذن إلى أن يستأذن أحداً من والديه – ومنحه خمسة قروش كاملة، وما كان مصروف أحد من لداته يزيد على قرشين اثنين.

ورغم أن ذكريات تلك الليلة غير العادية ليست واضحة فى ذاكرته إلا أنه مازال يذكر ذلك الزحام الشديد الذى كانت تغص به تلك المدينة الصغيرة وأنوار «الكلوبات» التى كانت تملؤها وما اشتراه وأكله فى تلك الليلة من حلوى ، وكان الصباح قد اقترب عندما ذهب هو وبعض من معه ليناموا عند رجل جعل نصف بيته منزلا لزوار المولد ونصفه الآخر لمن أرهقه التعب.

– ٢ –

وذهب الفتى إلى طنطا مع أخيه ليكمل حفظ القرآن فى «كتاب» الشيخ عبد الحميد قشطة ذى الشهرة الواسعة فى الصرامة والقسوة ،

واختار والده له ولأخيه أن يسكنا فى حجرة عند شرطى ترتد أصوله إلى قريتهم ، وان كانت قد انقطعت بينه وبين القرية الصلات منذ أن عمل فى البوليس واستقر فى تلك المدينة . ويذكر الفتى أن ذلك الرجل كان ثقيل الظل وكانت له ابنة صغيرة تفوقه فى تلك الخاصية البغيضة . وكان عليه أن يجامل تلك الطفلة وأن يشترى لها أحياناً «بمليم نعناع أو أرواح» ولم يكن ذلك عن طيب خاطر منه ولكن الذى يذكره أن والدها كان يضطره إلى ذلك اضطراراً بطريق مباشر أو غير مباشر ، وكان لابد له من مرضاة ذلك الوالد حتى لا يخبر أخاه الأكبر كذباً بما قد يثيره عليه، و كان أخوه - على حبه له - يريد أن يمارس عليه من أنواع السيطرة والتسلط ما كان يضجر الفتى ويرهبه فى كثير من الأحايين.

وانخرط فى كتّاب الشيخ عبد الحميد قشطة وتزايد قدر ما يحفظه من القرآن الكريم يوماً بعد يوم . وعرف عنه بين لداته سرعة الحفظ وحسن الإلقاء . وكان الشيخ فخوراً به دون أن يظهر ذلك إلا لوالده، عندما يلم بمدينة طنطا بين الحين والحين ، وكان والده هو الذى يشعره برضا الشيخ.عنه وكان مظهر ذلك أن يعطيه - دون أن يعلم أخوه الكبير - عشرة قروش كاملة لا دخل لها بمصروفهما الذى كان يتصرف فيه الأخ الأكبر بطبيعة الحال.

ولا يذكر الفتى تلك المناسبة السعيدة أو التعسة التى جعلت والده يعطيه ذات مرة «ريالا» صحيحاً من الفضة ، وكان العهد ألا يعطيه كلما زاره هو وأخاه فى مدينة طنطا إلا عشرة قروش فقط. وظل الريال فى

جيبه أياماً لا تمتد اليه يده إلا لكى تطمئن عليه ، ذلك أن الريال فى تلك الأيام الخوالى كان ثروة حقيقية تزيد قيمته قطعاً عن قيمة عشرة جنيهات فى هذه الأيام الحاضرة ، وفى يوم من الأيام والفتى فى «الكتاب» يستظهر بعض آيات القرآن ، اذ به يضع يده فى جيبه ليجد أن «رياله» قد ضاع ، ويبحث مرة ومرة دون جدوى ويحاول أن يخفى ما ألم به من اضطراب شديد ولكنه لايستطيع إلى ذلك من سبيل . ويلاحظ الشيخ أن تلميذه ذلك النجيب تصدر عنه حركات غير عادية وأنه قد انصرف عن مصحفه ، وأن رأسه قد توقف عن الاهتزاز الذى يصاحب عملية القراءة ، وأنه يضع يده فى جيبه ثم يخرجها ليضعها مرة ثانية ، وأنه يدير رأسه تحت «التختة»، وأن أمره كله ينبىء عن أن شيئاً غير طبيعى قد حدث ، ويقترب منه الشيخ بطوله الفارع المخيف ورائحة «النشوق» تفوح منه ليسأله عما به، وينكر الفتى أن شيئاً قد حدث ، ويحاول جاهداً أن يسترد مافقد من هدوء ، ولكن الشيخ لا يجوز عليه شيء من ذلك ويعنف بالفتى ويشده من يده شدة كادت ذراعه الصغيرة أن تنخلع لها ، ولا يملك التلميذ إلا أن يعترف لشيخه بالكارثة التى وقعت ويبأن «الريال» الذى أعطاه له والده قد ضاع وأنه قد ضاع فى «الكتاب» لأنه تحسسه أكثر من مرة منذ الصباح وهو فى طريقه اليه وبعد أن استقر مقامه فيه.

ويأخذه الشيخ من يده والفتى يرتعد ولا يعرف ماذا ينتظره إلى أن ذهب به الشيخ إلى المكان الذى توجد به «الفلكة» حيث أمر به فوضعت

رجلاه فيها وضربه الشيخ ضرباً موجعا ، ورغم أن الفتى يذكر أن الشيخ لم يضربه بذات القسوة التى كان يضرب بها غيره من الصبية لما يرتكبون من أخطاء سواء فى الحفظ أو فى السلوك إلا أنه لم يستطع أن يدرك حتى يومه هذا لماذا ضربه الشيخ وما الذى جناه ليستحق عليه العقاب ؛ لقد كان به من ألم ضياع «الريال» مايكفيه ولكن ذلك لم يكف الشيخ فمده فى «الفلكة» لأول مرة فى حياته ولكنها على أى حال لم تكن آخر مرة.

★★★

كان الفتى يسمع أخاه وابناء عمومته يتحدثون عن مقالات الرسالة والرواية وعن المعركة الأدبية التى تدور رحاها بين الرافعى والعقاد وكان أخوه من المتحمسين للرافعى وابن عم له - مات يرحمه الله - من المتحمسين للعقاد وابن عم ثالث يجامل هذا تارة وذاك تارة أخرى ويرى أن كلا من الأديبين الكبيرين لايخلو من ميزة، وكان الصبى يسمع ذلك كله لا يكاد يعى منه شيئاً ، الا أن ذهنه تفتح إلى شيء جديد.

وعرف أن ثمة داراً للكتب وأخرى للعاديات فى مدينة طنطا - وكانتا آنذاك فى مبنى واحد قريب من ميدان الساعة على قدر مايذكر - فكان يتردد عليهما كل يوم جمعة ليقرأ مايستطيع عن قصص مترجمة أو غير مترجمة مما لا يذكر شيئاً منه الآن ، ولكن الكتاب الذى مازال عالقاً فى ذاكرته كان من تأليف الأستاذ حسن الشريف وكان عنوانه «المآسى التاريخية الكبرى» وكان يدور حول أحداث الثورة الفرنسية بطريقة

روائية بالغة التشويق . ولعل حبه للتاريخ وشغفه بقراءته فيما بعد يرجع إلى تجربته الأولى مع ذلك الكتاب الذى جعله يعيش أحداث الثورة الفرنسية الدامية ومحاكماتها الشهيرة على نحو لم يغادر مخيلته قط، بل ولعل هذا الكتاب أيضاً كان وراء رغبته بعد ذلك فى دراسة القانون وحبه لمهنة المحاماة .

وأغرم الفتى بالقراءة وأولع بها ولعاً شديداً. وكان ذلك كله والصبى لم يبلغ العاشرة من عمره بعد. ولا يذكر ذلك اليوم الذى اشترى فيه قصة «الزير سالم أبو ليلة المهلهل» من عيون الأدب الشعبى التى كانت رائجة آنذاك وكانت تباع بالقرب من مسجد السيد البدوى نفسه .

وذات يوم لم يكن قد أكمل فصلا من فصول الرواية فساورته نفسه أن يأخذها معه إلى «الكتاب» والنفس أمارة بالسوء . وأخذها فعلا وأخفاها فى ثنايا جلبابه وعندما جلس على مقعده أخذ يقرأ فى قصة «الزير سالم» وتأخذه القراءة فى القصة وتستولى عليه حتى لينسى نفسه ومن حوله وينسى أنه فى كتاب الشيخ عبد الحميد قشطة، ويبدو أن صوته قد ارتفع قليلا وهو يدندن بشعر تلك الملحمة الشعبية ، ولم يشعر إلا بيد غليظة تمتد لتمسكه من رقبته ويد أخرى تمتد لتمسك الرواية مفتوحة .. ودارت به الدنيا وأسقط فى يده وأظلم «الكتاب» كله من حوله وأحس كأن نهاية العالم ونهايته معاً قد دنت.

وهاج الشيخ هياجاً عظيماً وأرغى وأزبد ولطمه على وجهه واقتاده معه ثانية إلى ذلك المكان الرهيب حيث توجد «الفلكة» ، ولعن الفتى

«الزير سالم» وقصته وكتاب المآسى التاريخية الكبرى وكل كتب الأدب ، وتصور الفلكة وكأنها ذلك «الجيلوتين» الذى تهاوت عليه رؤوس قادة الثورة الفرنسية ورؤوس أعدائها على حد سواء.

وكان ذلك اليوم فراقاً بينه وبين كتاب الشيخ عبد الحميد فشطة ذلك أنه أعلن عصياناً لا عدول عنه وأعلن أنه لن يستمر عند ذلك الشيخ، بل أعلن أنه لن يكمل تعليمه إلا إذا ادخله أهله المدارس الابتدائية .

ولم يستطع أخوه أن يحسم ذلك وحده فأرسل إلى والده لكى يحضر، وقد شجع الفتى على عصيانه واصراره على ذلك العصيان أنه أحس احساساً مبهما أن والده وأخاه جميعاً كانا مستاءين من القسوة البالغة التى عامله بها الشيخ والتى مازالت آثارها واضحة على رجلى الفتى واجزاء من جسمه ، إلى أن حضر أبوه وشجعه ذلك الإحساس على أن يمعن فى موقفه لايحيد عنه .

وكان العام الدراسى قد بدأ منذ شهور .

وجلس والده يتداول الرأى مع شيخ أزهرى - كان جليلاً جداً فى نظره آنذاك ، وكان الشيخ بالغ الضخامة ، وكان يسكن فى شقة كاملة بها صالون للجلوس - ومع غيره من أهل الرأى والحكمة واستقر رأيهم بعد طول المدارسة على أن يذهب به والده إلى مدرسة ابتدائية أهلية لعلها تقبله رغم أن العام الدراسى كان قد أوشك أن ينتصف .

واشترط ناظر المدرسة لكى يقبله أن يعقد له امتحاناً فى الاملاء والحساب.

ويبدو أن الفتى قد اجتاز ذلك الامتحان بنجاح ملحوظ مما جعل الناظر يعدل عن كل تردد ويقبله على الفور.

وكان لابد وأن يشترى له والده بدلة جاهزة، ومازال يذكر كيف ذهب مع ذلك الوالد الطيب إلى محل كبير فى مدينة طنطا وكيف لبس لأول مرة فى حياته تلك البدلة التى دفع والده ثمنا لها ثمانين قرشاً عداً ونقداً.

وأصبح منذ ذلك اليوم تلميذاً فى السنة الأولى الابتدائية .

- ٣ -

ولا يذكر الصبى شيئاً كثيراً عن تلك الشهور التى قضاها فى مدرسة «ولى العهد» الابتدائية الأهلية ولا عن تلاميذها إلاّ زميلا له من تلاميذ الفصل كان اسمه «سعفان» إذا كانت ذاكرته قد أسعفته بالاسم الصحيح بعْد كل تلك السنين الطوال التى جاوزت الستين ، وغير هذا الزميل الذى يذكر أنه كان هادىء الطبع أبيض الوجه أقرب إلى أن يكون طويل القامة مجدا فى دراسته حسن الإلقاء فى درس المطالعة - غير هذا الزميل الذى جاء ترتيبه الثانى فى امتحان نهاية العام - وكان فتانا هو الأول .. لا يكاد صاحبنا يذكر شيئاً عن تلك المدرسة ولا مدرسيها ولا حتى موقعها فى مدينة طنطا.

وعلى قدر احتفال الفتى واهتمامه كلما ذهب إلى تلك المدينة بأن يذهب إلى حيث كانت توجد - ومازال - مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية التى انتقل اليها منذ السنة الثانية الابتدائية فانه لايذكر شيئاً

ذا قيمة عن تلك المدرسة الأهلية التى قضى فيها تلك الشهور من سنته الأولى فى التعليم العام.

ولم تكن مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية مدرسة أهلية بالمعنى الذى كان يعرف عن تلك المدارس فى تلك الحقبة من نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث كانت تلك المدارس تعتبر أقرب إلى المشروعات التجارية منها إلى مدارس العلم . ولكن مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية لم تكن مع ذلك من المدارس الأميرية أى من مدارس الحكومة . وكانت فى طنطا مدرسة ابتدائية أميرية واحدة وكانت مصروفات التلاميذ فيها فى العام تزيد على عشرة جنيهات ، ذلك على حين أن مصاريف التلاميذ فى الجمعية الخيرية الاسلامية كانت ستة جنيهات فقط. كذلك فإن المدرسة الأميرية كانت تمتاز بملعبها الكبير الذى تتبارى فيه المدارس الابتدائية فى كرة القدم . ولم يكن فى مدرسة الجمعية الخيرية مثل هذا الملعب وإن كان فيها ملعب لكرة السلة. كذلك فإن تلاميذ المدارس الابتدائية الأميرية الذين كانوا يدفعون عشرة جنيهات رسوماً كانوا يتناولون وجبة الغداء فى المدرسة الأمر الذى لم يكن متاحاً فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية .

وكأن القدر كان لايريد أن يرهق والد الفتى فوق إرهاقه فأراد أن ينجح من السنة الثانية إلى السنة الثالثة الابتدائية بحيث كان ترتيبه الأول على كل فصول المدرسة. وكان النظام المتبع فى مدرسة الجمعية

الخيرية الإسلامية أن يتمتع الطالب الأول بمجانية التفوق . وسعد الفتى أيما سعادة عندما علم أنه أول مدرسته وأن مكافأته على ذلك ستكون إعفاء والده من مصاريف المدرسة . ولم تكن شيئاً هيناً بمقاييس تلك الأيام : ستة جنيهات نقداً وعداً . وضاعف من سعادة الفتى أنه عندما منح مجانية التفوق سمع عن نوع آخر من المجانية فى الجمعية الخيرية الاسلامية كان يطلق عليه مجانية الفقر. وكان للحصول على هذه المجانية عدة شروط منها شدة الفقر مع الانتقال من سنة إلى سنة أعلى . وكان يحصل على هذه المجانية عدد من الطلاب فى كل سنة ، ذلك على حين أن مجانية التفوق تمنح لطالب واحد ، وكان لا يطلب من مستحقها أن يثبت عجزه عن دفع الرسوم كما هو الحال بالنسبة لطالب مجانية الفقر . ذلك فضلا عن الفارق الرهيب بين الاسمين : مجانية التفوق ومجانية الفقر .

ويذكر الفتى أنه ظل سنين طويلة يقول لوالده فى معرض المزاح الذى لا يخلو من جد أنه لم يثقل عليه قط فى رسوم المدارس كما فعل إخوته الآخرون ، وأنه منذ السنة الثانية الابتدائية وإلى أن أتم تعليمه فى الجامعة كان يتمتع دائماً بمجانية التفوق ، وكان والده – رحمه الله – يقول له مسروراً فرحا وعاتباً فى نفس الوقت : وهل مصاريف المدرسة شيء إلى جوار المصاريف الأخرى وتكاليف الحياة؟!

★★★

وكان أخوه الأكبر يريده أن يكون أديبا ، ولعله لمس فى الفتى استعدادا لشيء من ذلك وهو يتابع تلك المحاورات المستمرة بين أخيه وبنى عمومته وأبناء القرية من طلبة الأزهر حول الرافعى والعقاد وطه

حسين وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين، تلك الأسماء التى سمع الفتى عنها كلها وهو لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلاً ، بل ولعل أخاه أيضاً لمس ذلك الاستعداد فى فتانا حيث كان يريد أحياناً أن يقرأ فى الرسالة وحيث كان يقرأ فعلا فى الرواية .. كان أخوه الأكبر يريده أن يكون أديباً مرموقاً يوما من الأيام ولذلك شجعه على أن يكمل القرآن حيث لم يكن قد بقى له على اتمام حفظه عندما ترك كتاب «الشيخ عبد الحميد قشطة» إلى المدرسة الابتدائية غير أربعة أجزاء فقط من القرآن الكريم كله والذى يجزأ إلى ثلاثين جزءاً .

والأكثر من ذلك أن الأخ الأكبر كان قد سمع أو عرف أن الأستاذ دريني خشبة كان له ابن أخت من الأبناء النابهين الشباب وأنه – أى دريني خشبة – قد جعله يحفظ كليلة ودمنة لابن المقفع عن آخرها ، ورغب أخوه فى أن يفعل الفتى نفس الشيء، وامعاناً فى تشجيعه فقد نذر أن يعطيه خمس مليمات (قرش تعريفة) – وما أدراك ما خمس مليمات آنذاك – عن كل صفحة من «كليلة ودمنة» يحفظها عن ظهر قلب . ويذكر الفتى أنه حفظ جزءاً ضخماً من كتاب كليلة ودمنة وأن ذلك الجزء ظل عالقاً بذهنه ردحاً طويلاً من الزمان ، ولكن الفتى لم يستطع أن يكمل حفظ كليلة ودمنة فقد كان يجد فى حفظها مشقة كبيرة ، ويذكر أنه اشتكى إلى والده من ذلك الأمر فى مرة من المرات التى كان والدهما يلم بهما فى تلك المدينة «طنطا» ليطمئن على أحوالهما وليعطيهما مايلزمهما من نفقة وليمنح الفتى الصغير – دون علم من أخيه – عشرة قروش كاملة غير منقوصة فى كل مرة من تلك المرات.

واستاء الأخ الأكبر من شكوى الفتى لأبيه عن أمر ليس فيه إلا مصلحته ، ولم يدرك مدى المشقة التى كان يعانيها ذلك الصبى الصغير فى تحصيل دروسه وفى حفظ بقية أجزاء القرآن وكذلك تلك الصفحة من كليلة ودمنة ، وتركه على حريته لكى يقرأ «كليلة ودمنة» قراءة بغير استظهار . وكان الفتى على شغف بالقراءة وحب شديد لها . ويبدو أن تلك العادة - عادة القراءة - قد تكونت لديه منذ ذلك الوقت المبكر ومازالت تلازمه إلى يومنا هذا . ومازال يؤرقه أن شواغل الحياة تحول بينه وبين متعة القراءة وقتا يقصر أحياناً ويطول أحياناً وفقا لظروف الحياة ودواعى العمل.

ويوشك أن يتصل مايذكره الفتى عن تلك الفترة من حياته فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بذلك التكوين اللغوى والأدبى الذى اتيح له ولم يتح للكثير من لداته . يذكر أنه اختير لإلقاء «خطبة» عن شخصية من الشخصيات الاسلامية وكان الفتى - ومازال حتى يومنا هذا - معجبا إعجابا شديدا بشخصية عمر بن الخطاب فاختار « عمر » موضوعا لتلك الخطبة . ويذكر الفتى أنه كان محل استحسان غير قليل من أساتذته الذين استمعوا إليه بغير ضجر.

ويذكر الفتى أن مفتشاً للغة العربية جاء زائراً للمدرسة وهو فى السنة الثالثة وكان استاذ اللغة العربية من الأساتذة الأكفاء، وكان الفصل من الفصول المعروفة بقوة التلاميذ وتفوقهم . وشاءت ظروف لم يدرك الفتى كنهها ألا يستطيع أغلب الطلاب الاجابة على ما كان يثيره

المفتش من أسئلة وأنه وحده الذى كان يظل رافعا أصبعه طالباً الاجابة، وكان يجيب الإجابة الصحيحة ، وأدى ذلك إلى اعجاب المفتش به إلى حد أنه كان عندما يلقى سؤالا ولا يستطيع التلاميذ الاجابة عنه كان يتجه إلى فتانا قائلاً : «أجب ياللى عليك الأمل ياجمل» ويذكر الفتى أنه رغم سروره إلا أنه كان فى ضيق شديد لأنه أحس أن استاذه ذلك الذى لم يدخر جهداً معه ومع زملائه كان فى حرج شديد وضيق أشد نتيجة عجز الطلاب عن إجابة الأغلب الأعم مما أثاره المفتش من أسئلة يبدو أنه كان يقصد من ورائها اثبات عجز المدرس عن توصيل العلم إلى التلاميذ . إلا أنه أيا كان الأمر فقد ظلت تلك العبارة «ياللى عليك الأمل ياجمل» عالقة فى ذهنه إلى وقت بعيد . ويذكر الفتى أيضاً أنها لم تكن عالقة فى ذهنه على نحو يخلص للسرور وإنما كان سروره يختلط بشىء من المرارة يرجع بعضه إلى ما أصاب أستاذه من هم ويرجع بعضه إلى كثير من تصاريف الحياة الأخرى التى لم تحقق آماله فى كثير من جوانب الحياة.

★★★

كان يوم الخميس الأخير من العام الدراسى لاينتهى إلا وهو عائد إلى القرية ليقضى بها إجازة الصيف كاملة غير منقوصة . ولم تكن الفترة التى يقضيها فى القرية مجرد إجازة صيف ، لقد كانت حياة كاملة ، كان يعيشها حتى باكثر مما كان يعيش أيام المدرسة .. ذلك أنها لم تكن مجرد لهو وراحة ولعب ولكنها كانت من أكثر الفترات امتلاء

فى حياته ، وقد تكون من أبعدها تأثيراً على تكوينه النفسى والثقافى .
وكانت تلك هى الفترة التى يجتمع فيها شمل الأسرة الصغيرة أو الكبيرة كانت هى الفترة التى يرى فيها أمه وأباه وبقية اخوته ، هذا عن الأسرة الصغيرة ، والتى كان يرى فيها عمومته وأبناء عمومته ومن اليهم وتلك هى الأسرة الكبيرة.

وكان أبوهم قد اختار - بناء على رغبة الأم - أن يبتنى بيتا خاصاً مستقلا عن البيت الكبير، ولكن ذلك البيت المستقل الذى لم يكن يخلو من بعض مظاهر الحداثة لم يكن بعيداً عن حيث يوجد جده وجدته وبقية أعمامه ولداته من بنى الأعمام.

وكان مركز «العمودية» فى عائلتهم منذ كان ذلك المنصب فى القرية المصرية ، ولكن العمدة لم يكن هو جده المباشر ولا عمه المباشر وانما كان من فرع آخر من فروع العائلة ، وكانت تلك الفروع ترتبط ببعضها بأكثر من رباط ، كان العمدة ابن عم لأبيه وابن عمته فى نفس الوقت ذلك أن والدى العمدة كانا بنى عمومة ، ومن ثم فقد كان جده عما للعمدة وخالاً له فى أن واحد وكانت البيوت كلها متشابكة متلاصقة ، وكان العهد بقسة الأرض والدور مازال قريباً ، وكان جيله من الصغار ينظرون إلى الجيل السابق عليهم - جيل الآباء والأعمام - على أنهم اخوة لايكادون يميزون بين الأخ وابن العم إلا قليلا .

وأنه مازال يذكر جده وكيف كان فارع الطول يكاد الدم ينفر من وجهه من شدة احمراره ، وكيف كان حاد المزاج لايكاد يتكلم بهدوء فى

أمر من الأمور . وكيف أن جده الآخر - العمدة - كان قصير القامة هادىء الطبع يتحاشى أن يدخل فى صدام مع قريبه ذلك الحاد الطبع العالى الصوت العصبى المزاج ، وقد انتقل ذلك الجيل من الجدود إلى الدار الآخرة ولم يبق فى ذاكرة الفتى عنهم إلا أقل القليل .

أما جيل الأعمام وأبناء الأعمام فأولئك الذين كانت تتكون منهم لحمة الحياة وسداها طوال شهور الصيف الأربعة.

وكان «سعد» أكثر ابناء عمومته التصاقاً به وقربا منه . وكان كلاهما «رومانسيا» حالما ، وكان كلاهما يحب القراءة ويشغف بها شغفا شديدا. وكان وصول الفتى إلى القرية يعنى أن يتوقف «سعد» عن كل عمل منتج.

وقد ذهب «سعد» إلى طنطا فى البداية كى يلتحق بالأزهر ثم آثر السلامة وعاد إلى القرية بعد وقت غير طويل . ولكنه لم يستطع عندما عاد إلى القرية أن يعيش كما يعيش لداته.

كان قد عرف أشياء وتعلم أشياء ، وكان قد كره الدراسة ولكنه أحب القراءة الحرة، ولم يكن كرهه «الفلاحة» بأقل من كرهه للدراسة التقليدية.

وكان يضيق بالقرية ضيقاً شديداً أيام الشتاء القاسية - رغم قصرها - وكان ينتظر الصيف بفارغ الصبر حتى إذا جاء صاحبنا أوشكا ألا يفترقا طوال تلك الشهور الأربعة ، كانا يقرأن معا ويتبادلان الكتب ويتحاوران فيما يقرآن . وكانا ينصتان إلى من هم أكبر منهما

سنا وأكبر اطلاعاً وثقافة وهم يتناقشون ، ويحاولان قدر جهدهما أن يتابعا تلك المناقشات ، وقد يعن لصاحبنا أن يتدخل فى المناقشة أحيانا. وقد يستمع له الكبار من بنى عمومته وقد يردون عليه أو قد يكتفون بالاستماع ثم يواصلون مناقشاتهم ، وما كان أروع تلك المناقشات وما كان أشد تأثيرها على نفس صاحبنا وقلبه وعقله جميعاً . كانوا يتحدثون عن العقاد وعن الرافعى وعن طه حسين وكان لكل واحد من هؤلاء الأدباء الكبار شيعة تتشيع له وترى فيه كل الفضائل ولا ترى فى غيره شيئاً قط من فضل . ولم يكن الأزهريون كلهم من شيعة الرافعى كما يتوقع ولم يكن غير الأزهريين كلهم من المتشيعين لطه حسين أو للعقاد . بل كان التشيع يجمع من هؤلاء ومن هؤلاء . وكان الحوار يجرى هادئاً أحياناً وصاخباً أحياناً وينتهى المتحاورن على ما كان بينهم من ود عند بدء حديثهم وحوارهم بعض الأحيان إلى ما يشبه المشادة الكلامية التى تؤذن بقطع أحبال النقاش والود جميعاً.

وكان أخوه الأكبر – وكان طالبا فى نهاية المرحلة الثانوية آنذاك – متشيعاً لمصطفى صادق الرافعى أشد التشيع وكان يوشك أن يتغنى بمقالاته فى «وحى القلم» وأن يحفظ بعض عباراتها ويرددها ترديداً. ومازال الفتى يذكر كيف كان أخوه معجبا أشد الاعجاب مفتوناً أقوى الفتنة بمقالات «الانتحار» التى كتبها الرافعى فى الرسالة ثم جمعها بعد ذلك فى أحد أجزاء «وحى القلم» ومقالة «الله أكبر» وغيرها من المقالات . وكان ابن عمه «أمين» رحمه الله – الطالب الأزهرى الذى يوشك أن

ينهى المرحلة الثانوية الأزهرية ويبدأ المرحلة النهائية من التعليم الأزهرى – كان أكبر من أخيه بعدد من السنين وكان من شيعة العقاد الذين يقرأون كل ما يكتب العقاد أو كل مايكتب عن العقاد. ويذكر الفتى فى تلك المرحلة من العمر أنه كانت هناك معركة أدبية واسعة بين أحد تلاميذ الرافعى هو محمد سعيد العريان وأحد تلاميذ العقاد هو سيد قطب – رحم الله الجميع – وكان أخوه من المتحمسين للعريان ، وابن عمه من المتحمسين لسيد قطب فرعا عن تحمس كل منهما للأصل – الرافعى من ناحية والعقاد من ناحية أخرى – وكان كثيرون من الأزهريين فى القرية يشاركون بعض المشاركة فى هذه المناقشات ولكن كثرتهم لم تكن تستغرقها تلك المناقشات استغراقا كاملا وانما كانوا ينصرفون إلى معاونة أهلهم وذويهم فيما يقومون به من عمل فى الحقل أو مايشبه ذلك. ويبدو أن أخاه وابن عمه أمين وابن عم ثالث بعيد – محمود – كانت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية تتيح لهم شيئاً من اليسر لا يلجئهم إلى مساعدة أهلهم – الا لماما – فى عطلة الصيف.

آباء عاطفيون
وأمهات قويات !

كان فتانا يقضى صباحه يقرأ . وقد بدأ «مشوار» القراءة مع مصطفى لطفى المنفلوطى، ومايزال يذكر كيف استغرق فى قراءة «ماجدولين» حتى أنه كان لا يحس بمرور الوقت من حوله، إلا أن فترة «المنفلوطى» لم تستغرق معه وقتا طويلا وإنما عبرها بسرعة إلى قراءات للمازنى وتوفيق الحكيم ثم محاولات بعد ذلك مع الرافعى وأخرى مع العقاد وغيرها مع طه حسين ، وكان المنبع الخصب هو أعداد الرسالة . أعداد الرسالة فى سنواتها السابقة وأعداد الرسالة الجديدة . كانت الرسالة هى المدرسة الثقافية التى كان يمضى فيها ومعها شهور الصيف الأربعة ، وكانت للرسالة شقيقة صغيرة اسمها «الرواية» وفى الرواية التقى مع كثيرين من كتاب القصة القصيرة وكثير من المترجمات. وعلى صفحات الرواية يذكر أنه التقى مع نجيب محفوظ لأول مرة من أكثر من خمسين عاما . يذكر أيضاً أنه التقى بتوفيق الحكيم على صفحات الرسالة والرواية جميعاً . وكان يلقى تشجيعاً من أخيه ومن ابن عمه «أمين» ، أما أخوه فكان يريده أن يحب الرافعى ويقرأه ويأتم به وأما «أمين» فكان لايرى فى قراءة الرافعى خيرا يرتجى وأن الثقافة كل الثقافة والعمق كل العمق هى فى قراءة العقاد . وكان فتانا

يسمع إلى أخيه ويسمع إلى ابن عمه ولا يريد أن يغلق ذهنه على أحد أو دون أحد من الكتاب الكبار جميعاً .

وكان «سعد» هو رفيق الجزء الغالب من وقته خاصة عندما تقترب الشمس من الغروب . كانا يخرجان معا يسيران على الجسر حاملا لهما السير . فى يدهما كتاب أو عدد من أعداد الرسالة أو أعداد الرواية . يتحدثان فى كل شيء حديثا منطلقا على سجيته لا يتركان أمرا من الأمور الا طرقاه.

وكان فتانا قد جاوز الثانية عشرة من العمر واقترب من نهاية المرحلة الابتدائية عندما خفق قلبه بالحب لأول مرة وهو فى القرية . كان يحبها وكانت تحبه . وكانت تكبره بعام واحد وكانا يلتقيان خلسة فى أمسيات صيف القرية . وكان يسهل لقاءهما أنهما قريبان وأن الدور توشك أن تتجاور . وكان تعبير كل منهما عن حبه للآخر يتمثل فيما قد يحتفظ به لكى يقدمه لصاحبه من بعض « كيزان » الذرة أو بعض ثمار الفاكهة عند أول ظهورها . ما كان أحلى أن يعطيها شيئاً من ذلك القبيل أو أن يأخذ منها شيئاً . وكان يتخيلها وهو يقرأ قصص الحب خاصة «ماجدولين» وكان يتصور أنه سيعيش معها قصة حب يكتبها يوما من الأيام .

وكان حبهما بريئاً ساذجاً غرا أيضاً . ولكن ذلك الحب الذى بدأ به قلبه مسيرة طويلة ووعرة لم يقدر له إلا أن يكون حبا موجعا على غير مايلتظر من حب الصبية بعضهم لبعض حيث رآهما أخوها وهما

واقفان فى جنح الليل يتهامسان ويتناجيان، وكان أخوهـا يعلم منه مباشرة أنه يعيش قصة حب وقد أدرك الآن من هى «المحبوبة» وضرب أخته «علقة» وقاطع قريبه منذ تلك *الليلة*.

أما هى فقد أصيبت بالحمى وتأخر أهلها فى احضار الطبيب وأكلت مالا ينبغى لها أن تأكل ، وفى صباح يوم حزين انطلقت الأصوات الباكية تعلن أن روحها *الحلوة* قد فاضت *إلى ربها*، وهكذا طويت صفحة حبه الأول وهى لم تكد تبدأ.

***

وفى إجازات الصيف فى القرية بدأ يعرف أباه وأمه وبقية أخوته عن قرب ، ذلك أنه كان يقضى طوال العام الدراسى فى طنطا مع أخيه «سعيد» إلى أن انتهى «سعيد» من التعليم الثانوى ودخل كلية الحقوق فى القاهرة وهناك استقرت الأسرة كلها بناء على إلحاح الأخ الأكبر ورغبته أن تكون أمه قريبة منه.

وفى إجازات الصيف الطويلة وفى تلك القرية من قرى المنوفية كان يرى أباه ويرى أمه ويرى بقية أفراد أسرته ، وبدأت تنطبع فى نفسه مشاعر وخيالات وأفكار عنهم جميعاً .

أما أبوه فكان الحنان مجسما فى رجل . كان رجلا طيباً بكل ماتعنيه هذه الكلمة عند المصرى العادى من أمور منها الإيجابى ومنها السلبى عند هواة تحليل الالفاظ.

كان يحب أولاده ويتعلق بهم ويحرص على مرضاتهم ما وسعه إلى ذلك من سبيل . وكان حنونا عطوفاً لا يذكر أنه زجره أو ضربه فى طفولته قط. ولم يكن الرجل موسعاً عليه فى الرزق ومع ذلك كان حريصاً الحرص كله على أن ينال أولاده - جميعاً - بنين وبنات - من التعليم ما قد حرم منه ، وذلك أن هذا الوالد الطيب كان من أوائل من ذهبوا إلى التعليم المدنى فى منطقتهم وكان بيقين أول من دخل المدارس الثانوية من أهل القرية ولكنه لم يستطع أن يحصل على شهادة «البكالوريا» ويبدو أن ذلك ترك فى نفسه أثراً عميقاً جعله حريصاً أن يحقق أولاده مالم يتح له أن يحققه.

وكان الرجل الطيب سريع التأثر بما يسمع من الناس مما كان يجعله يبدو متردداً لا يستقر على رأى إلا وتركه إلى غيره ثم عاد إليه أو لم يعد ، ولكن الشيء الثابت الواضح فى سلوكه هو ذلك الحب الغامر الفياض تجاه ابنائه ، وقد كان ذلك الحب يصل أحياناً إلى حد الإيذاء عندما يتحول إلى نوع من الخوف الذى لا مبرر له ولا سبب .

ويذكر صاحبنا وهو صبى صغير كيف أن والده هو الذى كان يشرف على «حمامه» لكى يتأكد من أن الماء لا هو بالبارد ولا هو بالساخن وإنما هو بين هذا وذاك فاتر لا يؤذى الغلام ولا يسبب له نزلة برد بعد ذلك. وكيف كان يلف الصبى لفا بعد الحمام فى بطانية من الصوف ولا يتركه إلا وهو فى سريره يتهيأ لنوم عميق أو غير عميق حسب مايكون قد أصاب فى يومه ، وقد أثر ذلك على صاحبنا طوال

حياته اذ اضعف مقاومته لنزلات البرد وتقلبات الجو وأصبح المرض الذى يعاوده بين الحين والحين هو تلك «الانفلونزا» الكريهة التى توشك أن تلم به عند مخارج الفصول ومداخلها وبين ذلك أحياناً أخرى.

وكـان ذلك الوالد الطيب الحـريص على أولاده وعلى تعليمـهم ومستقبلهم كثيراً مايضرب لهم الأمثال الطيبة من وجهة نظره لكى يشجعهم ويحفزهم على الاقتداء بها، ولكن الفتى يذكر أن والده الطيب لم يذكر مثلا واحداً يصلح للاحتذاء . كان يضرب لهم الأمثلة، دائماً بأشـخاص هم دونهم فى كل شىء، ولكن الوالد كـان يراهم خيـراً من أولاده، ويبدو أن كثيرين من الآباء لا يرون فى أبنائهم خيراً ويرون الخير كله فى أبناء الغرباء.

وكم كان يحـز فى نفس الفتى أن يضرب له أبوه مثـلا بهذا أو ذاك من فتيان القرية الذين كان هو يراهم دونه فى كل شىء . وتمضى الأيام فإذا بكل تلك الأمثلة لا تنجح فى شىء قط لا فى الفلاحة ولا فى غيـر ذلك ، ويحلو للفتى وقد شب عن الطوق أن يذكر أباه بتلك الأمثلة الخائبة التى كان يذكرها له يريد من ورائها أن يحفزه إلى ما هو أفضـل ، وقد حاول الفتى عندما كبر أن يفهم سر ذلك ولكنه لم يستطع أن يصل إلى شىء، ولعل الشىء الوحيد الذى دار بذهنه هو أن والده كـان يحب والد هذا أو والدة ذاك لقرابة أو لصلة وكان حبه للوالدين يدعوه إلى شىء من الاعجاب بالأبناء فلا يرى فيهم إلا محاسنهم ولا يفتأ يذكر تلك المحاسن - الموهومة - أمام أبنائه حتى ليكاد يضجرهم فى حياتهم وحتى ليكاد يدفعهم دفعا إلى كراهة تلك الأمثلة بل والسخرية منها .

ولم يكن ذلك الوالد الحنون من الشخصيات الآمرة الناهية المستبدة بأبنائها . كان عكس ذلك تماماً وكان مسالماً لايحب المشاكل وينأى بنفسه ويود لو نأى بأولاده جميعاً عنها . وكان متديناً فى غير تطرف ، محباً للحياة فى غير تكالب . يسره من دنياه رؤية أولاده ناجحين ويسعده أن يأكل من الطعام مايشتهيه ويستطيبه.

وكان الفتى يلحظ أن أسارير ذلك الرجل الطيب كانت تمتلىء بالرضا وهو على مائدة الطعام يأكل ما يحبه من ألوانه ، وكان من محبى الأسماك واللحوم بصفة عامة - وكان يكمل سعادته أن يكون حوله بعض أبنائه إن لم يتيسر أن يكونوا جميعاً معه . لم يكن شرهاً وإنما كان ذواقة فى غير تكلف ولا تزيد.

كان يحب الخير كل الخير لنفسه ولأولاده . وكان يحب الخير لمن لايعرف من الناس ولكنه بالنسبة للآخرين من أهل القرية فإنه ما كان يسعده كثيراً أن يمتاز عنه أحد منهم بشىء فإن امتاز أحدهم فإن ذلك لم يكن محل قبول حسن أو رضا صادق من نفسه وإن أظهر ذلك الشعور أمام الغير . وكان أظهر مايبدو ذلك واضحاً تجاه بعض الذين لم يكن الوالد يرتاح لهم أو حتى لسماع حديثهم ولم يكن بالتالى يرتاح عندما يسمع أن خيراً أصابهم خاصة إذا كان ذلك الخير يتمثل فى شراء بضعة قراريط من أرض.

ولم يكن ذلك الشعور بغير سبب . كان والد الفتى يوشك أن يضطر فى شهر أكتوبر من كل عام - وهو بداية العام الدراسى - أن يبيع

بضعة قراريط من أرضه لكى يواجه تكاليف بداية العام الدراسى خاصة عندما كبر أولاده ودخلوا المدارس كلهم أو أغلبهم وكانوا فى مراحل التعليم المختلفة من الابتدائى إلى الجامعة . ولم يكن هناك من سبيل إلى مواجهة أقساط المدارس وشراء مايحتاجه هؤلاء الأبناء غير اللجوء إلى بيع أرض أو رهن شيء أو اقتراض من أحد . وكان أبوه يقدم على ذلك غير نادم ولا متأفف ، ولكن والدته كانت على عكس ذلك تماماً . كان يوماً حزيناً بالغ الحزن اليوم الذى تضطر فيه الأسرة إلى بيع شيء أو اقتراض مبلغ من المال مهما كان سبب ذلك أو دواعيه حتى ولو كان دفع أقساط مدارس الأبناء .

والحقيقة ان أمه كانت شخصية مختلفة عن أبيه كل الاختلاف.

كانت لا تقرأ ولا تكتب ومع ذلك كانت حادة الذكاء قوية الشكيمة متميزة الشخصية . وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها لاتكاد تترك خطأ صغيراً دون أن تعنف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف . وكانت متحفظة فى عواطفها لا تكاد تعبر عنها أو تبديها، حتى حنانها نحو أولادها كان أمراً يندر أن يظهر على وجهها وإن امتلأ به قلبها . بل إنها كثيراً ما كانت تبدو بالغة القسوة خاصة في الأمور التى تخاف منها على مستقبل أولادها وعلى ماتريده لهم من سلوك ، ولم يكن يخيفها شيء قدر اختلاط أولادها بأولاد عمومتهم – خاصة البعض منهم ممن خابوا فى كل شيء وكانوا فى سن أخيه الكبير – وكان معها الحق فى خشيتها ولكنها كانت تبالغ أشد المبالغة

فى ردود أفعالها وقسوتها عندما كانت تضرب أحد أبنائها لكى تقوم ماتراه اعوجاجاً.

ويبدو أن صاحبنا كان أقل الإخوة الثلاثة الأوائل تعرضا الضرب من أمه. ويبدو أن الأخت الكبرى نالت من هذه القسوة أكثر مما ناله هو أو ناله «سعيد» . ورغم أن سعيداً لم يسلم من بعض مظاهر القسوة من والدته إلا أنها كانت مع ذلك تحوطه بقدر من الرعاية والتدليل والاهتمام قل أن يدانيه فيه أحد من الابناء الآخرين . وكان ذلك يحنق فتانا ويجعله يحس بنوع من الغيرة نحو أخيه الكبير ، وكانت مظاهر رعاية أمه وتدليلها لسعيد تبدو فى كل شىء حتى فى اصناف الطعام التى تختصه بها وحتى فى طريقة الكلام أو فى تركه ينام حتى الظهر - فى أيام الاجازات - أو فى غير ذلك من أمور . وكان نجاح سعيد فى الامتحانات حدثاً تهتز له القرية وتعلم به من أقصاها إلى أقصاها ، وتوزع من أجله أكواب «الشربات» ذلك على حين أن نجاح صاحبنا - وكثيراً ما كان ترتيبه الأول على لداته - فكان يمر فى صمت لايكاد يشعر به أحد ولا يحتفل له أحد .

ولم تكن العلاقة بين الوالدين - وهما على هذا الاختلاف فى الشخصية - علاقة ود وسكن وهناءة ، كان يشوبها كثير من التوتر وكثير من النزاع «والنقار» والخلاف وكثيراً ما كان يسمع والدته تقول إنه بودها أن تذهب إلى مكان بعيد لا يعرفه أحد لترتاح من زوجها ومن أولادها ، وكثيراً ما كانت تبدى برمها وضجرها بتصرفات الوالد المالية

بل انها فى الأغلب الأعم لم تكن ترضى عن أى تصرف من تصرفاته . وكانت لا تكتم ذلك ولا تخفيه . وكانت الأمور بينهما تمر أحياناً هادئة رغم الخلاف وما ذلك إلا لأن الوالد كان يترك الأمور تسير ويلزم جانب الصمت ، إلا أنهما فى أحيان أخرى كانا يبلغان من التوتر حداً يوشك أن يهدد الحياة الزوجية كلها تهديداً خطيراً . ورغم كثرة هذه الأزمات ورغم حدة الخلافات بين هذين الزوجين الطيبين فإن رابطة الزوجية بينهما لم تنفصم قط إلى أن لقيا وجه الله بعد عمر طويل.

وكان الفتى يشعر بتعاطف مع أبيه كلما دب الخلاف بينه وبين أمه . وكان يرى أن والده على حق وأن أمه بما جبلت عليه من حدة طبع تدفع الأمور دفعاً إلى مالا يحسن أن تدفع إليه .

واستمر الفتى حتى بعد أن كبر يحس بتعاطف أكثر مع أبيه وبتقدير أكثر لأمه . كان أبوه حنوناً عطوفاً . وكانت أمه حادة الذكاء قوية الشخصية. ومن هنا كان هواه لأبيه وكان عقله لأمه وهو أمر عكس المعتاد فى الحياة . ذلك أن الأب هو الذى يفترض فيه أن يمثل القوة على حين تمثل الأم الحنان والحب . وكانت الصورة مقلوبة فى تلك العائلة . كان الأب هو مصدر الحب والحنان. وكانت الأم هى مصدر القوة والحسم والاصرار. ولعل هذا هو الذى يفسر أن الفتى يشاركه فى ذلك اخوته جميعاً بأقدار قد تختلف – كانوا يهابون أمهم ويتعلقون بأبيهم وهم صغار وأنهم عندما اشتد عودهم وتقدمت بهم الحياة كانوا أكثر حديثاً عن أمهم وأكثر رواية لنوادرها وأكثر ذكراً لما كانت تضرب من الأمثال الشعبية البليغة .

ومازال فتانا بعد أن تقدم به العمر وتقلب فى أوضاع عدة من أوضاع الحياة وبلغ من الحياة الأكاديمية اقصاها ، مازال مع ذلك يحفظ الكثير من الأمثال الشعبية التى كانت أمه ترويها وتتمثل بها فى مواجهة أحداث الحياة .

وقد ورث الفتى عن أبيه ذلك الحنان المفرط ولم يضق الفتى بذلك الميراث رغم أن أكثر مالاقاه فى حياته من عناء وأكثر ما ظهر عليه من ضعف كان يرجع إلى حنانه ذلك الذى لم يستطع أن يتحكم فيه أو أن يخفيه عندما ينبغى له ذلك فى بعض تصاريف الأيام.

ولكن الشىء الذى لاشك فيه أن الفتى واخوته جميعاً رغم أنهم كانوا يحسون احساسا قوياً بحرص كل من والديهما عليهم وعلى مستقبلهم إلا أنهم لم يتمتعوا بذلك الدفء العائلى الذى تهيئه الحياة المستقرة التى يسودها التفاهم بين الزوجين ولعل ذلك قد ألقى كثيراً من الظلال على نفس الفتى وعلى نظرته لكثير من الأمور.

***

لم يكن «أمين» مجرد ابن عم كبير ولم يكن شخصاً عادياً على أى حال،

كان أخاً غير شقيق لسعد ، وكان «أمين» وأمه وأخوته يمثلون الجانب المهضوم آنذاك وإن تغيرت الأحوال بعد ذلك – وكان سعد وأمه وأخوته هم الأثراء لدى والدهم ، وكان الفتى على تلك العلاقة الوثيقة بسعد ، يتبادلان الخطابات فى الشتاء ولا يمضى يوم واحد فى الصيف

إلا والتقيا بعض اللقاء أو أكثره ، ولا تمضى فترة من الفترات إلا كانت لهما نادرة من النوادر .

ولم يكن «أمين» من سنهما وإنما كان يكبرهما بعشرة أعوام على الأقل . عندما كان الفتى يقترب من الرابعة عشرة – وهى السنة التى أنهى فيها تعليمه الابتدائى – كان أمين قد جاوز الرابعة والعشرين.

وكان شعور الفتى نحو «أمين» مزيجاً من الإكبار والخوف والإعجاب والنفور . وكان شعور «أمين» نحوه أيضاً مزيجاً من كثير من المتناقضات ، إلا أنه كان يبدى بالفتى اهتماماً ويوليه حدبا ويشيد بمواهبه ويشجعه على الاستزادة من القراءة ويطريه دائماً ويتوقع له مستقبلاً مزهراً فى عالم الفكر والأدب.

وكان أمين يستقل طوال الصيف بحجرة فى ملحق من ملاحق «الدوار» إلى جوار حجرة التليفون «والسلاحليك» وكانت تلك الحجرة هى منتدى المثقفين من أهل القرية . وجلهم من الأزهريين وأغلبهم فى عمر «أمين» وأصغر جيلهم هو أخوه «سعيد» ومع ذلك فكثيراً ما كان الفتى يحضر مجلسهم وينصت إلى مناقشاتهم بل وقد يلقى بكلمة هنا أو هناك.

وكان «أمين» يحب أن يخلو إليه بعد أن ينفض الجميع ويحب أن يحدثه كما لو كان واحداً من لداته . ويبدو أنه كان يجد منه من الإصغاء والانتباه مالم يكن يلقاه من الآخرين.

وحرص «أمين» على أن يحببه فى قراءة العقاد وإن لم يفرض عليه ذلك فرضاً.

وكانت أعداد الرسالة ترد إلى أمين كل أسبوع فى البريد فقد كان من المشتركين فيها وكذلك أعداد الرواية وكان أمين واحداً من القلائل فى القرية - إن لم يكن الوحيد - الذين يقتنون مجموعة من الكتب الأدبية يحتفظون بها فى خزانة خاصة عبارة عن تجويف فى أحد جدران الحجرة له باب من خشب مفتاحه دائماً فى جيبه، ويستطيع الفتى أن يقول إن حفظ القرآن فى «كتاب» الشيخ عبد الحميد قشطة مع كل ماصاحبه من معاناة وقسوة من قبل الشيخ، وحمل أخيه له على أن يحفظ أو يقرأ فى كليلة ودمنة، وتردده على مكتبة البلدية فى طنطا ثم مكتبة الحجرة - حجرة أمين - وخزانة المكتبة بها كانت هى بدايات تكوينه الأدبى والثقافى وكانت سر ما يقال عن تمكنه من اللغة العربية.

كان «أمين» صاحب فضل عليه من غير شك. ولكن أمين لم يكن شخصاً عادياً، كان أميل إلى الاكتئاب يغلب عليه الحزن ويحس دائماً أنه مظلوم مهضوم وأن الدنيا قست عليه. وكان الفتى الصغير الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يسمع ذلك كله من ابن عمه الكبير، كان يسمعه مشفقاً أحياناً حزيناً أحيانا أخرى برما بهذا الحديث المقبض فى غير ذلك من الأحايين.

ومن يدرى لعل ميل الفتى إلى بعض الاكتئاب يرجع فيما يرجع اليه من أسباب أخرى إلى تلك الجلسات الطويلة فى إجازة الصيف وإلى

تأثره بعض التأثر بما كان يسمعه من أحاديث ، وليس معنى ذلك أن الفتى لم تكن لديه أسبابه الخاصة للشعور بالمرارة والاكتئاب أحياناً أخرى فما كان أكثر تلك الأسباب ولعل أكثرها أهمية ما كان يحس به من جفاف حنان أمه وميلها كل الميل لأخيه الكبير وما كان يحيط تلك السيدة من هالة حزن لاتكاد تفارقها بعد وفاة والدتها.

وكان من خصائص «أمين» أنه يحب أن يصنع الشاى بنفسه ويحتفل بذلك احتفالا شديداً . وكان عنده فى حجرته الخاصة «منقد» من الفخار وكومة فى ركن الحجرة من «قوالح» الذرة المجففة وكان يحسن «رص» القوالح و يحسن إذكاء النار ثم يضع عليها براد الشاى فى عناية بالغة واهتمام شديد. ولم يكن الفتى يطيق أن يشرب من «الدور الأول» من ذلك الشاى الأسود وكان نصيبه من الشاى يبدأ عند الدور الثانى ويحلو عند الدور الثالث حيث يخف لون الشاى كثيراً ويميل إلى الاصفرار . ومازال صاحبنا حتى يومنا هذا لايشرب الشاى إلا خفيفاً حتى أن بعض من يعرفه يتندر عليه بأنه يشرب الشاى قبل «تلقيمه» أى قبل أن يوضع به نبات الشاى نفسه كناية عن أنه انما يشرب ماء يقال له تجاوزاً شاى.

ولم يكن «أمين» مدخناً ولكنه كان يشرب سيجارة بين الحين والحين . ويذكر الفتى أن أميناً كان يعطيه قرشاً صاغاً ويرسله ليشترى به عدداً من السجائر «الفرط» كانت أحياناً ثلاث سجاير وأحياناً أربعاء وكانت من ماركة يقال لها «واسب Wasp » إذا كانت ذاكرة الفتى

مازالت تعى اسم تلك السجائر . والشيء الذى لم يستطع الفتى أن يدرك له تعليلا حتى يومنا هذا أن «أميناً» هو الذى أغراه - وهو فى تلك السن المبكرة - أن يدخن سيجارته الأولى . لاشك أن أميناً كان يدرك مخاطر التدخين ، كذلك لاشك أنه كان يعلم أنه ليس من الخير لفتى صغير أن يدخن ، وقبل ذلك كله وبعد ذلك كله فقد كان يغريه بعمل لايستطيع أن يجهر به وكان العلم به معناه أن يناله من أهله غضب شديد .

ترى لماذا أغراه بشرب السيجارة الأولى ولماذا ظل يعطيه طوال عطلة الصيف سيجارة بين الحين والحين وقد يكون ذلك الحين يوماً أو أسبوعاً أو أقل من ذلك أو أكثر ولكنها كانت بداية سيئة على أى حال ، ومنذ اليوم الأول لم يشعر الفتى برغبة أو متعة فى أن يمسك سيجارة وينفث منها سحائب الدخان . ولكنه فعل واستمر يفعل. ينقطع أحياناً ويقبل أحياناً ويلعن دائماً ذلك اليوم الذى بدأ فيه التدخين ذلك على حين أنه لم يصبح مدمناً أبداً فى يوم من الأيام.

ويذكر الفتى من بعيد يوماً قاسياً بالنسبة لابن عمه هذا الكبير الذى كان له فى نفسه منزلة كبيرة . كان أبوه غاضباً عليه لأمر من الأمور وكان يعنفه بصوت عال - وكان عمه ذلك عالى الصوت قوى البنية - ولم يكن ابنه صغيراً فقد كان يقترب من الخامسة والعشرين وكان فى التعليم الأزهريّ الجامعى ويذكر الفتى أن «أميناً» ظل مطرقاً صامتاً محزوناً وأبوه مندفع كسيل العرم يكيل له الشتائم والسباب .

أدرك الفتى معنى الظلم وأحس بالحزن الشديد وكان عنده استعداد لادراك معنى الظلم والتعاطف مع المظلومين فقد كان يحس أن أهله – وأمه بصفة خاصة – لا يعدلون فى المعاملة بينه وبين أخيه الكبير الذى كان يستأثر بالعطف كله والاهتمام كله ولاينال صاحبنا من ذلك إلا أقل القليل إن ناله من ذلك شيء قط . وكان هذا هو شعوره حتى لو لم يكن هو الواقع فعلا كما يحب أخوه أن يقول .

وكان الفتى يود لو استطاع «أمين» أن يدفع عن نفسه بعض هـذا الضيم الظالم ولكنه كان يعلـم أنه لن يستطيع الا أن يصمت حزيناً متألماً إلى أن تنتهى ثورة والده ، ولعـل صمته وحزنه وألمه كان سيزداد عمقاً إذا رأى والده نفسه ذلك الثائر الغاضب قد أخذ يظهر من العطف والحنان لابنه الصغير من الأم المفضلة آنذاك – مالم يكن فى حاجة اليه قدر حاجة «أمين» إلى بعضه.

وأحس الفتى – فى غيـر وعى – كيـف تتفـاوت أنصبة الناس فى الحيـاة وكيف تتفاوت تلك الأنصبة لا لميزة هنا ولا لنقص هناك ولكن لأن تصاريف الحياة وأوضاعها أرادت ذلك وفرضته فرضاً.

غريب
فى المدينة

مازال يذكر أول يوم رأى فيه القاهرة .

وكان دخوله إليها لأول مرة من ناحية شبرا وكان يركب أحد تلك «الأوتوبيسات» التى تأتى من مدن الدلتا لكى تصب ركابها وما يحملون فى القاهرة قرب جامع «الخازندار».

ورغم أنه لم يكن صغيرا إلا أنه فوجىء إذ رأى «الترام» يجرى على قضبان مثبتة فى الأرض وكان خياله كله يوحى إليه أن الترام معلق بسلك فى الهواء . ولا يدرى على وجه اليقين من أين جاءت له هذه الصورة : ولكنه يرجعها فى الغالب إلى صورة رآها فى كتاب من كتب المطالعة فى إحدى سنوات الدراسة الابتدائية فى طنطا ولم تظهر قضبان الترام فى تلك الصورة : وإنما ظهر الترام وكأنه معلق من «السنجة» فى سلك يمتد فى الهواء.

وانطبعت تلك الصورة فى ذهنه ولم يحاول أن يفهمها على غير ذلك النحو إلى أن كان ذلك اليوم الذى رأى فيه الترام يسير على الأرض فوق قضبان من حديد كما تسير تلك القطارات التى كان يراها أحياناً فى محطة «طنطا».

ومازال يذكر حتى الآن كيف كانت «مفاجآته» وهو يرى الترام يسير على الأرض وكيف أن القاهرة فى لحظة المواجهة الأولى بينه وبينها قد أخلفت ظنونه.

وكانت القاهرة مختلفة تماماً منذ اللحظة الأولى عن كل ما رآه من قبل : شارع شبرا واسع لايقاس بما كان فى طنطا من شوارع وهذا الترام المعلق فى الهواء والذى يسعى على الأرض وهذه السيارات الكثيرة وهؤلاء الناس يمشون بسرعة أكبر وأعداد أكثر . يبدو أن الحياة فى القاهرة تختلف عنها فى غيرها من المدن اختلافاً كبيراً ..

وكان المنزل الذى يقطنون فيه قريباً من جامع الخازندار يقع فى شارع فرعى صغير ومازال يذكر أنه كان هناك على رأس ذلك الشارع بقال صغير يبدو أنه من المهاجرين الأولين من قريتهم إلى المدينة وقد سمع فيما بعد أنه قريب بعيد لأمه . أما «الشقة» التى استأجرها أبوه لهم فقد كانت شقة صغيرة لايكاد يذكر شيئاً واضحاً عن هندستها ولكن الذى يذكره أن أخاه كان يستقل بحجرة . وكان لتلك الحجرة باب مستقل يؤدى إلى سلالم البيت وباب يفتح على حجرة أخرى وكان هو وبعض إخوته يقيمون فيها . وكان فى تلك الحجرة سرير كبير ولكنه لم يكن ينام على ذلك السرير وحده بل إنه مازال يذكر أياماً كثيرة كان ينام فيها على الأرض ويترك السرير لأولئك الأضياف الذين يلمون من القرية بين الحين والحين.

وكانت الحرب العالمية الثانية توشك أن تختم فصولها ، كانت إيطاليا قد خرجت من الحرب مهزومة مكسورة مدحورة ، وكان الإيطاليون قد علقوا الدكتاتور موسوليني من رجليه فى جذع شجرة ، وكانت جيوش هتلر تخرج من انكسار إلى انكسار ومن هزيمة إلى أخرى.

ومازال يعلق فى ذهن الفتى من تلك الأيام أن «الشاى» كان يباع بالبطاقات وأن الفلاحين فى القرى لم يكن يكفيهم مايوزع عليهم وأن ذلك كله أدى إلى تجارة واسعة فى السوق السوداء للشاى ، ولاشك أن السوق السوداء كانت أكثر اتساعاً من أن تقتصر على هذه السلعة «الشاى» ولكنه يذكر هذه السلعة دون غيرها لأن أحد أقاربه ممن كانوا يأتون من القرية وينزلون عندهم ويحتلون مكانه على السرير كان يتاجر فى الشاى ، يشتريه من السوق السوداء فى القاهرة ، ويبيعه إلى بعض التجار فى القرية ويحقق عن طريق ذلك ربحا غير قليل.

ولا يذكر الفتى كيف أتيح له أن يتعرف على شابين من الصعيد كانا يسكنان قريباً من منزلهم،ورغم أن هذين الشابين كانا يسكنان فى حجرة واحدة ، إلا أن أمرهما كان مختلفاً جداً.

أما أحدهما فكان يقرأ كتبا لم يسمع عنها الفتى من قبل وكان يحتفظ بمجلات يبدو أن قليلين كانوا يسمعون عنها وكان يردد أسماء وعبارات لم يألف فتانا سماعها قط وعلاوة على ذلك كله فقد كان أول أزهرى يعرفه الفتى يلبس اللباس «الافرنجى» إذ كان يلبس بدلة كما

يلبس تلاميذ المدارس والجامعات ولا يلبس العمامة والقفطان كما يلبس الأزهريون .

وأما الشاب الآخر فكان طرازاً آخر من الناس . كان مفتول العضلات حاد النظرات فى وجهه قسوة . وكان لايلبس الزى الأزهرى ولا يلبس الزى الافرنجى وإنما كان يلبس جلبابا مما يلبسه أعيان الريف ولكنه - على عكسهم - لايضع على رأسه شيئاً ويمسك دائماً عصا فى يده يهزها هزا . ويبدو أن صلته بالعلم كانت ضعيفة.

وأدرك الأزهرى المثقف أن الفتى يحب القراءة ويقبل عليها إقبالاً شديداً فشجعه ذلك على أن يعطيه بعض المجلات ليقرأها ولكنه لم يكن يسمح له بأن يأخذها معه . ويذكر الفتى اسم واحدة من تلك المجلات . كان اسمها «الفجر الجديد» ومازال الفتى يذكر أنه قرأ فى تلك المجلة قصائد من الشعر لشاعر لم يكن قد سمع اسمه من قبل اسمه «محمد عبد الطيم» بل ومازال يذكر بيتا من أبيات واحدة من تلك القصائد كان يقول :

تنعم الكلاب لدى القوم   ونشقى فيا لها مضحكات

أما الشاب الآخر فكان يتاجر فى مواد التموين فى السوق السوداء. وكان الشاى بين مايتاجر فيه.

وروى الفتى أمام قريبه ذلك الذى كان يجىء من القرية وينزل عندهم وينام على سريره أمر ذلك الشاب وطلب منه ذلك القريب أن يعرفه به ولم يجد الفتى حرجا فى أن يفعل شيئاً من ذلك.

ويبدو أن الرجلين تفاهما على صفقة من الشاى . ويبدو أن الثمن كان «مرتاحا» لأنه لاحظ أن قريبه كان سعيداً بإتمام الصفقة.

ولم يمض غير يومين اثنين حتى عاد ذلك القريب من القرية غاضبا حانقاً ثائراً يريد أن يعصف بذلك الشاب «الغشاش» عصفا . فقد كان الشاى المباع خليطاً من أوراق الشاى وحبات الفحم وأشياء أخرى لا تمت إلى الشاى بصلة. وأحس الفتى بحرج شديد فقد كان هو واسطة اللقاء بين الرجلين . وأخذ قريبه وذهب به إلى حيث يسكن ذلك الشاب ولكنه لم يجده وضرب له قريبه موعدا وذهب إليه فيه ولكنه لم يجده أيضاً . وأصبح واضحاً أن ذلك الشاب اللعين لايريد ملاقاته . ولما لجأ الفتى ومعه قريبه إلى الشاب الآخر «المثقف» أبدى أنه لايعرف عن صاحبه الآخر شيئاً وأنه لايربطه به غير الوجود فى مكان واحد يتقاسمان دفع أجرته وانهما جاءا من قرية واحدة من قرى الصعيد.

ولم يشأ قريبه أن يعود إلى القرية قبل أن يلقى ذلك «النصاب» وترصده يوماً كاملاً إلى أن عثر عليه. وكانت دهشة قريبه بالغة عندما أنكر صاحبه كل صلة له بصفقة الشاى المغشوش . وهم ذلك القروى أن يضربه بعصاه على أم رأسه ولكن الشاب تفادى الضربة بمهارة ، بل وطال قريبه بضربة موجعة ثم لاذ بالفرار.

وأحس الفتى احساساً شديداً بالذنب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً .

***

كان الفتى يخشى أن تمتد يد أبيه أو يد أخيه إلى تلك الصور المثيرة التى كان يحتفظ بها لبعض الممثلات والتى كان يشترى بعضها

من كشك قريب من البيت وكان يرى بعضها الآخر فى بعض المجلات.
ولايزال الفتى يذكر صورة لممثلة اسمها «ديانا دربن». كانت تنطق بخفة الدم والحيوية والجمال جميعا.

ويبدو أن فتانا كان فى وضع أفضل من غيره ممن هم فى مثل سنه فقد كان يحب القراءة وكان حريصا على تحصيل دروسه والتفوق فيها بل إنه إلى جوار ذلك اشترك فى فريق كرة السلة فى المدرسة ، ولكنه لايذكر أنه برز فى ذلك الفريق أبدا ، وبعد مباراة من تلك المباريات التى كانت تجرى بين مدرسته وبين بعض المدارس الأخرى أصابه برد شديد تحول بعد أيام إلى التهاب فى الرئة ، وانزعج والده انزعاجا شديدا وذهب به إلى الأطباء الذين قرروا أن الفتى أصيبَ بالتهاب «بلورى» فى صدره وأن رئته اليمنى بها «ماء» وأن هذا الماء يجب أن يبذل ونصح طبيب المدرسة أن يدخل الفتى مستشفى قصر العينى الجديد ، وقد كان بالفعل جديدا انذاك.

وأدخل الفتى إلى المستشفى ، وصاحبه إلى هناك أبوه وأمه وأخوه ، وجلسوا معه بعض الوقت ثم تركوه فى رعاية الأطباء والممرضين والممرضات .

وكان من نصيب الفتى أن يقيم فى حجرة فيها سريران فقط لا أن يقيم فى عنبر من عنابر المستشفى الذى يمتلىء بالمرضى من الجانبين.
وكان فتانا آنذاك فى السنة الرابعة الابتدائية.

ومازال الفتى يذكر والده ذلك الحنون وهو يأتى لزيارته كل يوم وفى يده شيء من طعام أو شيء من فاكهة ولا يترك المستشفى إلا وقد سأل كل من استطاع أن يصل إليه عن حالة ابنه ومدى تحسنها ومتى يخرج من المستشفى.

وُبذل الماء من صدر الفتى مرة ومرة ومرة. وأخذت صحته تتحسن فى بطء ووالده يستعجل يوم خروجه من المستشفى خاصة وأن امتحان الشهادة الابتدائية كان على الأبواب . ويبدو أن الأطباء كانوا يطمئنون ذلك الرجل الطيب عندما كان يلح عليهم فى السؤال ولكنهم فيما يبدو كانوا يدركون أن خروج الفتى من المستشفى مازال أمامه وقت قد يطول.

ومازال الفتى يذكر بوضوح الممرضتين اللتين كانتا تتناوبان الإشراف على العنبر الذى يعالج فى إحدى حجراته .

كانت واحدة منهما بيضاء قصيرة ممتلئة اسمها «أميرة»، وكانت الأخرى سمراء فارعة اسمها «جوزفين» . ولم تكن جوزفين هذه مصرية ولم تكن تتكلم من اللغة العربية إلا بضع كلمات . وكان أنفها أفطس ووجهها مما لا يمكن وصف تقاطيعه بالجمال ومع ذلك فقد كانت صاحبة روح جميلة بحق وكان المرضى يحبونها وكان فتانا يرتاح إليها كلما رآها ويتبادل معها بعض الحديث باللغة الانجليزية.

وكان الفتى ينتظر ساعة مرورها بشوق وترقب . ويبدو أن «جوزفين» أدركت أن الفتى يوشك أن يتعلق بها ويبدو أنها لم تكره ذلك أو يبدو انها اعتادت مثل ذلك من مرضاها الذين كانت تهتم بهم اهتماما حقيقيا

وكانوا لايجدون مايبادلونها به إلا تلك المشاعر التى يختلط فيها الحب بالتقدير برجاء الشفاء.

وعندما بدأ الفتى يقترب من الشفاء ويسمح له أن يتحرك قليلا فى المستشفى لاحظ أن «العنبر» الذى كان فيه توجد به حجرة ليس فيها إلا سرير واحد.

وكان معنى قبول أحد المرضى فى تلك الحجرة أنه صاحب حظوة ومكان كبير. وحرص الفتى أن يعرف من يحتل تلك الحجرة وحده وماذا يعانيه من مرض ، وعرف الفتى أن رجلا أجنبيا - انجليزيا على الأرجح - طاعنا فى السن هو الذى خصصت له تلك الحجرة. ويبدو أن الفتى لم يرض عن تلك المحاباة لهذا الانجليزى العجوز وكانت هناك امام حجرة ذلك المريض سبورة على حامل يبدو وأنها كانت تستعمل للأغراض التعليمية وأخذ الفتى قطعة من الطباشر ثم كتب على السبورة بضع عبارات باللغة الانجليزية تنتقد تخصيص تلك الحجرة لهذا الرجل الفانى «الذى لم يعد يصلح لشىء Good for nothing » مازال الفتى يذكر هذه العبارة تحديدا بين عبارات أخرى كتبها على تلك السبورة ثم تركها بغير توقيع وذهب إلى حيث يوجد سريره.

وقرأت جوزفين ماكتبه صاحبنا وقرأه بعض الأطباء ولم يجد الفتى استنكارا شديدا لما فعل بل إنه سمع من أحد الأطباء أنه لم يصدق أن طالبا فى الابتدائية يكتب مثل هذه العبارات باللغة الانجليزية.

وأدرك الفتى من يومها أن الاحتجاج بالكلمات أمر قليل الجدوى.

★★★

ويبدو أن والده كان يلح فى خروجه من المستشفى ويتعجل ذلك اليوم وقد وافق الأطباء أخيراً على خروجه على أن يظل تحت رقابة طبية فى المنزل وأن يأخذ «حقنا» معينة كان يأخذها فى المستشفى وأن يلزم السرير لايبرحه إلا قليلا.

وكانت الصاعقة أن الأطباء قرروا أنه لن يدخل امتحان الشهادة الابتدائية فى الدور الأول بحال.

ودخل الفتى امتحان الدور الثانى ولما كان غيابه عن الدور الأول بعذر مقبول فقد أعطى درجاته كاملة وكان ترتيبه «الأول» فى منطقة القاهرة.

ودخل مدرسة شبرا الثانوية حاصلا على مجانية التفوق، وبدأت مرحلة جديدة من حياته.

مرحلة خصبة وقلقة

كانت مدرسة شبرا الثانوية تتمتع بين مدارس القاهرة بشهرة خاصة ، ولم تكن شهرة طيبة على أى حال . اشتهرت تلك المدرسة إبان الحرب العالمية الثانية بأنها تضم عددا من الطلاب الذين تكررت مرات رسوبهم ، والذين اشتهروا بالعنف عند قيام المظاهرات . والذين فضلا عن ذلك كله يسيئون إلى أساتذتهم على عكس ما كان شائعا فى تلك الأيام من احترام الأساتذة احتراما مبالغا فيه أحيانا إن جاز أن يصل احترام الأستاذ إلى حد المبالغة فى أى وقت من الأوقات .

كذلك فقد كانت شبرا الثانوية تضم قسما داخليا يأوى إليه بعض الطلاب ويتخذون منه مسكنا . وكان أغلب طلاب هذا القسم من الطلبة السودانيين بل يبدو أن القسم الداخلي فى تلك المدرسة كان واحدا من الأقسام الداخلية المخصصة للطلبة السوادنيين الذين يتلقون العلم فى القاهرة .

ويبدو أن سمعة المدرسة وعنف الطلاب وحدة ما كانوا يقومون به من اضرابات لسبب ولغير سبب جعلت سلطات الدولة تفكر جديا فى أن تفرض على تلك المدرسة المشاغبة نوعا من الحزم الحازم والضبط الشديد . وكانت وسيلة الدولة إلى ذلك هى أن يقذفوا تلك المدرسة بواحد من أشد نظار المدارس بأسا وأكثرهم حزما وقسوة .

وعندما قدر لفتانا أن يبدأ دراسته الثانوية فى تلك المدرسة كان ذلك الناظر الحازم قد أخمد جذوتها وفل حدتها وجعلها من أكثر مدارس القاهرة انتظاما وأدبا» وكانت الكثرة من أولياء الأمور يفضلونها على «التوفيقية» رغم سمعتها التاريخية . أما مدرسة «الأمير فاروق الثانوية» فكان ينظر إليها من الجميع على أنها من مدارس الدرجة الثانية .

وهكذا دخل صاحبنا المدرسة الثانوية وبدأت مرحلة جديدة من حياته . مرحلة خصبة وقلقة فى آن معا . بدأ يحس أنه لم يعد ذلك التلميذ الصغير ، وإنما هو الآن شاب أو ما يشبه أن يكون شابا . وبدأ يتفتح للحياة ويتطلع إليها ويريد أن يعرف أكثر وأن يعيش أكثر . وبدأت أجواء الاهتمامات السياسية تقترب منه ويقترب منها . بدأت حياته تتشكل من جديد على نحو مختلف عما كانت عليه . ساعد فى ذلك نضجه من ناحية العمر ودخوله المدرسة الثانوية وانتقاله إلى القاهرة ، تلك المدينة الكبيرة الساحرة الصاخبة فى آن واحد .

وتطلع أول ما تطلع إلى أن يلبس «بنطلون طويل» بدل ذلك البنطلون القصير الذى كان يلبسه فى المدرسة الابتدائية . وأنه ليذكر ذلك اليوم الذى ذهب فيه مع والده إلى محلات «عمر أفندى» فى قلب القاهرة ليشترى تلك «البدلة» ذات اللون الكحلى التى كان كل من يراها من أقارب الفتى يثنى عليها وعليه فيها ثناء مستطابا . وكان الفتى يسر لذلك سرورا شديدا .

ومازال حتى يومنا هذا يحب عندما يلبس شيئا جديدا أن يسمع رضا عليه أو ثناء ممن حوله . ما أعجب تلك النفس البشرية إنها لتبلغ في بعض جوانبها قمة النضج ولتظل في جوانب أخرى تلازم عمر الطفولة لا تكاد تتجاوزه .

وكان يقطع الطريق من حيث تقيم العائلة إلى المدرسة سيرا على الأقدام . كان يسير أغلب الطريق في شارع شبرا قادما من ناحية الحدائق مارا بالدوران إلى أن يصل إلى شارع طوسون فيدخل فيه إلى أن يصل إلى المدرسة ، وكانت المدرسة تحتل قصرا منيفا من قصور الأمير عمر طوسون . وكانت تحيط به حدائق واسعة بها أشجار عتيقة ضخمة . وكانت تلك الأشجار الباسقة تحيط بالمدرسة من جوانب ثلاثة أما الجانب الرابع فكان شارعا عموميا . وكان القصر القديم هو المبنى الرئيسي للمدرسة . وحول القصر كانت توجد الملاعب المختلفة . ملعب كرة القدم وملعب كرة السلة وملاعب التنس . وفي أقصى أطراف الأفنية الواسعة المتعددة بنيت بعض الفصول . وكان الفصل الذي ألحق به صاحبنا واحدا من تلك الفصول التي ابتنيت على حدود الفناء الذي يصل إليه الداخل أول ما يدخل من باب القصر الضخم الذي يشبه أبواب قصور القرون الوسطى التي نراها أحيانا في الأفلام التاريخية .

كان ذلك الباب السامق الارتفاع لا تصل إليه إلا بعد أن تمر في شارع تحيط به الأشجار الضخمة الكثيفة من كل جانب وتلقى

فى النفس قبل الوصول إليه نوعا من الرهبة والاكبار والتهيؤ فى آن معا .

ويبدو أن الأمير عمر طوسون كان واحدا من القلائل المثقفين فى أسرة محمد على ... وكان أيضا فيما يبدو واحدا من القليلين جدا فى مثل هذه البيوتات الذين يدركون حركة التاريخ واتجاهه . وقد تبرع عمر طوسون بهذا القصر لوزارة المعارف لكى تقيم عليه تلك المدرسة الثانوية ومع ذلك فإن المدرسة لم يطلق عليها اسمه وإنما أطلق عليها اسم الحى الذى أقيمت فيه. وقد يكون مرجع ذلك أن الأمير عمر طوسون لم يكن على علاقة طيبة بالملك فؤاد الذى تم فى عهده إهداء القصر .

وكان المبنى الرئيسى للقصر ضخما فخما مازال يحتفظ بكثير من رونقه وعظمته وفخامته . كنت تصعد عدة درجات قبل أن تدخل إلى تلك الردهة البالغة الاتساع الشاهقة الارتفاع المزينة الجدران. ويذكر الفتى أنه بعد أن تدخل إلى تلك الردهة الضخمة فانك كنت تجد على يسارك مباشرة مرآة ضخمة جميلة إلى جوارها يقع باب حجرة الناظر ويجلس أمام تلك الحجرة عم «نور» وهو «فراش» سودانى طويل القامة ممشوق القوام جميل التقاطيع وقد كان عم «نور» فى نظر تلاميذ المدرسة أقرب الناس إلى ناظرها الرهيب . ولكن عم «نور» على عكس الناظر كان قريبا أيضا من نفوس الطلاب وكان لا يرى إلا مبتسما .

وقد قدر لفتانا أن يدخل إلى حجرة الناظر بعد أقل من شهر من التحاقه بالمدرسة ، وكان الدخول إلى تلك الحجرة أمرا يحسب له الطلاب كل حساب . كان الرجل - ناظر المدرسة - قصيرا أميل إلى النحافة لا ترى وجهه إلا صارما أقرب إلى أن يكون عابسا . وكان يلبس نظارة سميكة الزجاج تبدو من ورائها عينان ضيقتان حادتان . وكان ذلك الرجل رغم قصره يبدو قوى الشخصية ثابت الجنان لا يهتز أمام شئ قط مما يتصور الطلاب أنه يهز الجبال . هكذا كانت صورته فى نظر طلابه وهكذا ساعدته تلك الصورة فى السيطرة الكاملة على المدرسة وبث الرعب فى نفوس أولئك النفر من التلاميذ الذين كانوا مصدرا لكل الشغب وكل العبث الذى اشتهرت به مدرسة شبرا الثانوية فى الماضى وقبل أن يأتيها ذلك الناظر .

أما كيف قدر لصاحبنا أن يرى ذلك الناظر ويتحدث إليه فقد كان لذلك قصة . كان الفتى فى السنة الأولى الثانوية الفصل الثانى . ويبدو أن أوائل الطلبة المقبولين فى السنة الأولى وزعوا حسب أعمارهم - إلى فصلين وكان هو فى سنة «أولى ثانى» وكان أستاذ الانجليزى الذى يعلم طلاب ذلك الفصل رجلا رياضيا مختالا فخورا تكاد الأرض لا تسعه وهو يسير فوقها . وكانت ربطة عنقه متميزة بحجمها الضخم وكان عادة يلبس الجاكتة والبنطلون من لونين مختلفين . وكان ذلك الاستاذ - على الرغم مما أشيع عن علمه ودراسته فى انجلترا - غير قادر على أن يصل بعلمه إلى طلابه أو هكذا كان إحساسنا . لم نكن نفهم منه على

النحو الذى نتوقع أو نريد . ولما كان طلاب الفصل جميعا من أوائل الشهادة الابتدائية ومن أصحاب المجاميع العالية فلم يكن من السهل أن ينسب إليهم الكسل أو الغباء ولم يكن من السهل على هؤلاء الطلاب أنفسهم أن يقتنعوا بشئ من ذلك ولم يكن أمامهم من حل – فى تقديرهم – غير أن يطلبوا تغيير ذلك المدرس ، واتفقوا على أن يختاروا واحدا أو اثنين منهم لمقابلة «المشرف» وعرض الأمر عليه . وكان صاحبنا هو الذى وقع عليه اختيار زملائه لحمل تلك الرسالة ، وكان هو واحدا من المتحمسين لضرورة تغيير ذلك الاستاذ . وذهب إلى المشرف وطلب مقابلته وشرح له ما كلفه به زملاؤه ، واستمع إليه المشرف غير ضجر ولكن فى غير حماس ، ولم يبد عليه أنه اقتنع بهذا الكلام ولكنه وعد أنه سينقله إلى ناظر المدرسة .

ومضى على مقابلته للمشرف يوم أو يومان عندما جاءه استدعاء ليقابل «حضرة الناظر» بين حصتين من حصص النهار .

وذهب وجلا لا يعرف ماذا ينتظره ، وكان وجيب قلبه يرتفع كلما اقترب من حجرة ذلك الرجل الذى ذهب خيال التلاميذ فى رسم صورته مذهبا فاق كل تصور .

ووقف على باب الحجرة فترة ، ودخل «عم نور» ليخبر الناظر أن التلميذ المستدعى قد حضر ، وخرج عم نور ولكن صاحبنا لم يؤذن له بالدخول . وبعد فترة كانت من أطول الفترات عليه وأقساها أذن له بالدخول ، وكانت الحجرة واسعة جدا . الحجرة الرئيسية فى قصر

كبير. واضطربت خطوات صاحبنا وهو يسير من الباب متجها إلى نهاية الحجـرة حـيث مكتب الناظر . وكـان هناك بعض الأسـاتذة وبعض الزائرين ممن لا يعرفهم . وكان الناظر مشغولا مع بعض الإداريين فى المدرسة . وكانت تعليماته حادة صارمة لا تحتمل الأخذ والرد . وكان الموظفـون لا يكادون ينبسـون ببنت شـفـة . كـان المدرسـون الأوائل هم وحدهم الذين يجلسـون عندمـا يدخلون تلك الحـجـرة وكذلك الزائرون بطبيعة الحال. أما غير هؤلاء فما كان يجوز لهم غير الوقوف .

واقترب فتانا من منتصف الحجرة ثم وقـف حائرا لا يعـرف ماذا يفعل . ومضت برهـة مـن الزمن كـأنها دهـر ورفع الناظر رأسـه عن الأوراق التى أمامه ونظـر إلى فتانا نـظرة رهـيبة ثم استـدعاه ليقترب بصـوت حاد غاضب . واقترب الفتى خائفا يترقب .

وسأله الناظر عما يريد وهم بالحديث عن أن طلبة الفصل لا يفهمون كـمـا ينبـغى لهم أن يفهموا عن أستـاذ اللغة الإنجليزية . ولم يكد يكمل عبارته حتى انهالت عليه ألفاظ التقريع والتوبيخ والاتهام بالجهل وقلة التربية وعدم الإدراك السليم . وجزم الناظر بأن هذا الأستاذ وأن كل أساتذة المدرسة هم من خيرة الأساتذة فى المدارس الثانوية جميعا وأنه انتقاهم بنفسه وأنه لا يقبل من مجموعة من التلاميذ الجهلة الأغبياء أن يقيموا من أنفسهم حكما على الأساتذة . وحذر صاحبنا من العودة إلى مثل ذلك فى المستقبل وإلا حل عليه أشد العقاب . وبعد ذلك صرفه صرفا غير كريم ليعود إلى فصله كاسف البال مكسور الخاطر فقد كان يظن فى لحظة من اللحظات أنه قادر على اقناع ذلك الناظر الرهيب .

وعلى أى حال فان التلاميذ لم يصدقوا أن الناظر لم يودعه «بقلم» من تلك «الأقلام» المدوية التى كان يصفع بها وجوه الطلاب خاصة من كان منهم يتصور أن له وضعا أو أنه يتمتع بين زملائه بقدر من النفوذ . ولكن الذى حدث أن الناظر لم يضربه فعلا وإن كان قد نهره لينصرف ونهاه عن العودة لمثل هذا التصرف وأنذره إنذارا شديدا .

ويبدو أن أستاذ اللغة الانجليزية قد علم بما حدث من الطلاب . ويبدو أنه قد علم أيضا أن صاحبنا هو الذى ذهب نيابة عن زملائه إلى المشرف ثم إلى الناظر . ويبدو أنه عرف ولكنه لم يقل شيئا صريحا ينبئ عن معرفته . ولكن سلوكه كله ونظراته كلها نحو فتانا كانت تقطع بأنه بكل ما قد حدث عليم . وكان الرجل كريما فلم يدفعه ذلك إلى اضطهاد الفتى أو النيل منه بل عكس ذلك هو ما حدث فقد أحس الفتى أن الأستاذ يعطيه اهتماما قد يكون أكثر من غيره – أو هكذا كان إحساسه – وكان يدعوه إلى الإجابة وإلى المناقشة وإلى القراءة وكان الفتى سعيدا بذلك كل السعادة مرحبا به كل الترحيب . وبدأ وجله وتهيبه وبعده النفسى عن ذلك الأستاذ يذوب قليلا قليلا حتى لم يعد منه شئ فى نفسه .

وكم كانت سعادة فتانا غامرة عندما دعاه أستاذه ذاك لحضور محاضرة كان سيلقيها فى جمعية الشبان المسيحية . وكان هذا أول عهده بدخول تلك الجمعية ولكنه لم يكن آخر العهد بها .

وكان الفتى معجبا الإعجاب كله بأستاذ اللغة العربية «الأستاذ على فريج مهنا رحمه الله» الذى كان إلى جوار كونه أستاذا قديرا شاعرا وحافظا ومتعصبا أشد التعصب لشعر أحمد شوقى . وكان فتانا - على صغر سنه - ورغم أنه حفظ كثيرا من شعر شوقى وحفظ أغلب «مجنون ليلى» وأغلب «كليو باترا» - كان فتانا يريد أن يبدو وكأنه من أنصار حافظ إبراهيم وليس من شيعة شوقى . كان إحساسه منذ البداية قويا فى التعاطف مع المظلومين أو من يحس أنهم من المظلومين .

وكان لأستاذ اللغة العربية شقيق فى كلية اللغة العربية بالأزهر، وكان شقيقه ذلك زميلا وصديقا «لأمين» وكان أمين سعيدا بما يسمع عن ذلك الفتى الذى يحس أنه شارك فى تنمية ملكاته الأدبية وحبه للقراءة والاطلاع .

وفى يوم من الأيام طلب الأستاذ من تلاميذه كتابة موضوع للإنشاء فى قضية معينة لا يذكرها الفتى، فقد مضى على ذلك أكثر من خمسين عاما - الآن - وأذكر أنه كان موضوعا سترصد درجته فى واحدة من تلك الاختبارات التى كانت تجرى للطلاب على فترات أثناء العام . ولم يكن مفروضا أن يسلم الطلاب موضوعات الإنشاء فى اليوم نفسه ولكن ضرب لهم أستاذهم موعدا . وفى الموعد المحدد قدم صاحبنا إلى أستاذه الموضوع . ومرت أيام . وجاء الأستاذ ومعه الأوراق . ووضعها أمامه ثم انتظر قليلا - كعادته - وبدأ بعد ذلك الحديث فإذا به يثنى ثناء غير عادى على ما كتبه الفتى، وإذا به يسلمه ورقته

ويطلب منه أن يقرأ ما كتبه على زملائه . وكان الأستاذ قد أعطاه تسع عشرة درجة من عشرين .

وبعد أن انتهى الفتى من قراءة موضوعه أعاد الأستاذ إبداء استحسانه، ثم ختم تعليقه بكلمة لم يدرك الفتى معناها أول الأمر، ولكنه أدرك ذلك المعنى بآخره . قال له أستاذه ليتك لا تستعن بأحد وإنما تعتمد على نفسك اعتمادا كاملا . ولعل إدراكه وثقته أنه لم يستعن بأحد وأن الموضوع كله من إنشائه جعله لا يلتفت إلى ما يقصده الأستاذ .

وكان فتانا يذهب فى كل يوم جمعة إلى دار الكتب فى باب الخلق يعيد بعض الكتب ويستعير غيرها، وكان ابن عمه أمين يسكن قريبا من دار الكتب في شارع محمد على فى عقار مملوك للأزهر، كان طلاب الأزهر يطلقون عليه اسم «السراى» - وما كان له من اسمه أدنى نصيب - وكان الفتى بعد أن يفرغ من دار الكتب يذهب عادة لزيارة أمين .

وفى يوم من الأيام لقيه ابن عمه ذلك - الكبير الذى كان يوشك أن ينتهى من دراسته الجامعية - بحفاوة بالغة وترحاب غير عادى، ثم أعطاه كتابا اسمه «من عيون القصص الغربى» من منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكتب له على الكتاب بعض عبارات الإهداء والإطراء والتشجيع . وسر الفتى بالكتاب أيما سرور ، ولكن وجهه كان يعكس تساؤلا من غير ريب عن مناسبة ذلك الاحتفاء وذلك الإهداء . وأدرك أمين ما على وجه الفتى من تساؤل . وضحك - وقلما كان

يضحك رحمه الله - وقال للفتى لماذا لم تقل للأستاذ إننى أنا الذى كتبت لك موضوع الإنشاء «تخيل أن الرجل لم يصدق أنك وأنت فى السنة الأولى الثانوية تستطيع أن تكتب بهذا الأسلوب، وذهب ظنه أننى ساعدتك فى الكتابة، وأسر بذلك إلى أخيه لكى يطلب منى أن لا أفعل مثل ذلك مرة ثانية، وكانت دهشة الأستاذ ودهشة أخيه بالغة عندما علما أننى لم أسمع من قبل عن هذا الموضوع كله، وأن الأمر كله يرجع إليك وحدك .

وكان «أمين» سعيدا بحق .

أما الفتى فلا تسأل عن شعوره .

لقد كان ذلك اليوم عيدا بالنسبة له .

وما أكثر ما اقتنى من كتب وما أكثر ما فقد منها . ومع ذلك كله ورغم مضى أكثر من خمسين عاما حتى الآن على تلك الواقعة، فمازال يحتفظ بذلك الكتاب الذى أهداه إليه «أمين» بهذه المناسبة التى مازال الفتى يذكرها بغير قليل من الرضا والسرور .

بين دار الكتب والسراى والأزهر

كان الفتى فى يوم الجمعة من كل أسبوع يركب الترام من شبرا إلى العتبة الخضراء، ثم يبدأ السير فى شارع محمد على متجها نحو «باب الخلق» حيث توجد دار الكتب . وكان شارع محمد على فى تلك الأيام مليئا بالمكتبات ، بعضها يشغل أجزاء من مبانى الشارع وبعضها يحتل جوانب أعمدة «البواكى» ، وكان فتانا خبيرا بذلك الشارع ومكتباته، إلا أنه كان يؤثر بائع كتب معينا نسى الآن اسمه وإن كان ما يزال يذكر صورته . كان شيخا يلبس جلبابا فوقه «جاكتة» لونها كالح ، ظهره محنى قليلا . يعرف أسماء الأدباء والكتاب وأسماء المؤلفات حتى الكتب المترجمة يعرف أسماءها أيضا وأسماء مؤلفيها ، إلا أنه كان ينطق ذلك كله بلهجة لا تخلو من سذاجة وغرابة . وكان فتانا ينال من هذا الرجل خصما يجاوز عشرة فى المائة فى أغلب الأحيان ، إذ كان يشترى منه كل شهر كتبا بما يقرب من جنيه كامل . وكان هذا يعنى أن الفتى يشترى خمسة أو ستة كتب من مستوى كتب طه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم بهذا الجنيه . وأغلب الظن أن مكتبة صاحبنا على كثرة ما أصابها من انتقال مازالت تضم بعض الكتب التى يرجع تاريخها إلى تلك الفترة منذ أكثر من خمسين عاما .

وبعد أن كان يراجع الكتب ويعرف أسماء المؤلفات الحديثة، كان يكمل طريقه إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق . وهناك كان يودع ما

معه من أوراق وكتب فى مكان قرب الباب ، ثم يدخل ومعه ما يريد أن يعيده من كتب مستعارة انتهى من قراءتها ، وفى ذهنه ما يريد استعارته من كتب جديدة .

ولم يكن الفتى يستعير بطبيعة الحال إلا ما لا يقدر على شرائه، إما لأنه غالى الثمن أو لأنه من كتب التراث التى لا يسهل العثور عليها .

ويذكر الفتى أنه استعار ديوان المتنبى شرح «العكبرى» وأنه قرأ أجزاءه الأربعة وأنه حفظ بعض قصائده ، وأنه كان يقرأ فى الوقت نفسه «مع المتنبى» للدكتور طه حسين ، وكان يجد فى تلك القراءة متعة لا تعدلها متعة أخرى .

لا يذكر الفتى أن يوما من أيام الجمعة طوال السنة الدراسية لم يكن يشهد رحلته هذه من حيث يقيم فى شبرا إلى ميدان العتبة، راكبا الدرجة الثانية فى الترام ثم سائرا على قدميه فى شارع محمد على إلى حيث يصل إلى ذلك المبنى العتيق الجليل ، مبنى دار الكتب بباب الخلق. وكثيرا ما كان يتوقف قبل أن يصل إلى قاعات الفهارس أو قاعات المطالعة فى تلك القاعات الواسعة التى كانت تعرض فيها بعض المصاحف النادرة أو بعض المخطوطات القديمة، ثم يكمل رحلته إلى حيث يعيد بعض ما انتهى من قراءته ، ولكى يستعير ما قد جاء قاصدا استعارته من كتب . وقد أصبحت دار الكتب بالنسبة له مكانا مألوفا يأنس إليه ولا يجد فيه وحشة ، ويعرف غير قليل من موظفيه وسعاته ، ويعرفه غير قليل من هؤلاء . وأظن أن الفتى كان من أصغر المترددين

على الدار سنا وأكثرهم انتظاما فى إعادة ما استعار والمحافظة عليه . بدأت علاقته بالدار وهو لم يكمل الخامسة عشرة واستمرت بعد ذلك إلى ما شاء الله .

وكانت «السراى» قريبة من دار الكتب وميدان باب الخلق على يمين المتجه إلى القلعة سائرا فى شارع محمد على، بعد أن ينتهى من باب الخلق . وكانت تلك «السراى» تقع من شارع محمد على فى الموقع الذى تتفرع عنده حارة يقال لها «الحبانية» .

ولا يدرى الفتى إذا كانت تلك الحارة «الحبانية» مازالت بهذا الاسم، أم أن تلك العادة الخبيثة التى لا تنبئ عن فهم ولا علم ولا وعى لا بحقائق التاريخ ولا بحقائق الجغرافيا ولا بمبادئ علم الاجتماع ، عادة تغيير أسماء الشوارع قد نالت من تلك الحارة واسمها ما نالته من غيرها : لقد غيرنا ميدان العتبة الخضراء بعديد من الأسماء ، ولكن الناس حتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا يعرفون لذلك الميدان اسما آخر . وشارع محمد على أطلقنا عليه على ما أظن اسم شارع القلعة، وكأن محمد على بانى مصر الحديثة ومؤسس الدولة فيها وأحد صناع التاريخ الحديث لا يستحق أن يطلق اسمه على ذلك الشارع الذى ينتهى بالقلعة، التى أقام فيها قصرا حكمت منه مصر سنين عددا . ومع ذلك فإن المصريين لا يعرفون هذا الشارع إلا باسم «محمد على» وهم فى ذلك على حق .

كان فتانا عندما ينتهي من زيارته الأسبوعية لدار الكتب يتجه إلى «السراى» حيث كان يسكن عدد من طلاب الأزهر لقاء قروش قليلة يدفعونها . كانت تلك «السراى» بديلا عما يعرف فى أيامنا هذه بالمساكن الجامعية . والحقيقة أن ذلك المبنى لم يكن له من مقومات السرايات شئ قط . كان عبارة عن منزل قديم من منازل شارع محمد على المملوكة للأوقاف والتى لا تحظى بأقل قدر من العناية أو الصيانة . وكان الطلاب يعيشون فيما يشبه «العنابر» التى تملتئ بالأسرة . وكان يعيش فى تلك «السراى» اثنان من أقارب الفتى : أما أولهما فهو «أمين» الذى التقينا به كثيرا من قبل، وأما ثانيهما فهو «محمود» . وكان محمود من قرية مجاورة ، أما أمه فكانت «عمة» الفتى أو فى حكم ذلك . وكان محمود مثالا فريدا من شباب تلك الفترة فى حياة المجتمع المصرى .

كان كسولا كأشد ما يكون الكسل ، طيبا كأعمق ما تكون الطيبة ، سهلا سمحا لا يحمل فى قلبه إلا المشاعر الطيبة للناس أجمعين . وكان أزهريا فى كلية الشريعة . ولم يكن بينه وبين الأزهر ولا بينه وبين الشريعة أية صلة نفسية . وما كان يخفى ذلك أو ينكره . وكان يبذل أقل جهد ممكن من أجل الدراسة وتحصيل المعرفة . ورغم كسله الشديد إلا أنه كان يحب المشى حبا جما حتى أننى لا أكاد أتخيل صورته إلا ماشيا . ورغم أنه من أعماق الريف ومن قرية موغلة فى التخلف – بالنسبة لقريتنا على الأقل – إلا أنه كان لا يحب أن يغادر القاهرة إلى

القرية . ومما يروى عنه أنه كان يتعمد أن يبقى بعض مواد الامتحان للدور الثانى حتى يجد فى ذلك حجة يعود بها إلى القاهرة بأسرع ما يستطيع . كان أبوه ، رحمه الله ، يعتقد أن ابنه لا يتمتع بأى قدر من الذكاء . وكثير من الآباء لا يتصورون أبناءهم إلا أطفالا صغارا غير ناضجين مهما بلغوا من العمر . وكان رأى والده فى ذكائه لا يرضيه بطبيعة الحال ، وأراد محمود أن يظهر لوالده كيف أن أصدقاءه وزملاءه يعتبرونه «حجة» بينهم ويلجئون إليه كلما حزبهم أمر من الأمور . فاتفق مع واحد من هؤلاء الأصدقاء عرفت عنه خفة الدم وطلاقة اللسان وسرعة البديهة على أن يكون رسوله عند والده، ليظهره على ما يتمتع به محمود من «عبقرية» وحظوة لدى إخوانه ولداته .

وذهب صاحبنا ذلك يزور محمود فى القرية وجلس إلى والده وإخوته وأخذ يتحدث ويفيض فى الحديث ، وكيف أن الأساتذة عندما يطرحون مشكلة من المشاكل الدراسية العويصة يعجز الطلاب جميعا عن إيجاد حلها فيتصدى لها «محمود» ، فإذا به يجد الحل الصائب السديد ، وكيف أن الزملاء إذا صادفهم فى حياتهم العامة أو الخاصة ما لا يقدرون على مواجهته أو التصدى له لجأوا إلى محمود ليجدوا عنده النصيحة والرأى السديد . واستمر ذلك الصديق على هذا النحو من المديح والإطراء وإظهار براعة «محمود» وعبقريته ... أكثر من ساعة ، ووالد محمود يسمع ذلك وهو صامت لا ينبس ببنت شفة حتى إذا انتهى صاحبنا من حديثه وأطرق ليرى أثر كل هذا الحديث الذى قاله على والد صديقه، إذ بذلك الوالد العجوز صغير الحجم يقول كلمة واحدة لا يزيد

عليها «دا غبي» !! ووقعت تلك الكلمة على المجلس كما لو كانت قد ألقت على الجالسين مزرابا من الماء شديد البرودة، ولاذ الحاضرون جميعا بصمت عميق .

كان فتانا إذا انتهى من زيارته لدار الكتب ذهب إلى «السراي» ليلقى هذين القريبين اللذين يكبرانه سنا بفارق بعيد، واللذين لا يتعاملان معه ،مع ذلك على أنه بالنسبة لهما فتى صغيرا، كان يحمل إليهما أحيانا بعض الرسائل من البلدة أو يستعير كتابا من «أمين» أو يناقش معه كتابا سبق أن قرأه . أما «محمود» فكان يلقاه هاشا باشا مرحبا ترحيبا شديدا، على أن ذلك كله لم يكن يخرج محمود من كسله أو يدفعه إلى الحركة . ما أكثر ما كان الفتى يذهب قرب الظهر ليجد أن محمود مازال في سريره لم يغادره ولكن يسمعه ويقول له إن الله ساقه إليه لكي يشترى له إفطارا يتناوله في وقت يكون فيه الناس يستعدون لوجبة الغداء . ولكن محمود بكل الكسل المحيط به لا يريد أن يبرح سريره طوال صبيحة يوم الجمعة . ومع أنه أزهري ومع أنه طالب في كلية الشريعة إلا أنه لم يكن يكترث كثيرا لمواعيد الصلاة حتى ولو فاتت صلاة الجمعة .

●●●

كان أخوه «سعيد» في كلية الحقوق ، وكانت أسبابه قد اتصلت بالإخوان المسلمين ، وكان من الشباب القريب من حسن البنا ، وكان أكثر حرصا على دينه، واهتمامه به أكثر من كثيرين من الأزهريين وغير الأزهريين . وما أكثر ما كان يثور الجدل بينه وبين أخيه حول بعض

القضايا الدينية، ويبدو أن الفتى منذ شبابه الباكر وهو أكثر ميلا إلى إعمال العقل وإخضاع ما يمكن إخضاعه له . وكان أخوه أكثر ميلا إلى العاطفة والمشاعر والوجدان . وكانت مناقشاتهما حول تلك القضايا توشك أن لا تنتهي ، وكان الوقت المفضل لهما هو أثناء رياضة المشي بعد العشاء في شارع شبرا الذي لم يكن له صلة من حيث الازدحام وكثرة المارة بما هو عليه الآن . كانا يسيران ويذكر الفتي أنهما كانا يسيران لابسين جلبابا وفوق الجلباب «جاكتة» ولم يكن مثل ذلك اللباس أنذاك نشازا أو غير مألوف في الطريق العام. وكان حديثهما يدور إما حول تلك القضايا العقلية وإما حول الأهل وتصرفاتهم . وكان سعيد يأخذ في الأغلب الأعم موقفا نقديا من هذه التصرفات، وكان الفتى بحكم صغره أكثر ميلا إلى الاستماع لما يقوله أخوه، يوافق على بعضه ولا يوافقه على بعضه الآخر، ولكنه مستمع - في الأغلب من الوقت - وعلى أي حال فإن سعيدا لم يكن على استعداد ليعطيه فرصة الكلام في كل حين . وحتى إن أعطاه تلك الفرصة فإنه لم يكن يشجعه كثيرا على أن يختلف معه في الرأي . كان سعيد يحب أن يشجعه وأن يدفعه إلى الأمام ولكن في مواجهة الآخرين، فإذا تعلق الأمر به فإن علاقة الأخ الكبير بالأخ الصغير هي التي يجب أن تسود .

وكانت حركة الإخوان المسلمين تشتد عودا وتمتد في كل اتجاه وتكسب كل يوم أنصارا جددا خاصة بين الشباب المثقف . وكان أخوه قد ارتبط بتلك الحركة وأصبح من الشباب البارز في صفوفها .

ويبدو أن صفاءه ونقاءه وحرصه على درس الثلاثاء من كل أسبوع قربه ذلك كله من الأستاذ حسن البنا . وكان يعود كل ثلاثاء متأخرا جدا إلى البيت ليجد أمه قد تركت له عشاءه على المائدة يتناوله وحيدا. أو قد يجد فتاتا في انتظاره ليسمع منه ما جرى في اجتماع ذلك اليوم من حديث ومن مناقشات .

وسمع صاحبنا أسماء مثل سعيد رمضان ومصطفى موسى وحسان حتحوت، وغير ذلك من أسماء شباب الإخوان المسلمين الذين التقى بهم بعد ذلك في قادم الأيام . وكانت صحابة أخيه ورفقاؤه الذين يترددون عليه في تلك الأيام جلهم من شباب تلك الجمعية المتحمسين لها، المؤمنين بمبادئها المعتقدين أن طريقها هو طريق الخلاص .

وكان الفتى يسمع ذلك كله ويعجب به وينفعل معه ولكنه لم يفكر في الانخراط في الجمعية رغم أنه تردد أحيانا على بعض شعبها، ورغم أنه لم يكن بعيدا نفسيا عما تنادي به . ولكن الفتى كان قد اتخذ طريقا آخر من طرق العمل العام .

عرف في مدرسة شبرا الثانوية «أحمد مجاهد» وأعجب به . سمعه يخطب في مظاهرة من المظاهرات بمناسبة «وعد بلفور» ذلك الوعد الذى أعطاه وزير خارجية بريطانيا للزعيم الصهيوني وايزمان، يقرر له فيه أن بريطانيا ستمكن الصهاينة من أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم ، وبذلك أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق . وخرج تلاميذ المدرسة لكي يلتقوا بتلاميذ المدارس الأخرى ويهتفون جميعا بسقوط

وعد بلفور، وفى ذلك الوقت لم تكن دولة إسرائيل قد قامت وإن كانت الوكالة الصهيونية قد أعدت كل شئ .

أعجب الفتى بأحمد مجاهد أيما إعجاب ، ورأى فيه صورة مصغرة لمصطفى كامل الذى قرأ عنه وأحبه من بعيد ، وأحس بعمق حبه لمصر . وكانت سعادة الفتى بالغة إذ عرف أن صاحبه هذا من شيعة مصطفى كامل ، وممن ينتمون إلى الحزب السياسى الذى أسسه ذلك الزعيم ، والذى كان يعرف باسم «الحزب الوطنى» .

وكان الحزب الوطنى حزبا صغيرا من أحزاب الأقلية فى مصر، وكان قوامه مجموعة من الطلاب والمثقفين المتطهرين الذين لا يرضون عن الاستقلال الكامل لمصر والسودان ووحدتهما بديلا . ورغم أن مصر والسودان كانتا محتلتين بالقوات البريطانية فإن الحزب الوطنى كان يرفض مبدأ المفاوضة مع المحتل وينادى أن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء .

ودعاه أحمد مجاهد مرة ليذهب معه إلى نادى الحزب الوطنى فى المنيل، ومنذ ذلك اليوم أصبح فتانا واحدا من شباب ذلك الحزب .

ولم يكن الحزب الوطنى بعيدا عن الحركة الإسلامية ولا عن الأفكار الإسلامية منذ نشأته وتأسيسه ، ولذلك فإن صاحبنا لم يجد تناقضا بين ما كان يسمعه من أخيه ويميل إليه نفسيا وما تعلمه عن القضية الوطنية من رجال الحزب الوطنى ودفعه إلى أن يكون بين شباب هذا الحزب .

وما أكثر ما كان الفتى يتحمس لتلك المفاوضات التى كانت تجرى أحيانا بين زعماء الإخوان المسلمين ورجال الحزب الوطنى، لتوحيد الحركتين أو التأليف بينهما على نحو أو على آخر . كان الحزب الوطني

مجموعة من القيادات والشباب المثقف تكاد لا تتعدى حدود العاصمة، وكانت حركة الإخوان المسلمين قد انتشرت فى كل نجع وكفر، ويبدو أن كلا من الفريقين كان يجد عند الآخر شيئًا يفتقده ، ومن هنا كان سعى الواحد منهما للآخر ، ذلك السعى الذى لم ينته إلى شئ محدد والذى ضاع كله فيما ضاع بعد ذلك فى تيه الحياة السياسية المصرية، وما أصابها من إعصار .

ورغم أن فتانا قد تفتح للحياة السياسية إلا أن اتجاهاته الأدبية ورغبته فى تثقيف نفسه كانت غلابة على كل شئ، وعرف بين لداته فى المدرسة بحبه للقراءة الأدبية وشغفه بها أكثر مما عرف به باعتباره من هواة السياسة .

وكانت مجلة «الثقافة» هى التى تتربع على عرش المجلات الأدبية فى تلك الفترة من منتصف الأربعينيات، واشترك الفتى فى «الثقافة» وكتب عنوانه على المدرسة . ولم تكن إدارة التوزيع فى المجلة تعرف شيئًا عن ذلك المشترك إلا أنه مشترك فى المجلة وحسب . وكانوا يكتبون اسمه مسبوقًا بوصف الأستاذ إذ يبدو أنه لم يخطر لهم إلا أن يكون ذلك المشترك أستاذًا فى المدرسة ، ولكن ذلك الوصف لم يمر بسهولة ، واستدعى الفتى إلى حجرة الناظر مرة أخرى حيث لقى من التعنيف ما لقيه ، وطلب منه الناظر أن يكتب لإدارة الثقافة ليخبرها أنه مازال «تلميذا» وليطلب منها أن لا تصفه بوصف «الأستاذ» .

وانصاع الفتى وصدع بالأمر بطبيعة الحال .

وكانت مكافأته الكبرى ، هو ما حدث بعد ذلك فى الجمعية الأدبية فى مدرسة شبرا الثانوية .

مرحلة الدراسة الثانوية

كانت المدرسة الثانوية بالنسبة له نقلة ضخمة ، ومع أنه لم يدرك أبدا أنه طفل صغير - حتى وهو فى الواقع كذلك - إلا أن انتقاله إلى مرحلة الدراسة الثانوية كان بالنسبة له انفتاحا على عالم آخر له أبعاد متعددة.

وفى هذه المرحلة أحس بالنضج وأحس أن خيوط حياته الأساسية قد تحددت وأن ملامح شخصيته قد نضجت وأن مداركه قد تفتحت .

ورغم قسوة ناظر المدرسة إلا أنه يحس إحساسا مبهما أن الرجل - رغم قسوته الظاهرة - إلا أنه يقدره ويرى فيه نوعا من النبوغ والتميز المبكر ، ولولا ذلك لكانت قصته مع مدرس اللغة الانجليزية قد عصفت به عصفا ، فقد كان بعض التلاميذ يفصلون أسبوعا أو أسبوعين لأمر أهون من ذلك الذى أتاه بكثير .

وكانت مدرسة شبرا الثانوية ككل المدارس الثانوية فى ذلك الوقت تعج بالعديد من الأنشطة الرياضية والاجتماعية والأدبية ، وكانت المدارس الثانوية تتنافس فيما بينها ، وكانت مدرسة التوفيقية فى حى شبرا تمثل نوعا من العراقة والارستقراطية العلمية بالنسبة للمدرستين الثانويتين الآخريين ، ومع ذلك فإن «شبرا الثانوية» كانت تتمتع بشهرة خاصة فى مجال «الإضرابات السياسية» وفى مجال الحياة الثقافية والأدبية .

وكان صاحبنا من الظاهرين فى المجالين .

وكانت «اللجنة الأدبية» هى مجاله القريب من نفسه ، وكان وهو فى السنة الثالثة أحد أعمدة اللجنة ، وفى تلك السنة جرت الانتخابات بين أعضاء اللجنة لاختيار رئيس لها وأقنعه صديقه عبدالوهاب - يرحمه الله - أن يرشح نفسه للرئاسة ، وكان هناك مرشحون من السنة الرابعة والسنة الخامسة القسم الأدبى ، ولكنه استطاع أن يفوز عليهم جميعا ، وأن يكون أول رئيس للجنة الأدبية من غير القسم الأدبى فى السنة الخامسة التى كان يطلق عليها آنذاك «التوجيهية» .

وأحس الفتى أن قراءاته المبكرة لم تذهب سدى ، وأن ذلك المجهود وذلك التكوين لم يضيعا عبثا وإنما أدرك أن لكل مجتهد نصيب بحق ، وأنه لا شئ يأتى من فراغ ، وأن الرغبة والجهد والمثابرة كفيلة بأن تحقق الآمال الكبار .

وفرح أيما فرح ورضى عنه نفسه أيما رضا ، وأحس بالجميل نحو صديقه «عبدالوهاب» الذى استمرت صداقتهما عميقة قوية ، إلى أن شاء الله أن يصيبه مرض عضال وأن ينتقل إلى جوار ربه راضيا مرضيا منذ بضعة سنين خلت . ومازال صاحبنا حتى الآن يحس بنوع من المسئولية نحو أسرته وأولاده ، وإن كانت مشاغل الدنيا ومشاكلها لا تسعف فى تحقيق كل ما يريد الإنسان .

وكانت اللجنة الأدبية غزيرة النشاط ، تقيم الندوات والمحاضرات ومجلات الحائط ، وكانت تحتفل - فيما كانت تحتفل به - بذكرى

دنشوای وهی القرية المجاورة لقريته التی نشأ فيها ، وكان هذا الاحتفال يجمع بين الاهتمام بالأدب والاهتمام بالسياسة فی آن واحد .

وكانت المناسبات الدينية أيضا تحظى من اللجنة بغير قليل من الاهتمام .

وكانت اللجنة الأدبية هی المكان الذی التقی فيه بزعماء الطلبة السياسيين الذين يقودون المظاهرات . وكان ذلك أيام ١٩٤٦ إبان حكومة اسماعيل صدقی . ولم يتخلف عن أغلب المظاهرات ، بل إنه قاد بعضها أحيانا . ولكنه كان ينفر نفورا طبيعيا من أی عمل تخريبی يقوم به بعض الشباب ، كإتلاف ترام وما إلى ذلك من التصرفات الصبيانية التی تدل على قلة الوعی ، وإن عبرت عن مدى الاحتجاج المكبوت فی نفوس الشباب .

وكان من دواعی حرصه على الاشتراك فی المظاهرات أنه وهو فی طريقه اليومی إلى المدرسة عبر ذلك الشارع الضخم الطويل - شارع عمر طوسون كما كان يعرف آنذاك ، ويعلم الله ماذا أصبح اسمه الآن - كان يرى تلميذة صغيرة من الواضح أنها فی مدرسة ثانوية ، وكانت التلميذة تقطع المسافة من بيتها فی ذلك الشارع إلى حيث تنتظر أوتوبيس المدرسة فی الشارع العام . وكان يعرف موعدها وكان ذلك الموعد يتفق مع موعد الدخول إلى المدرسة بحيث يراها كل يوم ، ولم تزد العلاقة على أنه كان يتبادل معها النظرات وأنه كان يحاول بحياء أن يبتسم لها ، وقد ظن يوما أنها بادلته ابتسامة بابتسامة وكان لذلك من

السعداء . ولم يقدر لهذا الحب الصامت أن يستمر طويلا لسبب لا يذكره ، والواقع أن ذلك الحب لم يكن قد بدأ وإنما هو كان شيئا فى مخيلته أكثر منه حقيقةً فى واقع الحياة .

وفى ذلك العام الذى كان يحرص على رؤيتها فيه كل صباح ، والذى انتخب فيه رئيسا للجمعية الأدبية بالمدرسة ، فى ذلك العام نفسه قبض عليه مع آخرين من الطلاب – أثناء حكومة إسماعيل صدقى – وانتقلت النيابة ومعها العديد من ضباط البوليس وأفراد الشرطة إلى المنزل الذى كان يقيم فيه مع أسرته ، وفتشوا المنزل تفتيشا دقيقا واصطحبوا معهم بعد التفتيش بعض المطبوعات وبعض الكتب وأهم من ذلك كله أنهم أخذوا «كراسة» كان يكتب فيها مذكراته ويومياته ، ويعبر عن نفسه فى تلك المرحلة الدقيقة من مراحل تطوره . وإنه ليشعر بشئ من الأسى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يسترد هذه «الكراسة» . وكان الاتهام الموجه له ولزملائه هو الاشتراك فى المظاهرات ، ولو كان الأمر كذلك لهان ولكن وجه إليه وإلى غيره الشروع فى حرق المدرسة ، ذلك لأن أحد الطلاب أبلغ أنه رأى «كورة شراب» صب عليها جاز وأنها كادت تحترق فى «بدروم» المدرسة . ولم يعلم أحد بذلك الأمر علم اليقين ولكنه كان السبب الأساسى فى إلقاء القبض عليه ، وعلى مجموعة أخرى من الطلاب لبضعة أيام أظنها كانت أربعة قضاها صاحبنا فى قسم بوليس روض الفرج ، ومازال الفتى يذكر كميات الطعام الكبيرة التى كانت بعض الأحزاب السياسية ترسلها إلى الطلاب المقبوض عليهم ، ومازال يذكر أنه وزملاءه كانوا يتبادلون الضحكات والنكات .

ولكن الأمر بالنسبة لأمه وأبيه كان مختلفا جدا . كانت تجربة جديدة ومثيرة ومؤلمة بالنسبة لهم جميعا ، بيتهم يدخله ذلك العدد الضخم من رجال البوليس ويصل الأمر بمن تولوا التفتيش أن يمزقوا مراتب السرير التى كان ينام عليها . لابد أنه - فى نظر أهله - قد ارتكب أمرا إدا ليس إلى غفرانه من سبيل .

وأفرجت النيابة عنه بعد بضعة أيام واستمر آخرون غيره أياما أخرى ، ورغم أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ورغم أن التحقيق قد حفظ ، إلا أنه لم يستطع أن يسترد «كراسته» العزيزة عليه .

ولكن ذلك الحادث أشعره بالرضا عن نفسه وأشعره بأهميته ، وتصور أنه أصبح زعيما بحق ، وكان يتساءل أحيانا ترى هل عرفت «هى» بما حدث له وهل افتقدته إذ لم تره فى صباح تلك الأيام التى قضاها فى قسم البوليس . لا يدرى من أمر ذلك شيئا ، وأغلب الظن أنها لم تشعر بشئ من ذلك كله فقد كانت فتاة صبوحة بريئة ، لعل وجدانها لم يتفتح لشئ من ذلك ، ولعل عكس ذلك أيضا هو الصحيح . الله وحده يعلم .

أما أبوه فقد كان فزعا مشفقا ، وأما أمه فقد كانت تضرب كفا بكف ولا تكاد تدرك مما جرى شيئا ، فهى تحب ابنها وهى تنزهه عن أن يتهم بالخروج على النظام ، وقد حرصت فى تربيتها لأولادها على أن تأخذهم بالحزم الشديد .

ولكن الأزمة انتهت وأصبحت بعد ذلك ذكرى ، بل إن الأمر لم يكن يخلو - بعد سقوط وزارة إسماعيل صدقى - من بعض الزهو والتفاخر، حتى بالنسبة لذلك الأب الهادئ الطبع الذى ينفر نفورا غريزيا من المشاكل أيا كان نوعها ومصدرها .

وقد أدى ذلك كله ، من رئاسته للجمعية الأدبية ومشاركته فى المظاهرات وقيادته لبعضها والقبض عليه - إلى مزيد من الإحساس بنفسه وإلى بعض من الخيلاء ، وكان من علاماته المميزة ذلك «الطربوش» الذى يلبسه دائما والذى يزيحه إلى الخلف قليلا على جبهته ويميل به قليلا نحو اليمين . وكانت رقبته أيضا وهو يسير فيها انحناءة يسيرة ، وكلها من علامات الاهتمام بالذات والدوران حولها . وكان والد صديقه «عبدالوهاب» يحبه ، كحبه لابنه وكان يقول دائما من باب المزاح إنه يأسى لرقبة الفتى من تلك الانحناءة التى لابد أن دوامها يسبب له ألما ، ولكن الفتى يتحمله راضيا لأن ذلك يظهره بالمظهر الذى يريده لنفسه من أنفة واعتداد واعتزاز .

وكان طلاب المدرسة يحبونه ويرون فيه مثلا لهم ، فهو مجتهد وهو من أوائل الطلبة وهو أديب المدرسة ، وهو واحد من زعمائها فكيف لا يكون محط أنظارهم وتقديرهم . وكان ذلك يرضيه كل الرضا .

ونقل الناظر القاسى وجاء محله آخر هو أشبه ما يكون بوالده رقة وحنانا وأبوة غامرة .

وارتاح الفتى إلى ذلك الناظر الذى قضى معه السنتين الأخيرتين فى المدرسة الثانوية ، واستطاع هذا الناظر أن يصرفه عن المظاهرات وأن يحببه أكثر وأكثر فى النشاط الاجتماعى فى المدرسة ، أن يدفعه إلى مزيد من الاهتمام بدروسه .

وفى تلك الفترة أصدرت المدرسة أو اللجنة الأدبية – لا يذكر – مجلة وكان هو أحد كتابها البارزين ، بل لعله كان يكتب فى العدد الواحد أكثر من مقال .

كتب مقالا – مازال يذكره – يناجيها فيه ويرسل إليها مشاعره ويتمنى لو أنها قرأته .

وكتب مقالا آخر عن أستاذ من الأساتذة كان متأثرا به ، ومدح ذلك الأستاذ ، وكان من أحد أوصاف المديح عنده فى وصفه لأستاذه ذلك أنه «فلاح» ، وكان صاحبنا يقصد من وراء ذلك أن يعبر عن شهامة ذلك الاستاذ ووطنيته وحبه لتلاميذه ، ولكن أستاذه ذلك لم يسعد بهذا الوصف ولم يرض عنه ، بل إن الفتى يذكر أنه لاقى منه تعنيفا وغضبا فى الوقت الذى كان صاحبنا يقصد فيه إلى تحيته وتمجيده ، وما أكثر ما يختلف الناس فى تفسيرهم للأمر الواحد وكل منهم يعتقد أنه على صواب .

●●●

وقرب نهاية مرحلة الدراسة الثانوية – أغلب الظن وهو فى الثقافة وهى السنة الرابعة الثانوية آنذاك – توثقت علاقته بالدكتور نظمـــى

لوقا الذى كان مدرســا للـغـة الفرنسيـة فى مدرسـة شبـرا الثـانوية ، والذى كـان من أوفـى تلاميـذ العـقـاد وأقـربهم إليـه ، وقـد التـفت إليـه نظمى لوقا عندمـا اهتم بالقـراءة فى الأدب وفى الفلسـفـة وأحب الشـعـر وإلقاءه له إلقاء أعجب به كل من سمـعه : اهتم به نظمــى لوقــا وشـجـعه على أن يحضر صالون الجمعة عند العقاد .

وذهب صـاحبنا وهو خـائف يترقب ، لقد كان يقرأ للعقاد ، قرأ كل كتبه عن العبقريات الإسلامية ، وقرأ له «سارة» ، وقرأ «هذه الشجرة» ، وقـرأ «سـاعـات بين الكتب» وفى الفـصـول وفى غـيـر ذلك ، أحب كـتـابة العقاد . وتأثر بها وكل هذا مـعقول ، ولكن أن يذهب ليجلس فى مجلس العقاد فقد كان ذلك كبيرا بالنسبة له . وذهب هيابا وجلا ودق جرس البـاب ثم دلف إلى الصـالون وسلم على العـمـلاق ثم جلس حـيـث وجـد مكانا ، وأخذ ينصت إلى الحوار الدائر وهو لا يكاد يصدق نفسه أنه فى مـجلس العـقـاد . وسمـع العـقـاد وهو يضـحك ضـحكته المجلجلة وسمـعه يلقى بألفاظ ما كان يتصور أن هذا العملاق يخرج مثلها فى فمه ، ورأى فى صالون العقاد كثيرا من الأسماء الكبيرة التى كان يقرأ لها ويحس نحوها بغير قليل من التوقير والإجلال ، رأى عثمان أمين وزكى نجيب مـحـمـود ، ورأى على أدهـم ورأى أنيــس منصــور ولبيب شــقـيـر ورأى غير هؤلاء من جيل الشباب وإن كانوا جميعا أكبر منه سنا وأعلى درجة فى مراحل التعليم ، وما يظن أنه كان هناك طالب من المرحلة الثانوية يغشى هذا المجلس غيره ، وأظن أنه اسـتـمر مـواظـبـا على صـالون العقاد بقية مرحلة الدراسة الثانوية ، وطوال المرحلة الجامعية ولم ينقطع عنه إلا عندما تخرج وعيّن فى النيابة العامة فى صعيد مصر .

وقد كان صالون العقاد مدرسة حقيقية ، وكان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية ، التى لم يكن يحلم أن يلتقى بها وهو فى تلك المرحلة من العمر .

وفى نهاية مرحلة الدراسة الثانوية ، كان الطلاب يحصلون على «التوجيهية» وهى السنة الخامسة فى تلك المرحلة ، وكانت تنقسم إلى شعب ثلاث : أدبى وعلمى ورياضة ، واختار صاحبنا شعبة أدبى بطبيعة الحال . وفى تلك الأيام كانت «وزارة المعارف» تنظم مسابقة فى اللغة العربية - ثم امتدت المسابقة بعد ذلك إلى عدد من المواد الأخرى ، ثم انتهى بها الأمر إلى الاختفاء الكامل ، وتقدم صاحبنا لتلك المسابقة .

ومازال يذكر أنه كان من موضوعات المسابقة فى ذلك العام - ١٩٤٨ - كتاب حياة الرافعى لسعيد العريان والشوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وكتاب مترجم اسمه «فن الأدب» لأحد أعلام الأدباء الانجليز ، وقام بترجمته الأستاذ محمود محمود الذى عرف فيما بعد أنه شقيق الدكتور زكى نجيب محمود .

وأتاحت له المسابقة أن يعرف لأول مرة أن القراءة المنظمة المتأنية أكثر فائدة وأكثر امتاعا وأعمق عائدا ، من تلك القراءات العابرة العشوائية التى تنتقل من كتاب إلى كتاب ومن موضوع إلى موضوع على غير هدى ولا تنظيم .

وأتاحت له قراءات المسابقة أن يقترب أكثر من الرافعى وأن يقرأ له وعنه ، وأتاحت له أيضا أن يدرس رأى العقاد فى شوقى وتأثر به وهو

فى تلك المرحلة ، ومازال يذكر كيف أنه فى امتحان التحريرى لتلك المسابقة وجد سؤالا مازال يذكر نصبه «يرى البعض أن لشوقى شخصية شاعرية قوية وينكر عليه آخرون هذه الشخصية ، ناقش الرأيين وبين رأيك» وقد تكون الذاكرة قد خانته فى لفظ هنا أو لفظ هناك فى بنية السؤال ، ولكن هذا هو مضمونه وألفاظه أيضا إلى حد كبير . وفى إجابته على السؤال أخذ منحى العقاد كاملا وأنكر على شوقى مالا يستطيع أن يذكره الآن .

ويبدو أن هذا الاتجاه كان مناقضا لاتجاه الأستاذ المصحح ، لأنه يذكر أنه رغم نجاحه فى المسابقة إلا أنه لم يكن «أول» الناجحين فى القطر ، كما كان يتوقع وكما كان كل الأساتذة يعتقدون أنه يستحق ، ولكنه نجح فى امتحان المسابقة وكان من المبرزين .

وإنه ليذكر فى امتحان الشفوى أنه امتحن أمام لجنة أحد أعضائها الأستاذ أمين الخولى - وكانت اللجان تتكون من أحد أساتذة كلية الآداب وأحد كبار مفتشى وزارة المعارف ، ومازال يسترجع بعض ما كان من مناقشات أمام تلك اللجنة . سألوه فيما كان مقررا من كتب ، ثم طلبوا منه أن يقرأ قصيدة من الشعر ، وناقشوه فى إعراب بعض الكلمات ، ثم فى النهاية سألوه عما فهمه من معنى بيت من أبيات تلك القصيدة فإذا به يجيبهم ببيت من الشعر قائلا لهم فى ثقة ، إن هذا البيت يذكرنى ببيت الشعر :

علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

لا يذكر ماذا كان البيت الذى سألوه عنه ولكنه مازال يذكر هذه الإجابة ، ومازال يذكر الإعجاب الشديد الذى لقيه من أساتذته ، وقد عرف بعد ذلك أنه حصل فى امتحان الشفوى على الدرجة النهائية: مائة من مائة ، وكانت جائزة المسابقة هى المجانية طوال سنوات الجامعة وعدد من الكتب الأدبية وعشرون جنيها عدا ونقدا فى تلك الأيام الخوالى.

ومازال صاحبنا يذكر أنه عندما أخذ تلك الثروة - العشرين جنيها - اشترى منها بأحد عشر جنيها كتبا وقال لنفسه لقد جاءت الكتب بهذا المبلغ فليذهب أغلبه لشراء الكتب .

أما الجنيهات التسعة الأخرى فقد اشترى منها هدايا لأمه وأبيه واخوته ، لم يترك أحدا إلا واشترى له شيئا حتى تعم الفرحة الأسرة كلها .

وبعد امتحان المسابقة كان امتحان الشهادة التوجيهية ، ولاشك أن انصرافه إلى المسابقة كان على حساب الوقت الموجه لمذاكرة المواد العادية ، ومع ذلك فقد استطاع أن يحصل على أكثر من سبعين فى المائة - ولم يكن أحد غير الأوائل يحصل على هذه النسبة فى ذلك الوقت - وكان من المتقدمين على مستوى «المملكة» كلها ؛ إذ كان ترتيبه الثانى عشر على القطر كله ، وحقق الفتى بذلك فوزا مضاعفا وحصل على مجانية المسابقة وعلى مجانية التفوق فى التوجيهية .

ومع ذلك فإنه مازال يذكر أنه رغم فرحته بتفوقه وفرحة أهله إلا أنهم لم يغفروا له أن «الأولى» فى التوجيهية فى ذلك العام كانت «فتاة» اسمها «فلورا» وكان أهله يعيّرونه بذلك تعبيرا لا يخلو من المزاح .

و مازال يذكر أن تلك الفتاة دخلت قسم اللغة الانجليزية فى كلية الآداب بجامعة «فؤاد الأول» ، أما هو فقد اتجه إلى كلية الحقوق ..

وبدأت مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة .

على أعتاب الجامعة

كان قد حصل على التوجيهية – نهاية المرحلة الثانوية – بمجموع كبير وكان من الأوائل فى القطر ، وكان أيضا قد نجح فى امتحان مسابقة اللغة العربية . وكان ترتيبه فى التوجيهية ونجاحه فى المسابقة يتيح له كل منهما أن يدخل الجامعة بالمجان .

وكان عليه أن يختار أى كلية يريد أن يلتحق بها .

وكان هناك أمامه خياران لا ثالث لهما .

قسم الفلسفة بكلية الآداب .

وكلية الحقوق .

أيهما يختار وأى طريق يسلك .

إنه يحب القراءات الفلسفية والأدبية وقد قضى تلك السنين الفائتة من حياته معها . ولقد بدأ فى سنته الأخيرة يتردد على مجلس العقاد . ويسمع عن الفلسفة والفلاسفة وكانت علاقته بنظمى لوقا قد توثقت ، ذلك أنه هو الذى قاد خطاه لندوة العقاد ، ونظمى لوقا خريج قسم الفلسفة آداب القاهرة .

وأنه مايزال يذكر يوم أن اصطحبه أخوه إلى محاضرة للعقاد فى كلية الآداب ، أمام جمهور غفير فى مدرج من أكبر مدرجات الكلية . ومازال يذكر أساتذة قسم الفلسفة جميعا – أو أغلبهم – يجلسون فى مقاعد المستمعين ورئيس القسم آنذاك الدكتور / عثمان أمين يجلس بجوار العقاد ليقدمه الى الجمهور . ومازال يذكر جيدا أن عثمان أمين

قال فى تقديمه للمحاضرة «إن العقاد العملاق ليس فى حاجة إلى أن يقدمه أحد لأحد . ولكن العقاد هو الذى يقدم غيره من أمثالنا إلى جمهور المستمعين » .

ومازال يذكر ذلك كله ومازال يذكر العقاد وهو يبدأ محاضرة عن «السببية عند الغزالى» بقوله : «الغزالى فى السببية فليسوف يناقش ويناقش» . وكأن هذه العبارة جميعا قد حفرت فى ذهنه ولم يستطع مر السنين أن يمحو منها شيئا . وطاف به الخيال وسرح وراح وجاء وخاطره غير مستقر ونفسه غير راضية باختيار معين .

وجلس الى أبيه وإلى أخيه يحاورهما وكان أبوه قاطعا برفض قسم الفلسفة لأن تلك الفلسفة قريبة من الكفر أو مؤدية إليه ثم إنه قال لابنه : «وبعد أن تتخرج فى قسم الفلسفة ماذا تفعل ؟ وهل ستشتغل فيلسوفا؟»

وكان أخوه اكثر ميلا إلى كلية الحقوق بطبيعة الحال تلك الكلية التى كان قد انتهى من دراستها لتوه .

وبعد تردد انتهى بينه وبين نفسه إلى قرار : لتكن الفلسفة هوايتى وليكن القانون حرفتى ومهنتى .

وذهب من غده وقدم أوراقه إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة . ولم يكن هناك أيامها مكتب تنسيق وإنما كان هناك مكان لكل طالب يختار الكلية التى يريدها .

وعلم أن عددا كبيرا من العشرة الأوائل فى القطر من الحاصلين على التوجيهية قد تقدموا إلى كلية الحقوق ، وأن عددا قليلا من هؤلاء

هم الذين اختاروا كليات أخرى . ولم تكن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ولا كلية الإعلام قد أنشئتا بعد .

وعندما بدأت الدراسة فى أكتوبر ١٩٤٨ فى كلية الحقوق التقى بالعديد من الطلاب وبسرعة تعارف الطلاب المتقدمون وكان منهم يحيى الغطريفى وماجده - وأسامة الباز - وأحمد القشيرى - وهو وآخرون ويذكر أن ترتيبه كان السادس بين أوائل المتقدمين إلى الكلية .

وبدأت المحاضرات

أى هيبة وأى رهبة .

الأساتذة يدخلون المدرج بالروب الجامعى الخاص بكلية الحقوق .

والطلاب يصطفون فى المدرج صفوفا بعضها وراء بعض . وفى المقدمة تجلس الفتيات . ولم يكن فى الدفعة غير اثنتى عشرة طالبة . كان منهم ثلاث على الأقل من الطالبات المتفوقات بل إن واحدة منهن كانت ضمن العشر الأوائل ممن قبلوا فى الكلية . وواحدة من البنات المتفوقات كانت تسكن قريبا منه فى روض الفرج وكان أهلها من الاستنارة بحيث إنهم كانوا لا يمانعون أن تستقبل أبنتهم بعض زملائها فى الكلية فى منزلهم . وكان فتحى وعبد العزيز من الرواد الدائمين . وكان هو يتردد أحيانا .

وفى الترام من شبرا إلى العتبة ومن العتبة إلى الجيزة كانت هناك وجوه كثيرة مألوفة يكاد يلتقى أصحابها كل يوم فى رحلتهم الى الجامعة .

وعند المحطة الأخيرة التى تقع بين حديقة الأورمان وحديقة الحيوان بالقرب من المكان الذى يصب فيه الآن كوبرى الجامعة - الذى لم يكن قد أنشىء بعد - كان الطلاب ينزلون زرافات ووحدانا ويتجهون كل الى كليته . هذا بمسطرته ذاهب إلى كلية الهندسة وذاك إلى كلية التجارة وآخر الى العلوم . وكانت كليات الآداب والحقوق تقعان فى مقدمة حرم الجامعة حيث تقعان الآن أيضا .

وفى الترام القادم من شبرا كان يرى بين من يرى كل يوم فتاة رقيقة خمرية اللون لها عينان عسليتان أشبه بعيون القطط . وكان يجد فيها ملاحة لفتت نظرة . ولعله كان واهما ، وكان تكرار المقابلة هو الذى أوحى له بذلك . على أى حال لقد تجاسر فى يوم من الأيام وقال لها صباح الخير فردت تحيته بمثلها .

وعرف أنها طالبة فى كلية الآداب وأنها فى قسم اللغة الفرنسية .

وكان هو يتردد على كلية الآداب شأنه فى ذلك شأن كثيرين من طلاب الحقوق وكانت له هو أسبابه الخاصة فى التردد على كلية الآداب، كان محبا للأدب وكان يحضر احيانا بعض المحاضرات فى الأدب العربى وأحيانا أخرى بعض المحاضرات فى الفلسفة . وكان يجد فى ذلك متعة كبيرة . وكان أخوه الذى أنهى دراسته في كلية الحقوق منذ العام المنصرم قد ارتبط بفتاة فى قسم اللغة العربية فى كلية الآداب وكانت فتاة مليئة بالحيوية والإقبال على الحياة ويبدو أنها كانت هى وأخوه يعيشان قصة حب عميق .

وأخبرها بأمر الفتاة التى كان يلقاها فى الترام والتى كانت من طالبات قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب ، وسعت إلى معرفتها وكان ذلك سببا فى توثيق الصلة بين تلك الطالبة وصاحبنا . ولم تكد العلاقة تبدأ حتى انتهت . كانت الفتاة مسيحية ويبدو أنها كانت من أسرة محافظة فلما علمت أنه مسلم أعرضت عنه ، على حين أنه لم يكن حتى وهو صغير يهتم كثيرا بفوارق الأديان .

مازالت ذاكرته تحتفظ بصورة الأستاذ الشيخ / على الخفيف وصورة الأستاذ الدكتور / عبد المنعم بدر . كان أولهما يلقى عليهم دروس الشريعة الإسلامية وكان الثانى يلقى عليهم دروس القانون الرومانى . وكان كل منهما شخصية مميزة . كان الشيخ الخفيف رجلا جادا وقورا عالما وكان الطلاب يحبونه فى رهبة . وكان الدكتور / عبد المنعم بدر فارع الطول أشبه بالأتراك بياض وجه وحمرة بشرة . وكان بادى «القرف» دائما . وكان كثيرا ما يلقى على الطلاب ألفاظا غير مفهومة بشكل واضح ولكنها تعبر عن قرفه واستيائه من مستوى طلاب الجامعة – حتى آنذاك .

كان كل شيء فى الجامعة ممتعا ومثيرا .

وكان بعيدا عن عالم الفتيات كل البعد . ولعل أول فتاة كلمها فى حياته من غير ذوى قرباه كانت بعد أن دخل الجامعة وحين اقترب عمره من العشرين عاما .

وكان فيه خجل أو خوف أو حياء أو خليط من ذلك كله ، وكان هذا يجعله غير مقدام ولا جسور يتقدم خطوة ويؤخر خطوات . ولكنه كان يستملح من بعيد .

كانت فى دفعته فى كلية الحقوق فتاة بيضاء بادية الحسن والدلال أيضا . وكان ملبسها ينم عن ثراء واضح . وكانت تلفت نظره . وفى يوم من الأيام إذا به يجد نفسه مع «احمد الحفنى» ومع آخرين من طلاب الدفعة وإذا باحمد يتقدم إلى تلك الفتاة مسلما ، وكان واضحا أنهما يعرفان بعضهما معرفة سابقة على الجامعة . وعرف من احمد انها من المنصورة . وتبادل معها اطراف الحديث . يا سبحان الله ما اكثر ما تخدع المظاهر . لقد كانت الفتاة آية فى الحسن من بعيد فلما اقترب منها وتبادل معها بعض العبارات إذا به يجدها اشبه بلوح الثلج أو أقرب إلى أن تكون عروسة مولد . هذا هو تشبيهه لها فى تلك الأيام .

اما «ماجدة» فقد كانت مختلفة ، كانت متقدمة متفوقة . وكان فيها حياء وخفر وكانت نادرا ما تجلس مع الطلاب . وكان يبادلها نظرات وتبادله مثلها وقليلا ما جرى بينهما حديث – ولكنه كان يحس من بعيد – دائما من بعيدا باهتمام بها وبشىء من الاهتمام منها به ايضا أو هكذا خيل له .

ولكن القيود النفسية التى كانت تكبله حالت بينه وبين أن يذهب الى ابعد من ذلك .

وكان فى السنة الأولى عندما كان أحمد مجاهد وماهر وطعيمة فى السنة الرابعة . وكانت الجامعة تموج بالعمل السياسى بين الطلاب . وكان هو قد انتظم فى الحزب الوطنى منذ كان فى مدرسة شبرا الثانوية . وكان معه أيضا فتحى وعبد العزيز . وكان مجاهد وماهر من

قيادات شباب الحزب . كان ذلك فى عامى ١٩٤٨ - ١٩٤٩ وما بعدهما حتى تخرجه عام ١٩٥٢ حيث تبدلت الأمور تبديلا شديدا .

وكانت صلته بالحياة العامة والنشاط الطلابى والحزبى وانصرافه بعض الشىء إلى القراءات الأدبية والفلسفية ، تحول بينه وبين أن يحقق من التقدم فى دراسة القانون ما كان يطمع اليه ، ولكنه مع ذلك ظل يحافظ على قدر من التفوق يجعله بين طائفة الحاصلين على تقدير جيدا جدا فى الغالبية الكبرى من المواد . وكان يحصل أيضا فى بعض المواد على درجة الامتياز وأحيانا يحصل على درجة جيد فى البعض الآخر .

وكان أهله يودون لو تفرغ لكليته وانصرف عن ذلك الذى يشغله عن دروسه من اهتمامات عامة . ولكن هذه الاهتمامات كانت جزءا من تكوينه وكانت تشعره أيضا بنوع من التميز وسط الزملاء والإخوان .

«الغليان السياسى» فى رحاب الجامعة !

كانت الانتخابات لاختيار أعضاء مجلس اتحاد طلبة الكلية حدثا من الأحداث المشهودة فى الجامعة ، وكان الإعداد لهذه الانتخابات يستغرق وقتا طويلا ويمر بمفاوضات ومداولات داخل الجامعة ، وخارجها ، وكانت التيارات السياسية المختلفة تعطى لهذه الانتخابات أهمية كبيرة ، لأنها كانت إلى حد كبير تعكس وزن هذه التيارات بين طلاب الجامعة ، الذين كانوا فى ذلك الوقت عند نهاية الاربعينيات وبداية الخمسينيات يلعبون دورا مؤثرا فى الحياة العامة .

كانت الحياة العامة فى مصر كلها تفور فورانا عجيبا يوحى بأن إعصارا يوشك أن يهب ليقتلع كل شئ وأنه لم يعد لشئ ولا لأحد وقار حتى أن الملك نفسه فقد اعتباره بين الناس ، وأصبح الحديث عن مباذله وفساده على كل لسان . وهتف الطلبة وسط الحرم الجامعى بسقوطه ، بل إن الأمر وصل إلى حد أن بعض الطلبة دخلوا حجرة رئيس الجامعة، ونزعوا صورة الملك من الحائط وداسوها بالأقدام هاتفين برحيله . إلى هذا الحد كانت الحياة العامة تغلى فى مصر فى بداية النصف الثانى من هذا القرن . وإلى هذا المدى كانت الجامعة بطلابها واحدة من البؤر الأساسية التى تعبر بوضوح عما يعتلج فى أحشاء المجتمع المصرى .

كان صاحبنا قد وصل إلى السنة الثالثة فى الكلية ، وكان ناجحا بدرجة «جيد جدا» من السنة الثانية إلى الثالثة ، ولا يذكر إذا كان هناك أحد من الطلاب قد حصل على درجة امتياز ، وحتى إن كان هذا قد حدث فهو طالب أو اثنان لا أكثر . وكانت مجموعة شباب الحزب الوطنى متحالفة مع الإخوان المسلمين تريد أن تخوض معركة انتخابية ضد الوفد ، وكان هناك فى تلك الأيام غزل متبادل بين التيارين السياسيين ، وكان شباب الحزب منقسما بين مؤيد لهذا التقارب ومعارض له ، وكان الشباب القريب من اليسار يرفض ذلك التقارب ، ولكن هو والعدد الأكبر من شباب الحزب الوطنى ، كانوا يرون أن هذه هى الفرصة الوحيدة للبقاء والاستمرار والوجود الفاعل فى الساحة السياسية .

وكانت الخريطة السياسية فى مصر تتغير بسرعة مذهلة ، كان الوفد الذى ظل طوال السنوات الثلاثين الماضية منذ قيام ثورة ١٩١٩ ومنذ وضع دستور ١٩٢٣ هو القوة الأساسية التى تناوئ القصر ، وتدافع عن الدستور ضد عدوان الملك وتحافظ على التقاليد الليبرالية الغربية إلى مدى بعيد . ولكن الوفد كان يدفع لذلك ثمنا باهظا .

كانت الانتخابات الحرة تأتى بالوفد إلى الحكم ، ولكن الملك كان سرعان ما يضيق بالوفد ويتحين الفرص للإطاحة به وإقالة حكومته .

ووجد داخل حزب الوفد تيار بدأ يؤمن بضرورة مهادنة القصر، حتى يستطيع الوفد أن يستمر فى الحكم لكى يحقق أهدافه وأغراضه ، ولكى يحمى أعضاءه ويرعى مصالحهم ، وتنامى ذلك التيار عندما وصل

بعض كبار الملاك الزراعيين إلى قمة الوفد ، أو قريبا من تلك القمة . وعندما أعادت الانتخابات التى أجريت فى تلك الفترة الوفد إلى الحكم ، كان واضحا أن الوفد يريد أو أنه قرر أن يهادن القصر لعل ذلك يطيل عمره فى الحكم .

كان كل شئ يتبدل وكان كل شئ يتغير ، واهتزت الثوابت جميعا ، وكان كل سميع بصير يدرك أن استمرار الأوضاع القائمة من المحال .

فى تلك الأجواء المكفهرة ووزارة الوفد الأخيرة فى الحكم ، قررت مجموعة شباب الحزب الوطنى ترشيح صاحبنا فى انتخابات الاتحاد ، عن طلاب السنة الثالثة فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة .

ورشح الوفد «أحمد الخطيب» وكان من زعماء الطلبة الوفديين فى الجامعة ، ووصل من أهمية المعركة أن الدكتور حامد زكى باشا وكان وزيرا فى وزارة الوفد ، وكان فى الوقت نفسه من ألمع أساتذة كلية الحقوق وأبعدهم صيتا ، حضر بنفسه مؤتمر انتخابات فى الكلية أقامه الوفد للدعاية لمرشحه «أحمد الخطيب» .

وكان هناك مرشحون آخرون عديدون ، وكانت الانتخابات تنتهى باختيار عضوين عن كل دفعة من دفعات الكلية . وتحالف شباب الحزب الوطنى مع شباب الإخوان المسلمين بعد مفاوضات مجهدة ، تولاها معهم «فخرى العاصى» و«أحمد زكى» وكان أولهما قد أنهى دراسته بالمرحلة الجامعية الأولى وقيد اسمه فى الدراسات العليا ، ورشح نفسه عنها لعضوية الاتحاد . أما الثانى فكان ابنا لأحد كبار المستشارين

وكان معروفا بدهائه وسعة حيلته . ونجحت المفاوضات على أن يتضامن التيـاران فى الدعـاية لأى مـرشح منهمـا ومـسـاندته فى صناديق الانتخابات .

واستقر الرأى على أن يكون هو مرشح الجبهة فى انتخابات الاتحاد لطلبة السنة الثالثة .

وعقدت مؤتمرات ووزعت منشورات وألقيت خطب ودارت محـاورات حول كل القضايا داخل الجامعة وخارج الجامعة . وكانت القضـايا متشعبة وكان لابد للمرشح أن يدلى بدلوه ، وأن يبدى رأيه فى القضايا المطروحة وأن يدافع عن رأيه وأن يحاول بذلك أن يكسب الطلاب لصفه . وكانت هناك أغلبية صامتة لا تنتمى لأى من الاتجاهات السيـاسية ، وكـانت هذه الأغلبيـة هى التى تستطيع أن تحسم أمر الانتخـابات فى النهاية لصالح من تميل إليه. وكانت فتيات الدفعة رغم قلة عددهن آنذاك يلعبن دورا مؤثرا فى هذه الأغلبية الصامتة . كان عدد الطالبات لايزيد كثيرا على عشر طالبات ولكن هؤلاء الطالبات العشر كن محط أنظار طلبة الدفعة كلها والتى كانت تزيد قليلا على خمسمائة طالب .

وكان يعرف بعضهن معرفة لاهى من قبيل الصداقة الوطيدة ولا هى من قبيل العلاقة العابرة ، وكان من بين الطالبات زميلة تقيم قريبا من حيث كان يسكن ، ومن حيث كان «فتحى» و«عبدالعزيز» يسكنان أيضا.وكانت أسرة تلك الفتاة الذكية لا تمانع فى أن يأتى بعض زملاء الكلية لزيارة ابنتهم ، وتبادل الأحاديث معها ، وكان هو يلم أحيانا بتلك

اللقاءات ، ولكن لم يكن من المترددين كثيرا مثل زميليه الآخرين . وكان يعرف تلك الفتاة الأخرى التى كان أبوها وكيلا لمحكمة النقض ، وكانت بين بنات الدفعة وأبنائها يشار إليها بالبنان . وكان يعرف غير هذه وتلك معرفة تتسم بالوقار والاحترام المتبادل ، وقد تعاهدت الطالبات على مساعدته والدعاية له وسط أبناء الدفعة ، وكان لذلك إلى جوار العوامل الأخرى ، تأثير كبير فيما حقق من نجاح انتهى بفوزه فى انتخابات مجلس اتحاد طلبة كلية الحقوق بجامعة «فؤاد الأول» ممثلا لطلاب السنة الثالثة . وكان انتصارا له معناه السياسى ؛ إذ كان يوحى بأن عددا غير قليل من طلبة الكلية قد انصرف عن «الوفد» بعد ممارساته الأخيرة ومهادنته للقصر . وكان لانتصاره معنى آخر ذلك أن الغالبية الكبرى من المرشحين لاتحادات الطلاب فى الجامعة ومن أعضاء الاتحاد لم يكونوا من الطلبة الحريصين على التفوق العلمى . كان أغلبهم ممن ينجحون بالكاد وممن يصرفون أغلب أوقاتهم فى اهتمامات سياسية تبعدهم كثيرا أو قليلا عن طلب العلم والتفرغ له ، أما هو فكان من الطلبة المتقدمين عند دخوله الكلية ، وأثناء دراسته فيها ، ولذلك فإن نجاحه كان يعنى إلى جوار المعنى العام معنى علميا طلابيا أيضا .

وإنه ليذكر كيف اجتمع مجلس الاتحاد لأول مرة . وكان يحضر اجتماعات المجلس أحد أساتذة الكلية ، وكان الأستاذ الدكتور عبدالمنعم بدر هو الأستاذ الذى رأس جلسة الاتحاد الأولى، كان يعرفه وكان طلبة الجامعة كلهم يعرفونه ، فقد كان معروفا بحبه للطلبة وحرصه على

تشجيع الأنشطة الجامعية فضلا عن شهرته باعتباره أستاذ القانون الرومانى . وكان شكله مهيبا جميلا وسيما ، كان يشبه الأتراك أو الرومان ، كان أبيض الوجه فارع القامة يميل إلى الامتلاء ، وكانت له طريقة خاصة فى الكلام تنبئ عن «قرف» ارستقراطى واضح ، ولكن ذلك القرف لم يكن يباعد بينه وبين الطلاب ، بل عكس ذلك كان صحيحا. فقد كان الطلبة يحبونه لأكثر من سبب ، كان معروفا عنه فى الامتحان الشفوى أنه لا يعطى أى طالب أقل من درجة النجاح ، مهما كان مستواه مادام يعرف «أى شئ» عن مادة القانون الرومانى ، ولعل مرجع ذلك أن الرجل كان يدرك أن هذه المادة ليست لها إلا أهمية تاريخية وأنها لا تتصل بحياة طالب الحقوق العملية من قريب أو من بعيد ، وإلى جوار ذلك فقد كان الدكتور عبدالمنعم بدر - رحمه الله - معروفا بصلته بالنشاط الطلابى ومعرفته بكيفية معالجة الطلاب أعضاء مجلس الاتحاد ، خاصة الجامحين منهم من الذين تمرسوا بالسياسة الحزبية فى الأحزاب التى كانت قائمة آنذاك .

ويذكر صاحبنا أن مجلس الاتحاد فى أول جلسة من جلساته ، كان له رأى معين فى توزيع الميزانية ، وأن هذا الرأى لم يكن مقبولا من رائد الاتحاد الدكتور بدر ، وأصر كل فريق على رأيه وبعد جلسة أو جلستين من الحوار الساخن قرر الدكتور بدر أن يترك أعضاء الاتحاد وحدهم قائلا بقرفه المعهود «افعلوا ما تشاءون» وأسقط فى أيديهم ، ولا يذكر الآن ماذا حدث بعد ذلك ولكن الذى يذكره جيدا أن الجمع التأم مرة

أخرى وأن الأمور سارت وأن رأى الأستاذ - فى الغالب - هو الذى ساد .

وكان «فاروق صادق» طالبا ذكيا بل كان شديد الذكاء ، وكان قصيرا ماكرا يتكلم همسا ويشيع من الأخبار ما يعجب الطلبة . وكان الطلبة يتساءلون من أين له بها ؟ كان فاروق يقول إن المرحوم الدكتور عبدالمنعم بدر صاحب كأس يعاقرها وإنه يعيش عيشة الأوروبيين ويعايشهم وإنه يشبههم حتى فى قوامه وشكله ، لا يفرق بينه وبينهم إلا ما كان يلبسه على رأسه من «طربوش» ، وكان يشيع أيضا أن الرجل على صلة بالقصر الملكى ، ويبدو أنه كان له شقيق من رجال الملك فعلا ، كان يعمل أنذاك فى الديوان الملكى أو فى وزارة الخارجية ، وكان «فاروق» يردد هذه الأخبار هامسا بين مجموعة من الأصدقاء ، ولكن الأخبار ما كانت تلبث أن تشيع بين الطلاب جميعا ، مع قدر كبير من المبالغة والإضافات .

ولا تحتفظ ذاكرته بكثير عن نشاط مجلس الاتحاد ولا عن إسهامه داخل المجلس ، ولكن عضوية المجلس كانت تعطى أصحابه غير قليل من الأهمية بين زملائهم وعند أساتذتهم بل وخارج جدران الجامعة نفسها .

وكانت وزارة الوفد فى تلك الفترة تجرى مفاوضات قاسية مع البريطانيين من أجل استكمال استقلال البلاد ، وتعديل معاهدة ١٩٣٦ التى وقعتها حكومة وفدية سابقة ، والتى لم تكن تحقق آمال المصريين وطموحاتهم . فلما انتصر الحلفاء فى الحرب وكان لمصر الرسمية موقف

مساند لهم ، بدأت المطالبة بتعديل المعاهدة وجلاء القوات البريطانية واستكمال استقلال البلاد ، وكانت المفاوضات توشك مرات عديدة أن تصل إلى نهايتها ، ولكنها كانت فى النهاية تصطدم بعقبات لا يسهل التغلب عليها ، وكان الشعب يثور والمظاهرات تعم البلاد ، وتحس الحكومة بالعجز فتستقيل ، حدث ذلك مع اسماعيل صدقى وحدث مع النقراشى رغم الفارق بين الرجلين فى الأسلوب والتوجه وطريقة معالجة الأمور . وقد ظل كثيرون يذكرون دفاع النقراشى فى مجلس الأمن عن القضية المصرية ، ذلك الدفاع الذى رفع الرجل كثيرا فى عين مواطنيه، ولما قتل الرجل على يد شاب من الإخوان المسلمين كان ذلك صدمة للكثيرين ، خاصة عندما عرف أن الرجل بعد وفاته لم يخلف ثروة كبيرة أو صغيرة ، وأن كل الذى تركه بضع جنيهات لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وحاولت حكومة الوفد بما لها من ثقل شعبى أن تنجح فيما لم تنجح فيه غيرها من حكومات الأقلية ، ولكنها كانت تصطدم بصخرة التعنت البريطانى ، سواء فيما يتعلق بقضية السودان أو قضية الجلاء عن منطقة قناة السويس ، ولما استمرت المفاوضات دون طائل ، أعلن النحاس باشا فى مجلس النواب أن مصر ألغت معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد ، ومازال كثيرون يذكرون ما قاله النحاس فى تلك الليلة «من أجل مصر وقعت المعاهدة ، ومن أجل مصر أعلن إلغاءها» .

وكان ذلك إيذانا بزلزال عميق لم يهز مصر وحدها وإنما هز المنطقة كلها هزا عنيفا .

كتيبة محمد فريد !

لم يكن لمصر كلها حديث غير ذلك الذى أعلنه النحاس باشا فى البرلمان من أمر إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، قائلا إنه أبرم المعاهدة من أجل مصر وقرر إلغاءها بعد أن فشلت كل المفاوضات مع انجلترا من أجل مصر أيضا .

لم يكن لمصر فى مدنها وقراها وفى مدارسها ومصانعها وجامعاتها حديث ، إلا ذلك الحديث الذى استثار حماس الناس جميعا وأشعل فى مصر كلها جذوة نار تكاد لا تهدأ ولا تخمد .

ولم تكن «بريطانيا العظمى» سعيدة بذلك القرار ، ولا راضية عنه ، وأعلنت رفضها لإلغاء المعاهدة من جانب واحد واعتبرت أن ذلك مخالف لقواعد القانون الدولى العام ، واجتهد عدد من الفقهاء المصريين فى تدعيم القرار المصرى بكثير من الحجج القانونية . ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الجدل القانونى وإنما أخذ الصراع منحى آخر كانت له عواقب عديدة .

وكان صاحبنا قد انتقل من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة فى كلية الحقوق ، واستطاع رغم انخراطه فى الحركة الوطنية ورغم انشغاله باتحاد الطلبة ، أن يحافظ على تقدير «جيد جدا» وأسعده ذلك وأسعد من حوله سعادة غامرة .

وكانت الأيام تدور فى نهاية عام ١٩٥١ وبداية عام ١٩٥٢ آنذاك ، وكانت سماوات مصر كلها ملبدة بغيوم ، حبلى بأمطار لا يعرف غير الله وحده كنهها ومداها .

وتنادى المصريون إلى تكوين كتائب للفدائيين تكون مهمتهما الأساسية أن تقض مضاجع الانجليز فى مدن القناة وعلى ضفافها . ولم تكتف حكومة الوفد بأن تغض النظر عن تلك الكتائب التى كان تكوينها وتدريبها يجرى تحت سمع الحكومة وبصرها - شأنه فى ذلك شأن كل شئ فى مصر - وإنما كانت تعمد إلى تشجيعها فى بعض الأحيان .

وكانت كتائب شباب الإخوان المسلمين هى الأسبق بحكم تنظيمها وسابق تدريبها وبحكم صلة الجماعة بمنطقة قناة السويس ، حيث شهدت مدينة الاسماعيلية مولد الجماعة فى نهاية عشرينيات القرن . وكانت الإشاعات يلاحق بعضها بعضا تروى ما فعلته تلك الكتائب وما حققته من إقلاق وإزعاج للقوات «الحليفة» على ضفاف القناة . ولم تكن الأقاويل تخلو من مبالغات ، ولكنها كانت مبالغات مطلوبة ومرغوبة لما تحدثه من أثر فى الشباب ولما تؤدى إليه من رفع معنوياته .

وإنه لايزال يذكر استشهاد أحد طلاب الجامعة واسمه «المنيسى» ، وكيف خرجت الحشود الحاشدة من طلاب الجامعة آلافا مؤلفة تسير فى مواكب هادرة تهتف بذكرى «المنيسى» ، وبموت قوات الاحتلال وبموت الإمبراطورية العجوز كلها .

وكانت الحركة الوطنية تتصاعد يوما بعد يوم حتى وصلت إلى أولئك التجار والمتعهدين الذين كانوا يتعاملون مع القوات البريطانية فى القناة،

فامتنعت كثرتهم عن تلك المعاملات واعتبر من استمر فى تعامله معهم خائنا خارجا على الإجماع الوطنى معرضا نفسه لمخاطر شتى .

وتنادى شباب الحزب الوطنى لإعداد كتيبة خاصة بهم ، وإن صاحبنا مازال يذكر أسماء «عصمت سيف الدولة» و«أحمد مجاهد» و«حسين عنان» و«حسين محمود» وغيرهم من شباب الحزب الوطنى الذين حملوا عبء تكوين تلك الكتيبة وتدريبها ومدها بقطع السلاح الصغيرة .

واتفق شباب الحزب الوطنى على أن يطلقوا على كتيبتهم اسم «كتيبة محمد فريد» ، وقد كان شباب الحزب الوطنى يعتقدون بحق أن تاريخ الوطنية المصرية لم يشهد كثيرين من نوعية محمد فريد ، وإنه كان أجدر الناس بلقب الشهيد وأجدر الناس بأن تحمل كتيبتهم اسمه .

وكان المرحوم «عصمت» هو المنظم وهو الموجه لتلك المجموعة من الشباب الوطنى المتحمس . ولم يكن «عصمت» شابا عاديا بأى معيار ، كان قادرا على إثارة مشاعر متناقضة لدى النفر من الشباب الذى التف حوله يسمع له ويتعلم منه ، ويعجب لكثير من أمره فى بعض الأحيان .

وعند «عصمت» فى ذلك المسكن القريب من ميدان السيدة زينب ، الذى كان يتخذه بيتا ومكتبا بعد أن تخرج فى كلية الحقوق ، وأنهى فترة التدريب ، واتخذ له مكتبا مستقلا للمحاماة فى ذلك الموقع بالقرب من دار الهلال ومن المدرسة السنية ومن مسجد السيدة زينب ، عند عصمت التقى صاحبنا ذات ليلة بضابط مهيب الطلعة له شوارب كثة فى

غير افتعال ، أبيض الوجه فارع الجسم، عيناه نفاذتان وعلى وجهه وقار وإيمان ، وعرف من عصمت أن هذا الضابط الكبير الذى كان برتبة «عميد» أو ما يقابلها أيام النظام الملكى - قبل عام ١٩٥٢ - هو المسئول عن تدريب كتيبة محمد فريد وعن تدريب غيرها من الكتائب ، التى تتوجه إلى مشارف القناة ويتسلل بعض أفرادها إلى معسكرات الجيش البريطانى ، ويتربص بعض أفرادها بجندى يسير منفردا فيطلقون عليه الرصاص ، ويستطيعون بذلك أو بغيره أن يحدثوا نوعا من القلق الذى قد يصل إلى الذعر فى بعض الأحيان وسط الجنود البريطانيين . وكانت الصحافة الوطنية تكتب أنباء المصادمات بين كتائب الفدائيين وقوات الاحتلال بغير قليل من الفخر والاعتزاز ، وغير قليل من المبالغة أيضا .

وأعجب صاحبنا بذلك الضابط الجميل الطلعة الوقور المتواضع ، ولم يخبره «عصمت» باسمه آنذاك ولكنه عرف بعد ذلك وبعد أن تغيرت أحوال كثيرة من أحوال مصر ، أن ذلك الضابط هو «رشاد مهنا» الذى أصبح بعد ذلك وصيا على عرش مصر ، الذى كان يجلس عليه الطفل أحمد فؤاد الثانى ملك مصر لبضعة أشهر ، إلى أن ألغت الثورة النظام الملكى وأقامت مكانه النظام الجمهورى .

ورغم أن صاحبنا كان قريبا القرب كله من الحركة الوطنية ، إلا أن اهتمامه كان موزعا بين تلك الحركة وكتائب الفدائيين من جهة ، ودراسته من جهة أخرى التى كان حريصا ألا تتأثر وهو فى السنة النهائية ، وبين قلبه الذى لم يفتأ ينبض بين الحين والحين متعطشا دائما إلى الحب وإلى الأحلام والرومانسية .

وكان الجو العام فى مصر كله يغلى ، ولم تكن الدراسة فى الجامعة منتظمة بطبيعة الحال . وكان انشغاله بالأمور العامة يحول بينه وبين الانتظام فى الدراسة ، ومع ذلك فإنه لا يزال يذكر إعجابه الشديد بمادة «أصول الفقه» وبالأستاذ الجليل الذى كان يقوم بتدريس تلك المادة لطلاب السنة الرابعة فى كلية الحقوق : «الشيخ عبدالوهاب خلاف» رحمه الله .

كان الشيخ «خلاف» من العلماء الأزهريين المتميزين تميزا ظاهرا ، كان صاحب صوت جهورى واضح ، وكان ذا منطق قوى، وكان متفتح العقل مستنيرا إلى أبعد حدود الاستنارة .

وكانت مادة أصول الفقه قريبة إلى عقله ، فقد كانت تقوم على نوع من المنطق المتماسك ، وكان صاحبنا محبا للفلسفة قارئا لها ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، وكانت مادة أصول الفقه من تلك المواد التى تملأ العقل وترضى النزعة إلى الفلسفة والمنطق ، وكان الشيخ (عبدالوهاب خلاف) متمكنا من مادته كل التمكن ، واثقا من نفسه كل الثقة ، حريصا على أن يعرف طلابه من أمر هذه المادة ما يساعدهم على فهم مقاصد الشريعة الإسلامية وينير لهم مسالكها .

والحقيقة أن الرجل كان عظيما وكان مهيبا .

كان الشيخ (خلاف) يدرك مدى صعوبة مادة (أصول الفقه) بالنسبة لطلاب الحقوق ، بل حتى بالنسبة للطلاب الأزهريين الذين تمرسوا بعلوم الشريعة وعلوم اللغة على نحو لايدانيه مستوى طلبة الجامعات العادية ،

ولذلك كـان الرجل حـريصـا على أن ييـسـر سـبل تلك المادة لطلابه ، والحـقـيقـة أن مـقـدرته على امـتـلاك ناصـيـة المدرج الملتـيء بالطلاب ، ومقدرته على تبسيط الصعب وتذليله ، ومقدرته على توصيل المعلومات ميسرة سلسة لطلابه كانت شيئا نادرا .

كـان الطلاب يقبلون على مـحاضـرته إقبالا غير معـهـود ، وكـانوا يحيونه ويحيطون به قبل المحاضرة وبعد المحاضرة ، ولاشك أن الرجل كان يسعد بذلك سعادة غامرة فليس هناك أكثر إمتاعا للأستاذ وإدخالا للغبطة والسرور على قلبه قدر إحساسه بحب طلابه له ، وإقبالهم عليه وحرصهم على الإفادة من علمه .

وكان صاحبنا يحب الشيخ (عبدالوهاب خلاف) حبا جما .

وكـان الشـيـخ (خـلاف) يقطن ناحـيـة دوران شـبـرا ، وكـان يعـتـاد الجلوس على مقهى فى مواجهة كنيسة سانت تريز بشارع شبرا ، وكان صاحبنا ممن يسكنون حدائق شبرا ، وكان يعتبر نفسه من المحظوظين إذ يرى أستاذه وشيخه الجليل صباحا فى الجامعة ، وبعد الظهر يراه فى كثير من الأيام جالسا على ذلك المقهى وحيدا أحيانا ، ومع بعض أصدقائه من الأزهريين أو غير الأزهريين أحيانا أخرى .

وكـان الشـيـخ (خـلاف) يركب المواصـلات العـامـة فى ذهابه إلى الجامعة وعودته منها ، ورغم أن الكثرة من الأساتذة كانت لهم سياراتهم الخاصة ، إلا أن منظر الأستاذ الجليل وهو يركب المواصلات العامة كان يؤثر فى نفوس طلابه وعارفى فضله إجلالا وتوقيرا ، فوق ماكانوا يكنون له من إجلال وتوقير .

وكانت للشيخ سمات تميزه من غيره من الأساتذة فى محاضراته ، فلقد كان كثير الاستطراد إلى أحاديث تتعلق بالحياة العامة وبالتاريخ أو بآراء فلسفية أو دينية بالغة الاستنارة ، وكنا نحب تلك الاستطرادات والأحاديث ، لأنها كانت تخفف عنا صعوبة المادة - أصول الفقه - من ناحية ولأنها كانت توسع مداركنا وتربطنا بالحياة العامة من ناحية أخرى .

ومازال صاحبنا يذكر حتى يومنا هذا كثيرا من استطرادات الشيخ وأحاديثه ونوادره ، ومازال صاحبنا إذا التقى مع زملائه أو غيرهم يردد بعض هذه النوادر ، أو يستشهد ببعض هذه الروايات والاستطرادات .

سأله أحد الطلاب ذات يوم قبل المحاضرة عن الربا المحرم ، وهل تعتبر فوائد البنوك من قبيل ذلك الربا ، وحرص الشيخ الجليل على أن تكون إجابته فى المحاضرة العامة على مسمع من الطلاب جميعا ، ومازال صاحبنا يذكر إجابة الشيخ كلمة بكلمة .

قال الشيخ (عبدالوهاب خلاف) فى إجابته على ذلك السؤال : (مين يا ولاد كان بيقرض مين ولأى غرض ومين الآن بيقرض مين ولأى غرض.

زمان يا ولاد - وهذه كانت لازمته رحمه الله وهو ينادى علينا - كان الغنى يقرض الفقير وكان الفقير يقترض ليسد حاجة ضرورية له أو لأولاده وذويه ، وهنا فإذا أخذ الغنى من الفقير فائدة فهذا هو الربا المحرم شرعا ، وصاحبه فى النار قولا واحدا .

ولكن من يقرض من الآن ولأى غرض ، ويستطرد الشيخ قائلا وأعناقنا مشرئبة نحوه .

إن الفقير الآن هو الذى يقرض الغنى ، وبدا التعجب على وجوهنا ، وهنا أخذ الشيخ يوضح ما غمض علينا قائلا : إن (عبدالوهاب خلاف) و(على الخفيف) و(القللى) و(وديع فرج) – وكلهم من أساتذة الكلية آنذاك – يودعون راتبهم فى البنك الأهلى وكلهم فقراء ، والبنك الأهلى يجمع هذه الودائع وغيرها ويقدمها قروضا لـ (عبود) وغير (عبود) ليقيموا بها المشروعات الضخمة وليربحوا من ورائها الأموال الطائلة ، أليس الفقير هنا هو الذى أقرض الغنى ، وأليس البنك هنا وسيلة لتجميع أموال الفقراء وودائعهم لاستثمارها ولإقراضها لأصحاب المشروعات أمثال (عبود) وغيره ، فإذا أخذ البنك فائدة من (عبود) وإذا اعطى بعض هذه الفائدة للمودعين الفقراء فهل يكون هذا هو الربا؟ ومازال صاحبنا يذكر صوت الشيخ الجليل وهو يقول (أعوذ بالله من العقول العفنة – أعوذ بالله ليس هذا هو الربا .. ليس هذا هو الربا) .

وقد روى صاحبنا هذه الرواية لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور سيد طنطاوى بعد ذلك ، وإذا بالشيخ يؤكد أنه سمع الرواية نفسها من الشيخ (عبدالوهاب خلاف) وأنه أشار إليها فى بعض ما كتب ، وأنه يؤيد ما ذهب إليه الشيخ (خلاف) من رأى مستنير .

وكان الشيخ (خلاف) صديقا للأستاذ (العقاد) وزميلا له فى مجمع اللغة العربية أو مجمع الخالدين كما يقال له .

وكان صاحبنا مازال يتردد على جلسة (العقاد) كل يوم جمعة، ولا يتخلف عن ندوته تلك إلا قليلا وفي واحدة من تلك الندوات تطرق الحديث إلى الشيخ (خلاف) ، وتحدث عنه (العقاد) بإكبار وإعجاب، وقال أحد الجالسين إنه رأى الشيخ الوقور يسير في الطريق إلى منزله وفي يده حزمة من فجل أو جرجير ، وقالها ذلك الشخص بما يشبه الاستنكار مجلاً الشيخ الكبير عن أن يحمل في يده تلك الأشياء وهو ذاهب إلى منزله .

وانبرى له (العقاد) مدافعا عن تصرف الشيخ ، وماذا يعنى هذا ، ولماذا لا يفعله ، إنه يريد أن يأكل جرجيرا فاشترى جرجيرا، إن (خلاف) وأمثاله تعنيهم كليات الأمور ولا تعنيهم سفاسفها وصغارها ، وإن محاسبتهم على مثل هذا السلوك فيها نوع من الظلم غير المقبول .

إن هؤلاء العمالقة العباقرة لا يخضعون للمحاسبة العادية ، وإنهم لا يعنيهم ولا يقلل من قدرهم أن يتصرفوا مثل هذا التصرف الذى لا يعيبهم في شئ ، وسر صاحبنا أيما سرور لدفاع (العقاد) عن شيخه (عبدالوهاب خلاف) .

وما أكثر ما يذكره صاحبنا وأقرانه وزملاؤه من طلاب الشيخ الجليل من نوادر وذكريات ، وما أكثر ما يروونه عنه منها ، وما أكثر ما يذكرونه به من إجلال وإكبار وما يمطرونه على روحه من رحمات .

ولم يكن الشيخ (عبدالوهاب خلاف) هو وحده من جيل الأساتذة العظام ، الذين تركوا في نفسه وفي نفوس زملائه أثرا عميقا ظل قائما

رغم مرور السنين والأعوام ، كان من أساتذته الذين مازال يذكرهم فى تلك السنة النهائية من سنوات الدراسة فى كلية الحقوق الدكتور (أمين بدر) ، الذى كان لايزال شابا عائدا من البعثة منذ أمد قصير تحيطه كثير من الروايات والقصص، وكان (أمين بدر) يدرس لهم مادة الأوراق التجارية ، كان (أمين بدر) شابا ممتلئا حماسا واعتدادا بالنفس ، وكان جادا يأخذ أموره كلها مأخذ الجد ، وكانت محاضراته علما خالصا لا مجال فيها لتعليقات عامة ، على أن (أمين بدر) خارج المحاضرة كان حريصا على أن يقيم علاقات مع الطلاب المتفوقين والطلاب المشاركين فى الأنشطة العامة فى الكلية ، وكان صاحبنا قد أتيح له أن يتعرف على (أمين بدر) عندما كان مع طلبة الكلية فى رحلة إلى مرسى مطروح فى الصيف ، الذى كان يفرق بين السنتين الثالثة والرابعة ، كان (أمين بدر) يقضى فترة فى معسكر النادى الأهلى ، وكان يمارس رياضة المشى بانتظام ، وكان يعرف أن مجموعة من طلبة الكلية بينهم صاحبنا يقومون برحلة صيفية إلى ذلك المكان الجميل - مرسى مطروح - وأتيح لأخينا أن يتعرف على (أمين بدر) وأن يجلس إليه وأن يحادثه وأن يسمع منه عن تجربته فى الجامعات الأمريكية ، وعن الحياة فى تلك البلاد ، وهكذا لم يكن (أمين بدر) غريبا عليه عندما جلس يتلقى عليه العلم فى السنة الرابعة ، وكان (أمين بدر) إلى جوار تمكنه من مادته القانونية كان متمكنا أيضا من اللغة العربية وكان صاحب ذهن قوى منطقى حاد .

ومازال صاحبنا يذكر بعضا من تلك المناقشات الفقهية العميقة التى كان (أمين بدر) يجد فيها كثيرا من المتعة ، وهو يناقش آراء غيره من الفقهاء ، وينتصر فى النهاية لرأيه ، لا عن هوى ولكن بعد تمحيص عميق لكل ما قيل من آراء .

●●●

وكان الطلبة يتلقون العلم وسط جو مشحون بالتوتر والقلق .

كانت القضية الوطنية تشغل الكثيرين منهم ، وكانت المصادمات مع قوات الاحتلال فى مدن القناة تشدهم شدا ، وكانوا يتابعون ما يجرى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن من مناقشات سياسية وقانونية حول إلغاء المعاهدة ، وحول شرعية بقاء قوات الاحتلال .

وكان الدكتور (محمد صلاح الدين باشا) وزير الخارجية فى حكومة الوفد يحظى بقبول شعبى عام ، وكان الناس يحبونه ويتعاطفون معه حتى ولو لم يكونوا وفديين .

وكان (صلاح الدين) قد أعلن أن مصر لا تقبل منطق الأحلاف وإنها حريصة على استقلال إرادتها السياسية ، ووضع بذلك بذور فكرة عدم الانحياز ومبدأ الحياد الإيجابى .

وكانت الأمور كلها تتصاعد على نحو ينذر بقارعة .

ويبدو أن يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ كان هو يوم الموعد مع تلك القارعة .

مظاهرات الطلبة ... وتعطيل الدراسة فى الجامعة

منذ أن أعلن النحاس باشا إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١ ، لم تعرف الجامعات فى مصر طعم الانتظام فى الدراسة .

وكانت كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول أكثر الكليات غليانا واضطرابا ، وكانت الدراسة ما تكاد تبدأ حتى يأتى من منطقة القنال من الأخبار ما يهيج المشاعر والخواطر ، ويدعو الطلبة إلى التظاهر . فإذا انتقلت موجة المظاهرات من كلية إلى كلية ومن جامعة إلى جامعة - ولم يكن هناك يومئذ إلا جامعات أربع - جامعة فؤاد ، وجامعة ابراهيم في القاهرة ، وجامعة فاروق الأول بالاسكندرية ، وجامعة أسيوط - عمدت الحكومة إلى إيقاف الدراسة بالجامعات ، بل إن الحكومة اضطرت فى تلك الفترة إلى إيقاف الدراسة فى بعض المدارس التى جمح فيها شعور التلاميذ واقتدوا بطلاب الجامعات .

وكان صاحبنا بحكمْ اتصاله بكتيبة محمد فريد ، وبحكم عضويته فى الاتحاد ، وبحكم توجهه السياسى بصفة عامة فى بؤرة الأحداث الطلابية ، وكانت الموجة الوطنية عارمة بحيث اقتلعت الجميع من اهتماماتهم الخاصة - سواء منها ما تعلق بالدراسة أو بغيرها .

وكان «فتحى رضوان» بعد انضمامه إلى الحزب الوطنى ، يعتبر نفسه هو الوارث الحقيقى لمصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان يكتب مقالات من نار فى اللواء الجديد ، وكان يجتمع بشباب الحزب ، وكان هو و«فتحى و عبدالعزيز» من الذين يحرصون على تلك الاجتماعات ولا يتخلفون عنها ابدا .

والواقع أن الغليان الشعبى لم يكن فى حاجة إلى أحد يحركه ، كانت الأخبار التى تأتى من مدن القنال تستفز مشاعر الناس كل يوم .

فى هذا اليوم يسقط شهيد من الجامعة ، وفى اليوم التالى يسقط شهيد من الفلاحين الأبرياء ، وقد يكون ذلك الشهيد رجلا أو امرأة أو طفلا .

وكان يريح خواطر الناس بعض الشئ أن يعرفوا أنه لم يكن يمر يوم أو بضعة أيام ، إلا ويسقط عدد من جنود «الحليفة» قتلى أو جرحى.

وزاد التوتر بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية ، واضطرت الحكومة المصرية إلى أن تعلن إلغاء الامتيازات التى كانت ممنوحة لقوات «الحليفة» فى منطقة القنال ، ومنها ما كانت تتمتع به من إعفاء جمركى على ما تستورده من احتياجاتها وردت القوات البريطانية على إلغاء هذا الإعفاء بأن استولت على جمرك بورسعيد مما اعتبرته الحكومة المصرية عدوانا صارخا على سيادتها .

وكان الطلبة يتلقون هذه الأخبار فتزيدهم اشتعالا وحماسا وسخطا على الوجود البريطاني في مدن القناة ، وكان ذلك كله يؤدى إلى زيادة الإقبال على كتائب الفدائيين والتى كان من أهمها كتيبة «البطل أحمد عبدالعزيز» وكتيبة الزعيم الشهيد «محمد فريد» ، وكان معروفا أن بعض ضباط القوات المسلحة سواء منهم من كان فى الخدمة أو كان على التقاعد يقومون بتدريب الفدائيين ومساعدتهم ، بل ومدهم ببعض الأسلحة الصغيرة فى بعض الأحيان.

وبقدر ما كانت بريطانيا تتمادى فى تصرفاتها الهمجية ، بقدر ما كان السخط الشعبى يتزايد وحماس الجماهير يوشك أن يخرج عن كل محظور .

ولا يزال صاحبنا وكثيرون من أبناء جيله يتذكرون ما حدث بالنسبة لقرية «كفر عبده» ، وهى من القرى القريبة جدا من مدينة السويس ، حتى أنها لتعتبر جزءا منها ، وكان البريطانيون يعتقدون أن عددا من الفدائيين الذين يقضون مضاجع قواتهم يختبئون فى بعض منازل «الكفر» ، وتذرع البريطانيون بأنهم يريدون إقامة طريق يربط بين مواقع قواتهم ، و أن إقامة هذا الطريق لابد وأن تمر بكفر عبده ، وأن الأمر يقتضى إزالة منازل الكفر كله عن بكرة أبيها .

ووجهت القوات البريطانية إنذارا إلى محافظ السويس تطلب فيه إخلاء منطقة كفر عبده إخلاء كاملا تمهيدا لإزالة مبانيها من الوجود.

ولم يكن فى وسع المحافظ أن يتحمل وحده مسئولية الرد على مثل هـذا الإنذار ، فرجع إلى الحكومة فى القاهرة التى طلبت منه أن يرفض الإنذار البـريطـانى ، وأن يقـاوم قـوات الاحـتـلال بكل مـا يسـتطـيـعـه وبكل مـالـديه . والواقع أنه لم يكن لديه - بالقيـاس إلى القوات البريطانية - شئ ذو بال .

ولكن المحـافـظ مع ذلك أبلغ قـائد الحـامـيـة البريطـانيـة رفـض الإنذار . وتصاعد الموقف بعد ذلك تصاعدا خطيرا ، واجتمع مجلس الوزراء فى منـزل النحـــاس باشــا ، وأصـدر بيـانا برفـض الإنذار البـريطـانى ، ولم يكن فى الواقع يملك غـيـر ذلك ، وكـان ذلك يـوم الجمـعـة ، وكانت مدينـة السـويس قـد عزلت تماما عن بقيـة مـدن القطر وقطعت عنها المواصلات بكل صورها .

ورأى عقـلاء المدينة أن المقـاومة تعني شيئا واحدا هو هدم مدينة السـويس كلها ، وإبادة أهلها وأنه لا سبيل أمامهم إلا إخلاء كفر عبده وتركه أمام المستعمرين السفاحين ، وبالفعل خرج الناس من مساكنهم بليل ، وحملوا بعض ما استطاعوا حمله وتركوا «الكفر» ينعى من بناه .

ونفذ القائد البريطانى الإنذار وتقـدم بجـحافل من الجنود المشاة والدبابات والسيـارات المصفحـة ، وهدم منازل الكفر عن بكرة أبيـها ، وأشـعل فـيـهـا النيران ، ولم تكن الحكومة تحاول أن تخفى شيئا عن الشعب ، وكانت الإذاعـة والصـحافة تذيع البيانات والإنذارات وردودها ساعة بساعة ، وكان الهياج الشعبى فى القاهرة والمدن الأخرى يصل

إلى أقصاه ، ولم يكن الشعب يملك غير التظاهر والهتاف بسقوط الإمبراطورية وضرورة استمرار الكفاح .

وكان طلبة الجامعة وصاحبنا وزمرته بينهم ، يجوبون شوارع القاهرة هاتفين بسقوط الاحتلال ورفضه وتحميل بريطانيا مسئولية ما حدث ، وأبرقت لجان الطلاب برقيات إلى كل من اعتقدت أنه قد يصيخ السمع أو يستجيب لهم .

ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل بدأت تنحو مناحي أخرى .

أعلنت بريطانيا عزل منطقة قناة السويس بمدنها الثلاث الرئيسية ، ووضعها تحت القيادة العسكرية البريطانية ، وبدأت تمارس سلطات فعلية في مواجهة الناس العاديين وأبعدت بعض المواطنين ممن ظنت أنهم يأوون الفدائيين ، بل وأبعدت بعض ضباط الجيش وضباط البوليس بحسبانهم غير مرغوب فيهم ، وغير مسموح ببقائهم هناك .

وردت الحكومة المصرية بسحب السفير المصرى من لندن ، وكان الغليان يتصاعد ويصل إلى ذراه فى كل مكان ، واختار الملك فاروق تلك اللحظات العصيبة ليصدر مرسوما ملكيا بتعيين «حافظ عفيفى باشا» رئيسا للديوان الملكى ولم يأخذ الملك موافقة الوزارة على هذا التعيين كما يقضى الدستور .

ورغم مواقف الوفد السابقة والحاسمة فى مثل هذه القضايا بضرورة عدم انفراد الملك بأى شأن من شئون الحكم ، إلا أنها غضت الطرف عن تصرفات الملك هذه المرة .

وكان الملك يشعر بالزلزال الذى يوشك أن يعصف بكل شئ .

وكانت الوزارة بدورها تحس بمدى عجزها فى مواجهة قوات الاحتلال ، وكانت تريد الكفاح الشعبى أن يستمر ، لكن فى الحدود التى تستطيع هى أن تمسك بزمامها .

لم تكن الرغبة فى المقاومة الشعبية الحقيقية الشاملة موجودة، ولعل الحكومة كانت تدرك من حقائق الواقع مالم يكن الشباب يدركه آنذاك فى اندفاعه وثورته .

وخرج صاحبنا وزملاؤه فى جامعة فؤاد يهتفون «يسقط عفيفى وحافظ عفيفى» وكان الهتاف يحمل تورية واضحة . كان رئيس الديوان الجديد صديقا قديما للانجليز ، وكان مكروها من الشعب وخرج الطلاب يهتفون بسقوطه ، وكان الرجل اسمه حافظ عفيفى، وكان هتاف الطلاب يقول يسقط عفيفى .. وحافظ عفيفى ، وكانوا يعنون كما هو واضح أن الملك هو «حافظ» عفيفى .. وكان الهتاف يعنى بذلك سقوط الملك وسقوط رئيس ديوانه معا .

ولم تكن المرة الأولى التى يهتف فيها بسقوط الملك فى الجامعة التى كانت تحمل اسم ابيه ، بل سبق ذلك أن هتف بسقوط الملك عدة مرات بل وانتزعت صورته من مكتب مدير الجامعة وداس عليها الطلبة بالأقدام.

والواقع أن الملك فاروق كان قد فقد كل اعتبار له ، فقد اعتباره كمصرى ، وكملك ، بل وفقد اعتباره كإنسان لكثرة ما أشيع عن فساده المالى والنسائى ومباذله ومغامراته التى لا تنتهى .

ورغم أن الحكومة كانت تعرف قادة المظاهرات من الطلاب ، فإنه مما يذكر لها أنها لم تكن تقبض على أحد منهم . وكانت إذا قبضت على بعضهم ، أفرجت عنهم النيابة أو القضاء فى الأيام القليلة التالية .

ولم يتعرض صاحبنا للقبض عليه رغم أنه لم يكن وفديا ، ورغم أن دوره لم يكن منكورا فى الحركة الطلابية .

ومازال صاحبنا يذكر كيف ركب الصعب وهو تلميذ صغير فى المدرسة الثانوية ، يوم وقعت حادثة القصاصين . وقيل يومها إن الملك فاروق أصيب فى حادث سيارة ، وكيف سارت الحشود والوفود والمواكب إلى تلك القرية من قرى مديرية الشرقية تهنئ الملك بسلامته ، وتلتف حوله وتفتديه - ومازال صاحبنا يذكر ذلك الذى حدث فى أوائل الأربعينيات ثم يذكر ما حدث فى ديسمبر ١٩٥١ - بعد أقل من عشر سنوات - من هتافات بسقوط فاروق ومن تحطيم صورته ومن ازدرائه وكراهيته من كل فئات الشعب .

كيف يستطيع بعض الناس أن يبددوا ما بأيديهم من ثروات حقيقية مثل هذا التبديد !!

ولما تصاعدت المظاهرات ولم تتوقف ، وازداد الهجوم على الملك بين طلاب الجامعات بخاصة وطوائف الشعب بعامة ، أمرت الحكومة بإغلاق المدارس والجامعات من جديد . والحقيقة أن الجامعة ما كانت تكاد تفتح أبوابها حتى يصدر الأمر بإغلاقها من جديد فى محاولة لتهدئة الحركة الطلابية العارمة .

ولم يفلح إغلاق الجامعة فى تهدئة النفوس . وظلت المظاهرات تطوف شوارع العاصمة ، رغم ذلك يشارك فيها الطلاب والعمال والموظفون وغير ذلك .

ورغم هدم كفر عبده ، ورغم فرض الحكم العسكرى البريطانى على مدن القناة ، فإن حركة الفدائيين لم تخمد ، وظلت بنادقهم تصيد الجنود الانجليز واحدا بعد الآخر ، واستطاعت قنابلهم أن تفجر بعض الأماكن والمعسكرات . ولم يكن مقصودا إلا إقلاق جنود الاحتلال ، وقد استطاعت الحركة الفدائية والكفاح الشعبى أن يبلغا من ذلك كله مبلغا ليس هينا .

وفى آخر يوم من أيام عام ١٩٥١ ، أعلن القائد البريطانى إعلانا خطيرا جاء فى نهايته «إنه لخطأ كبير أن يتخيل أى إنسان أن أعمال الضغط والإرهاب وما يتلوها من نتائج تؤثر بأى شكل من الأشكال فى عزمنا ، وإذا اقتضت الضرورة فإننا سنستمر فى أعمال المقاومة شهرا فى أثر شهر ، بل ولشهور عديدة إذا احتاج الأمر وسنقابل القوة بالقوة، ولن نغير سياستنا نتيجة للإرهاب» .

وهكذا كانوا منذ زمن بعيد يسمون مقاومة الشعوب المستعمرين إرهابا وما هى بإرهاب : إن هى إلا حق مشروع .

وكان ذلك البيان البريطانى كالزيت الذى ألقى على نار حامية فزادها ثورة واشتعالا .

وبعد هذا الإنذار بأيام قليلة نشبت معركة يومى ٣ و٤ يناير ١٩٥٢ بين جنود الاحتلال وقوات المقاومة فى مدينة السويس ، وأطلقت قوات الاحتلال النار على الجماهير الشعبية بغير تمييز ، ورغم عدم تكافؤ الجانبين من حيث القوة العسكرية ، ومن حيث التنظيم ، فإن المعركة الضارية أسفرت عن خمسة من الشهداء المصريين ، وعن مصرع خمسة وعشرين من جنود الاحتلال بخلاف جرحى كثيرين فى الجانبين .

وطوال شهر يناير من عام ١٩٥٢ ، لم يكن يمر يوم بغير معركة هنا أو هناك وبغير استشهاد واحد من الفدائيين ، أو سقوط جندى بريطانى .

وأصبح واضحا أن الأمور تسير نحو طريق لا رجعة فيه ، ولا أمل فى استقرار لقوات «الحليفة» .

وحدثت فى تلك الفترة موقعة «التل الكبير» ، التى استشهد فيها عدد من الفدائيين ، وقتل فيها عدد من الجنود ، وانتهت باحتلال الجنود البريطانيين لمدينة التل الكبير ، ومثل ذلك عدوانا جديدا وتصعيدا خطيرا .

ولم يكن صاحبنا يهدأ ليلا أو نهارا ، وكان ممزقا بين رغبته فى الحفاظ على تفوقه العلمى من ناحية ، واندفاعه للقيام بدور ولو محدود فى الحركة الطلابية وفى الكفاح ضد قوات الاحتلال من ناحية أخرى .

وفى ١٦ يناير أعلن القصر الملكى ولادة الأمير أحمد فؤاد ابنا للملك فاروق من زوجته الثانية – ناريمان – التى لم تستقبل من الشعب استقبالا طيبا – وإعلانه وليا للعهد .

وقد جاء ذلك الميلاد فى أسوأ وقت يمكن أن يجئ فيه . واستقبل أسوأ استقبال يمكن أن يستقبل به مولود أيا كان .

وطافت المظاهرات فى الجامعات وفى الشوارع ، تهتف بسقوط الملك وسقوط ولى عهده وسقوط الملكية كلها ، وسقوط من يقفون وراء الملك يحمونه ، سواء كانوا من الداخل أو من الخارج .

وأدرك الناس أن الخلاص من الملك والخلاص من الاحتلال الانجليزى أمران قد يكونان متلازمين .

ولم تهدأ مظاهرات الطلبة والجماهير منذ إعلان ميلاد ولى العهد يوم ١٦ يناير . ولم تكن هادئة قبل ذلك التاريخ ولا بعده .

وزاد التوتر فى كل مكان ، ويبدو أن مدينة الاسماعيلية كانت فى تلك الفترة هى بؤرة التوتر بين قوات الاحتلال وأهل تلك المدينة الباسلة .

وبعد أن كان قد تقرر منع تجول الجنود البريطانيين فى المدينة سمح لهم بذلك ، وتكرر الصدام بينهم وبين الناس ، بل إن الدبابات البريطانية والسيارات المصفحة كانت تجوب شوارع المدينة الرئيسية ، وتحتل بعض المواقع الرئيسية فيها .

واقتربت الأزمة من ذروتها .

وفى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من يناير ١٩٥٢ ، احتشدت قوات كبيرة من الجيش البريطانى حول مبنى محافظة الاسماعيلية ، ووجه قائد تلك القوات إنذارا إلى المسئولين بالمحافظة ، طلب فيه أن تقوم كل قوات البوليس الموجودة فى مبنى المحافظة أو حولها وخارجها

بتسليم أسلحتها إلى القوات البريطانية ، وأن تجلو عن دار المحافظة وعن الثكنات الموجودة فى المدينة فى الساعة السادسة صباحا من يوم الجمعة ، وأن ترحل عن منطقة القناة بأكملها .

واتصل المسئولون فى المحافظة بالحكومة فى القاهرة . وكانت التعليمات مشددة برفض التسليم وبالمقاومة حتى آخر طلقة رصاص فى جعبة الجنود .

وقد كان . ودارت معركة رهيبة غير متكافئة ، وبذل الجنود البواسل أرواحهم فى سبيل بلدهم ، وقاوموا ببسالة وضراوة ، وسقط منهم من سقط شهيدا ولكنهم لم يتركوا الأوغاد دون أن يكبدوهم خسائر وضحايا .

وانتهت المعركة نهايتها الطبيعية باستيلاء جنود الاحتلال على مبنى المحافظة ، بعد أن نفدت آخر طلقة فى يد الرجال البواسل .

وهكذا أصبح يوم ٢٥ يناير يوم عيد بالنسبة لرجال الشرطة فى مصر ، ولعل كثيرين من الأجيال الجديدة لا يعرفون سر الاحتفال بهذا اليوم المهيب .

وفى الوقت الذى كان ذلك يحدث فى الاسماعيلية ، كان الملك فاروق يقيم مأدبة غداء لكبار ضباط الجيش والشرطة احتفالا بمجئ ولى عهده.

وبلغ الحنق والسخط الشعبى بعد أن وصلت أنباء ما حدث فى الاسماعيلية غايته ، ورأى الشعب تصرفات الملك فلم يطق عليها صبرا ، وبدا كما لو أن تمردا عاما فى قوات البوليس فى مصر كلها سيبدأ

مسيرته احتجاجا على ما كان فى الاسماعيلية . وبدأ ذلك فعلا فى مطار القاهرة فى فجر اليوم التالى لأحداث الاسماعيلية . وكان الملك على مائدته هو وبعض حاشيته عندما كانت القاهرة تتحول كلها إلى حريق هائل ورهيب .

وكان ذلك يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

حريق القاهرة يناير ٥٢ ..
وأنفاس فجر جديد

كان يوم سبت . وكانت الدراسة قد عادت فى الجامعات بعد فترة من التعطيل . وكان كل شئ فى مصر وفى القاهرة يبدو متوترا قلقا مشدودا . ورغم أن كل النذر كانت تقول أن قارعة على وشك الوقوع فإن الدكتور طه حسين رفض أن يصدر قرارا بمد تعطيل الدراسة فى الجامعات . وعادت الدراسة فعلا صبيحة ذلك اليوم المشهود . عادت الدراسة ولكنها لم تعد بطبيعة الحال . كانت انباء ما حدث فى الاسماعيلية على كل لسان، وكان الغضب الشعبى العارم قد بلغ ذروته . وخرج عساكر بلوكات النظام من مقارهم فى شبه عصيان واتجهوا نحو جامعة القاهرة وهناك اختلطوا بطلبتها وتوجهت مظاهرات مشتركة لأول مرة فى تاريخ مصر كلها – ولعلها آخر مرة تحدث فيها أيضا – بين الطلبة وأفراد البوليس تهتف بسقوط الانجليز وبضرورة الانتقام .

واشترك الشعب كله فى تلك المظاهرات العارمة . وفى ميدان ابراهيم – ميدان الأوبرا الآن – اندلعت أول شرارة فى أول حريق فى كازينو صفية حلمى . وصعدت ألسنة اللهب، وانتقل الحريق من مكان إلى مكان. وصل إلى فندق شبرد القديم أحد أرقى وأقدم فنادق العالم الحديث آنذاك. ثم أشعل المتظاهرون الحريق فى كثير من مكاتب

الشركات الأجنبية وكثير من المحلات . وكان طبيعيا أن يشعل المتظاهرون الحريق فى ناد كان يرتاده الانجليز أساسا اسمه «ترف كلب» فى منطقة نصف البلد بين شارعى عدلى وعبدالخالق ثروت ، وانتقلت الحرائق من جهة إلى جهة حتى أصبح وسط القاهرة كله شعلة من نار .

وكان الملك على مائدة الغداء مع كبار ضباط الجيش وكبار ضباط البوليس وأنباء الحريق تتوالى .

وفى ذلك اليوم السبت السادس والعشرين من يناير ١٩٥٢ كان طلبة السنة الرابعة فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول يتلقون محاضراتهم بعد الظهر. كان عندهم محاضرة فى القانون التجارى، وكان استاذهم هو المرحوم الدكتور أمين بدر. وكان الطلبة فى الجامعة بعضهم من أجل المظاهرة وبعضهم من أجل المشاهدة، وكلهم مستثار مشدود الأعصاب ، فأنباء الحريق تصل إليهم متضاربة، والمواصلات فى العاصمة قد توقفت تماما .

ومازال صاحبنا يذكر كيف وقف فى المدرج خطيبا يحدث الطلاب عن الحركة الفدائية فى القنال وعما حدث فى مدينة الاسماعيلية صباح اليوم السابق وعن استشهاد رجال البوليس فى ذلك اليوم العظيم الذى أصبح عيدا لهم . وخرج الطلاب لأن الأستاذ لم يكن قد حضر بطبيعة الحال - خرج الطلاب إلى حرم الجامعة وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله وأخذت جحافل الطلاب تخرج بعضها أثر بعض والترقب يلف الناس جميعا .

ومازال يذكر أنه خرج هو و «فتحى» واتجها إلى النيل ثم سارا إلى حيث كوبرى «بديعة» والناس كلها فى ذهول من هول ما حدث وألسنة الدخان تتصاعد من وسط القاهرة وتصل إلى الناس على الضفة الغربية من النيل فى الجيزة . وظلا سائرين ينظران فى وجوه الناس كما ينظر الناس إلى وجهيهما ، وعبرا الكوبرى - كوبرى بديعة - ثم كوبرى قصر النيل إلى ميدان الاسماعيلية ثم إلى وسط القاهرة . وقادتهما أرجلهما إلى مكتب «على منصور» .

وقد كان على منصور واحدا من أقطاب قيادات شباب الحزب الوطنى . وكان قريبا من حافظ رمضان، ولم يكن فى ثورية فتحى رضوان ، ولكنه كان على العكس أقرب الى رقة الفنان منه إلى ثورية الثائر . كان على منصور مهذبا وكان رقيقا وكان دائم الابتسام . وكان يبدو لهم كما لو كان قادرا على أن يفعل أكثر من شئ فى وقت واحد . قادته رجلاه هو وفتحى إلى مكتب على منصور فى شارع عبدالخالق ثروت، وكانت الحرائق قد خمدت فى أغلب الأماكن وإن كانت آثارها من الدخان مازالت تتصاعد فى سماء العاصمة .

ولم يجدا عند على منصور ما يشفى فضولهما أو ما يفسر لهما شيئا مما حدث، وجداه حائرا كحيرتهما حزينا كحزنهما مترقبا ماذا سيحدث فى الساعات المقبلة شأنه فى ذلك شأنهما و شأن كل المصريين.

وكان الجيش قد نزل إلى شوارع العاصمة وأعاد إليها الهدوء المفقود . ويبدو أن السلطات حرصت على ألا ينزل الجيش إلى الشوارع

إلا بعد أن أخذت جذوة الحرائق فى الانحسار ، وإلا بعد أن أصاب الناس الارهاق من جراء يوم عبوس قمطرير . وسمعا فى طريقهما إلى شبرا حيث كانا يسكنان، إعلان الأحكام العرفية، وإعلان منع التجول فى شوارع العاصمة . و لما وصل إلى منزله استقبلته أمه جزعة وأخذته فى حضنها وهى تغالب البكاء .

وقضى صاحبنا ليلة قلقة صاحبته فيها كوابيس تزيد من القلق وتقض المضاجع .

وفى الصباح أعلن أن الدراسة فى الجامعات قد عطلت من جديد ، ولم تكن عادت الا ليوم واحد هو ذلك اليوم المشهود، يوم حريق القاهرة.

وبعد أن أعلن النحاس باشا الأحكام العرفية، وأمر بمنع التجول، عاجله الملك فاروق بخطاب اعفائه فى اليوم التالى مباشرة يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ وفى ذلك اليوم أسدل الستار على فصل من أروع فصول كفاح الشعب المصرى، وبدأت مسيرة جديدة من الاضطراب والقلق والانحدار.

وكلف الملك على ماهر بتشكيل الوزارة وقد كان على ماهر يبدو فى نظر الكثيرين هو المنقذ من الأزمات، ولم يأخذ الوفد من وزارة على ماهر موقفا معاديا ، وكان ذلك نوعا من مداراة القصر وعدم مجاهرته بالعداء .

وعادت الدراسة إلى الجامعات بعد فترة ،وبدا كما لو كانت الجذوة الوطنية قد خمدت إلى حين، وعاد صاحبنا إلى محاضراته وكتبه بعد انقطاع طال منذ بداية العام.

كان يعتز بأنه ليس أسير الكتب والمحاضرات فقط وأنه بالاضافة إلى ذلك يشارك فى الحياة العامة وتشغله أمور بلده ويعيش قضاياها . وكان ينظر إلى زملائه أولئك الذين لا هم لهم إلا المذاكرة وتحصيل العلم نظرة فيها غير قليل من التناقض. إنه يخشى من تفوقهم عليه ، وأنه يحس أنه فى أعماقه يقوم بما لا يقومون به من اهتمامات عامة. ومع ذلك فقد كانت تجمعه بهذه المجموعة من الطلاب المتقدمين علائق طيبة على ما كان فيها من مشاعر المنافسة والغيرة والرغبة فى التفوق على الاقران . كان «القشيرى» زميله منذ السنة الرابعة الابتدائية، وكان القشيرى يمتاز من الطلاب جميعا بأدبه الشديد وبأناقته . كان فى كل يوم يلبس «بدلة» غير بدلة الأمس . وكان الوحيد بين الطلاب المتقدمين الذى يركب سيارة خاصة به . وكان من سكان الزمالك على النيل . وكان لا يشغل نفسه بشئ غير المذاكرة والدراسة. وكانت بعض فتيات الدفعة يخطبن وده ويتقربن إليه، وكان هو ودودا مع الجميع حريصا على أن لا يضيع وقته فيما لا طائل وراءه .

أما «نور» فقد كان أكثر تكالبا على الدراسة وكتابة كل كلمة ينطق بها أى أستاذ من الأساتذة وكان ينظر إلى أولئك الذين ينشغلون ببعض الأمور العامة نظرة فيها غير قليل من السخرية .

وكان «أسامة» يرقب كل شئ من بعيد . وكان حريصا على أن لا يدخل فى دوامات «الشلل» كما كان حريصا أيضا على أن لا يلفت إليه

الأنظار . كان هادئا ، وكانت علاقاته محدودة ، وحتى مغامراته العاطفية كانت مكتومة لا يعرف بها أحد ولا يتحدث عنها مع أحد .

وكان «يحيى» زميله فى «السكشن» وكانا قريبين من بعض وكانا يتندران على الزملاء الآخرين ، وكان «يحيى» معرضا عن الحياة العامة أيما إعراض ، وكان يحمل قلبا صادقا ونفسا ساخرة .

وكان هناك كثيرون غير هؤلاء من الطلاب الذين يتنافسون على المراكز الأولى فى الدفعة أو من الطلاب الذين يتنافسون على قلوب الفتيات القليلات بالنسبة لأعداد الطلبة .

وكانت بين الفتيات واحدة هى بنت نائب رئيس محكمة النقض وكان «باشا» بحكم منصبه ، وكان رجلا محترما ويشارك فى الامتحانات الشفوية التى كان الطلاب يجتازونها فى تلك الأيام حتى يقدر لهم النجاح ، وكانت ابنته مثالا للطالبة التى تحافظ على وضعها بين زميلاتها وزملائها ، وكانت متفتحة بغير تبجح ، وقد صارت بعد ذلك واحدة من أنجح الصحفيات وصارت رئيسة تحرير احدى المجلات النسائية المهمة فى ذلك الزمان أو فى الواقع أهم تلك المجلات فى وقتها .

وكان هناك آخرون فتيانا وفتيات ، وقد بقى بعضهم فى الذاكرة عالقا ، وذهب الكثيرون فى زوايا النسيان .

وبعد حريق القاهرة كانت الحياة العامة مضطربة أشد الاضطراب قلقة أشد القلق وكان الناس يتوقعون أن يحدث أى شئ من أى اتجاه .

وكان «سعد» قد دخل الكلية الحربية بعد التوجيهية ، وكان يسكن قريبا من جامع الخازندار ، وكان قد تخرج وأصبح ضابطا وصاحبنا مازال فى كلية الحقوق ، وكان يلقاه أحيانا فى الشارع أو فى صلاة الجمعة أو عند بائع عصير القصب عند دوران روض الفرج ، وكان يحدثه أحيانا وأنه ليذكر أنه قال له ذات ليلة : لم يعد هناك أمل فى شئ ، لم يبق إلا أن يفعل الجيش شيئا ، ومن يومها كان سعد إذا رآه تحاشاه وذهب إلى طريق غير الطريق .

ولم يبق على ماهر فى الوزارة غير شهر و بعض شهر وقدم استقالته فى مارس، وكلف الملك أحمد نجيب الهلالى باشا بتشكيل الوزارة . وكان الهلالى باشا من أركان حزب الوفد ولكنه خرج عليه . وكان الرجل قانونيا ضليعا ، وكان معروفا بنزاهته وإستقامته ولكن يبدو أن تلك لم تكن هى المقومات المطلوبة . استمر الهلالى فى الوزارة بضعة أشهر ثم استقال وجاء بعده حسين سرى ؛ وكان مهندسا قديرا ، وكان معروفا بأنه من رجال الملك المقربين . ولم يبق حسين سرى بدوره إلا أقل من شهر . وكان الجميع يدركون أن زلزالا يعتمل فى احشاء مصر وأنه قد آن الأوان لهذا الزلزال أن يثور .

وكانت السنة الجامعية تقترب من نهايتها والطلاب لا هم لهم إلا تحصيل العلم استعدادا للامتحان ، وكان صاحبنا من ناحيته يحاول أن يعوض ما فاته من وقت اضاعه فى المشاركة فى الحياة العامة التى كانت صاخبة ، ومع ذلك فإنه مازال يذكر أنه كان يكره السهر وكان

حريصا حتى فى الأيام الأخيرة من السنة على أن يكون فى سريره فى الساعة الحادية عشرة مساء ، وكان «فتحى و عبدالعزيز» يتندران عليه اذ يودعانه كى ينام ويستأنفان هما المذاكرة .

وجاءت أيام الامتحان . وكان الامتحان على أيامهم يجرى تحريريا فى كل المواد ويجرى شفويا فى ثلاثة منها .

وكانت مادة القانون التجارى من المواد التى يمتحن فيها الطلاب شفويا إلى جانب الامتحان التحريرى .

وكان صاحبنا يحب أستاذ المادة وحببه ذلك فى المادة نفسها حتى أنه اتقنها اتقانا واستعد لامتحانها ايما استعداد . وعندما دخل امتحان الشفوى كانت اللجنة مشكلة من أحد نواب رئيس محكمة النقض - وكانوا آنذاك لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة إن لم يكونوا أقل - ومن الأستاذ الدكتور محسن شفيق . ومازال صاحبنا يذكر بعد أن انتهى من امتحان الشفوى أن الدكتور محسن قال له أنك أحسن طالب امتحنته فى الجامعتين ؛ يقصد جامعة فاروق بالاسكندرية وجامعة فؤاد.

وعرف من الدكتور أمين بدر بعد ذلك أن اللجنة قد أعطته تقدير «امتياز» فسر لذلك سرورا شديدا . ولكن يبدو أن اللجنة أخطأت خطأ مادياً إذ رصدت درجة صاحبنا لزميل آخر له لم يحصل قط فى حياته الجامعية على درجة امتياز فى أى علم من العلوم .

ولم يكن إلى اصلاح هذا الخطأ من سبيل .

أعلنت النتيجة يوم ٢٣ يوليو

وتوفي عميد الكلية يوم ٢٣ يوليو .

وتحرك الجيش لكى يغيـــر وجه الحياة فى مصر يوم ٢٣ يوليه .

وسمع صاحبنا كما سمع غيره أن الجيش قد تحرك لكى ينقذ البلاد من الفساد ولكى يحمى الدستور من العبث .

وفى يوم ٢٦ يوليو تنازل الملك فاروق عن العرش لابنه وغادر البلاد .

وبدأت مصـــر كلها فصـــلا جـــديدا خطيرا من تاريخها الطويل .

وكان صاحبنا فى قريته بعد أن انتهى من الامتحانات ولكنه جاء إلى القاهرة يوم إعلان النتيجة ويوم أن مات العميد، وقامت حركة الجيش التى عرفت بعد ذلك باسم الثورة .

ورغم أن حركة الجيش قد اسعدته سعادة غامرة كما أسعدت كل شاب أنذاك ، إلا أن سعادته انتقص منها أنه لم يكن من أوائل الدفعة الذين يمكن أن يعينوا فى الجامعة «معيدين» وكان ذلك حلم حياته الكبير الذى أحس أنه ضاع منه فى ذلك اليوم الخطير يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وبدأ هو أيضا – مع مصر كلها – مشواراً جديدا .

الثورة البيضاء

ترك القاهرة وهى تموج بأنباء «حركة الجيش» وخروج الملك واعتقال بعض كبار الضباط من الذين عرفوا بولائهم الشديد للملك، وترددت كثير من الروايات عن الملك وهو يوقع وثيقة التنازل عن العرش وكيف أن المستشار «سليمان حافظ» طلب منه أن يوقع أعلى الاقرار وأسفله .
ترك القاهرة وحوائطها قد ألصق عليها منشور كبير عليه صورة قبة البرلمان وإلى جوارها جندى يحمل سلاحه وكتب تحتها «نحن نحمى الدستور» ترك ذلك كله وعاد إلى قريته ولم يستطع الحدث الكبير الذى غير وجه الحياة فى مصر كلها أن يمحو ما فى قلبه من مرارة وألم نتيجة ما كان من أمر ترتيبه فى ليسانس الحقوق ، وأنه لم يكن من الاوائل الذين يمكن أن يقدر لهم أن يعينوا معيدين فى الجامعة على نحو ما كان يحلم ويأمل . لم يكن ترتيبه سيئا إلى هذا الحد ولكنه لم يكن ما يريد كان هو «وعادل» على قمة الحاصلين على درجة جيد ، وكان هناك اثنا عشر طالبا قد حصلوا على درجة جيد جدا، ولم يحصل أحد على امتياز . وكان قد قضى قرابة نصف العام مشغولا بالعمل العام يوشك أن لا يقرأ ولا يحضر ومع ذلك فقد استطاع فى الشهور السابقة مباشرة على الامتحان أن يبذل من الجهد ما أحيا لديه الأمل . ثم حدث ما حدث فى الامتحان الشفوى فى مادة القانون التجارى وترتب على

ذلك أنه لم يحصل على تقدير جيد جدا . كان حزينا مهموما ولم تستطع القاهرة بكل ما فيها من أحداث ضخام أن تأخذه من نفسه أو أن تخفف عنه ما أصابه ، وعاد إلى قريته لعله يجد فى هدوئها وبين أهلها ما لم يجده فى المدينة الصاخبة وانكب يكتب خطابا لأستاذه «أمين بدر» يذكر له ما حدث ويشكو إليه ويعبر عن مدى ما يعتصره من آلام .

وبعد أيام كتب خطابا آخر إلى الأستاذ «عبدالمنعم الشرقاوى» يحدثه فيه عن أحلامه التى ضاعت وآماله التى تبددت . وانتظر أسبوعا بعد أسبوع ولم يأته رد من أى من الاستاذين . لعلهما لم يتلقيا ما أرسله من خطابات على الكلية ! ذلك أن عطلة الصيف كانت قد بدأت . ولعلهما تلقيا رسالتيه ولم يجدا وقتا للرد عليه ، أو لعلهما قالا لنفسيهما هكذا الطلاب لا يرضون ويلقون بالمسئولية دائما على غيرهم يتصورون دائما أن هناك خطأ قد حدث، وأن هذا الخطأ هو السبب فيما أصابهم من خيبة أمل .

ومرت شهور الصيف ثقيلة ولم يكن يبدد رتابتها إلا ما تحمله الجرائد من أنباء الحركة المباركة وتنقلات قائدها اللواء «محمد نجيب» الذى فتن الناس فأحبوه حبا جما .

ولم يمض على قيام الحركة إلا شهران وبعض الشهر حتى كان قانون الإصلاح الزراعى الذى يحدد الملكية الزراعية ويغير شكل العلاقة بين المالك والمستأجر الزراعى قد صدر وأحدث فى الريف المصرى كله صدى عميقا .

ولم يكن هناك بد من أن يترك القرية وأن يعود إلى القاهرة ينتظر مع زملائه ماذا سيحدث وأى عمل سيجدون . وكانت المحاماة أحد أحلامه منذ كان صبيا يافعا ، لم يكن يحلم بغيرها وهو طفل صغير .

ولكن الوضع الآن ليس كذلك .

إن حلمه الكبير الذى يحتويه كله هو أن يلبس روب الاستاذية وأن يجلس على كرسيها وأن يلقى محاضراته على طلابه وقد تبدد الأمل وحل محله حزن عميق، ولم يكن هناك سبيل للاستسلام للألم والحزن. كان لابد للحياة أن تسير . وهكذا عاد إلى القاهرة وقيد اسمه فى سجل المحامين تحت التمرين وأقسم يمين المحامين تحت التمرين وأقسم يمين المحاماة أمام النقيب. وأحس أنه بدأ طورا جديدا من حياته ولكن إحساسا داخليا كان يقول له إنه طور مؤقت غير دائم .

وكان مكتب «على منصور» للمحاماة هو قبلة شباب الحزب الوطنى وكان «ماهر» هو مساعده الأول ، وكان هناك مع «ماهر» بعض شباب الخريجين وحفزه «ماهر» على الانضمام إلى المجموعة وذهب الشاب وقابل «على منصور» الذى استقبله بود شديد وابتسامة واسعة ووجه بشوش . وكان «على منصور» يملك مقدرة أن يشعرك أنك قريب منه بل أنك صديقه الوحيد، وكان يستطيع أن يطبع على وجهه مسحة من خجل لا مبرر له . وكان صوته فيه حشرجة جميلة و «بحة» معبرة .

وانضم إلى مكتب «على منصور» .

كان المكتب يقع فى شارع عبدالخالق ثروت فى قلب القاهرة فى عمارة من العمارات القديمة العريقة وكان المكتب فى البداية فى أحد الشقق الصغيرة فى العمارة ، كان عبارة عن حجرتين واحدة كبيرة يجلس فيها الاستاذ والأخرى يجلس فيها «ماهر» مستقلا بمكتب وفى الحجرة مكتب آخر يستعمله أكثر من «زميل» وكان هناك الكتبة والوكيل، وكان هناك «طرقة» طويلة يجلس فيها الموكلون ينتظرون دورهم فى مقابلة الأستاذ وكان عملاء مكتب «على منصور» خليطا من أهل الفن والسياسة وغمار الناس ، وكانت القضايا كثيرة بعضها صغير يحضر فيه هو وزملاؤه وبعضها كبير يحضر فيها الأستاذ بنفسه وقد يحضر «ماهر» فى بعضها .

كان مكتب «على منصور» هو مدرسة المحاماة الأولى بالنسبة له. وفيها تعلم الكثير .

وكانت حياته العاطفية خالية خاوية ، وكان الذى يشغله هو أمر مستقبله وكيف سيكون . هل سيستمر فى المحاماة ؟ إنه لا يظن ذلك . وإذا لم تكن المحاماة فما المصير. لم يكن هذا هو شأنه وحده وإنما كان شأن أبناء دفعته جميعا . لم يعين منهم أحد سواء فى الجامعة أو فى جهات القضاء المختلفة . كانت أجهزة الدولة كلها مشغولة بما هو أهم لديها من أمر هؤلاء الطلاب .

وأصبح واضحا الآن أن حركة الجيش لم تقم لكى تطرد الملك ثم تعيد للدستور هيبته وللحياة البرلمانية سيرتها الطبيعية ولحزب الأغلبية

حقه - أصبح واضحا أن حركة الجيش قد قامت لتبقى وأن الضباط الشبان رأوا أن كل العوائق تنهار أمامهم بسهولة وأن لا شئ يصرفهم عن الامساك بالسلطة والاحتفاظ بها .

وتحالف الضباط فى البداية مع تيار الأخوان المسلمين واختاروا منهم بعض الوزراء كان أبرزهم «الشيخ الباقورى» وبدأت الصحافة تتحدث عن «الثورة» وليس عن الحركة ، وبدأ البعض يقول إن «الثورة» هى محاولة التغيير الجذرى للمجتمع أيا كانت أداتها وأن حركة الجيش هى ثورة بيضاء من أجل تغيير المجتمع تغييرا جذريا ينصف الفقراء من الأغنياء ويواجه الاحتلال ويستعيد الارادة الوطنية ونسى الناس كلمة «الحركة المباركة وبدأوا يتحدثون عن ثورة ٢٣ يوليو» .

كان شباب الحزب الوطنى - حزب مصطفى كامل ومحمد فريد وفتحى رضوان يحسون أن الثورة قريبة منهم وأنهم قريبون منها ، وكان معروفا أن «سليمان حافظ» وهو من قدامى رجال الحزب الوطنى - وفتحى رضوان ونور الدين طراف من القريبين من رجال الثورة وممن يتمتعون بثقتهم .

وكان صاحبنا موزع النفس فهو قد قرأ «الدوس هكسلى» وأعجب به أيما أعجاب .

وهو قد آمن إيمانا عميقا أن الديمقراطية بما تعنيه من حق الشعوب فى التعبير عن نفسها واختيار حكامها وتعدد اتجاهاتها الحزبية والسياسية هى الصورة المثلى لنظام الحكم ولكنه من ناحية أخرى كان

يدرك أن مصر فى ظل نظام ديمقراطى من الناحية النظرية لم تتمتع بمزايا الديمقراطية فى العهد الملكى إلا قليلا أو أقل من القليل لم يكن يفتأ يقارن وكان يرضى أحيانا بما كان يجرى ، وكان ينتابه خوف عميق من ناحية أخرى إذا استمرأ «العسكريون» السلطة وابتعدوا يوما بعد يوم عن الحياة الدستورية .

وكان مازال فى مكتب «على منصور» وكل يوم يسمع هو وزملاؤه اشاعات عن قرب التعيين فى النيابة العامة بالنسبة لبعض أوائل الدفعة ثم يمر أسبوع وراء أسبوع ولا يحدث شئ ويواصل عمله فى المكتب يذهب إلى المحكمة سعيدا يوما وعلى كره يوما آخر ، يتعلم شيئا فى يوم ويحس أن وقته ضائع فى غير جدوى فى يوم آخر والفراغ العاطفى يزيد من قلقه واغترابه ورتابة حياته .

وكان يرى صور الفنانات فى المجلات ويرى بعضهن حين يحضرن إلى مكتب «على منصور» وكان معجبا بصورة للفنانة ديانا دربن رآها فى الصفحة الأولى فى مجلة من المجلات الحديثة الصدور - أنذاك - وكان معجبا أيضا بصورة فنانة مصرية تمتلئ صورتها بالحياة والرغبة والاثارة - ولا يذكر اليوم كيف عرف عنوانها ثم كتب لها خطابا يعبر لها فيه عن مشاعر الاعجاب، وكتب فى نهاية خطابه رقم تليفون مكتب «على منصور» ولم يكن لديه أى أمل فى أن الفنانة الكبيرة الجميلة ستعير خطابه انتباها ، ولكنه فوجئ ذات يوم وهو بمكتب «الأستاذ» يعرض عليه بعض العمل - فوجئ به يقول له إن الفنانة فلانة سألت عنه فى التليفون وأنه أخبرها أنه غير موجود .

وأفهمه الأستاذ أنه يعرفها جيدا شأنها فى ذلك شأن كثير من الفنانات المشهورات وأصابه حرج شديد كيف نسى عندما كتب لها رقم التليفون أن الاحتمال الغالب إذا فكرت فى طلبه أن «الأستاذ» هو الذى سيرد عليها .

●●●●

كان شقيقه قد عين فى إدارة قضايا الحكومة – كما كانت تسمى أنذاك – وكان موفقا فى عمله حفيا به ، وكان من بين أصدقائه صديق من أهل المنيا وكان له قريب يعمل فى مكتب محاماة افتتحه أحد مستشارى النقض السابقين ، وكان من المشهود لهم بالكفاءة والصرامة وقال له أخوه إنه سمع أن ذلك المستشار يريد محاميا شابا من خريجى الجامعة المحدثين يكون قادرا على كتابة مذكرات ودراسات قانونية فى بعض القضايا الهامة وأنه سيعطى أجرا لذلك المحامى يصل إلى عشرة جنيهات فى الشهر .

وتصادف أن حدثه أخوه فى هذا الأمر فى الوقت الذى حدثت فيه واقعة تليفون الفنانة المشهورة وما أصاب صاحبنا من حرج ومن «كسوف» ووجدها فرصة سانحة ، وقبل الانتقال حدث فى ذلك أولا «ماهر» ثم تحدث مع «الاستاذ» الذى شجعه على القبول مع إبداء الأسف لأنه سيترك مكتبه .

وكان الأمر مختلفا جدا فى مكتب المستشار السابق .. كان المكتب هادئا ، وكان أكثر اتساعا وأناقة فقد كان حديث الأثاث وكان يقع أيضا

فى قلب المدينة الكبيرة بالقرب من شارع «فؤاد الأول» وفى شارع عماد الدين وقد أصبح اسم الشارع الأول «شارع ٢٦ يوليو» وأصبح اسم الشارع الذى يقع فيه المكتب شارع محمد فريد .

وكان المستشار السابق صارم الوجه أقرب إلى العبوس قليل الكلام.

واستقبل الشاب الصغير بوجه يحمل كل امارات الجد ثم أذن له بالجلوس ، وقال له فى صوت عميق إن مواعيد المكتب أمر لا يجوز الخروج عليه ، إن عليه أن يحضر فى ساعة معينة وينصرف فى ساعة معينة وأن عمله الأساسى سيكون قراءة ملفات بعض الجنايات ، ومازال صاحبنا يذكر بعد أكثر من نصف قرن على هذا الحديث أن الرجل المجرب قال له «إياك أن تقرأ قضية مرة واحدة . اقرأ ملف القضية مرة ثم مرة ثم مرة وأنك واجد فى كل مرة شيئا جديدا ، وأنك مهتد فى كل مرة إلى ثغرة من الثغرات ينفذ منها الدفاع . وكان العمل فى المكتب قليلا . عدد من الجنايات فى الصعيد . وكان المكتب يقوم على الأستاذ ومعه أحد أقاربه من الصعيد ، وجاء صاحبنا إلى ذلك المكتب الذى يختلف اختلافا كاملا عن مكتب «على منصور» هناك كان يحس بجو عائلى وبعدم اغتراب ، وهنا الإحساس بالغربة والرهبة معا هما المسيطران .

●●●●

كان «عصمت» هو كبير شباب الحزب الوطنى. وفى منزل «عصمت» – ومكتبه فى نفس الوقت – تعرف إلى «رشاد مهنا» قبل الثورة وأصبح

«رشاد مهنا » بعد الثورة وصيا على العرش، ثم لما انتهت الملكية أرسل سفيرا فى موسكو . وكان لعصمت منهج خاص فى التفكير وفى الحديث يختلف تماما عن «ماهر» و«أحمد مجاهد» وكان منطق عصمت يعجبه ولكنه كان يحس أنه أقرب نفسيا إلى «ماهر» و«أحمد مجاهد» وكان يرى فيهما بساطة وتلقائية لا يجدها فى «عصمت» .

وكان «عصمت » قد ترك مكتبه الخاص وانضم إلى مكتب من أكبر مكاتب المحاماة آنذاك . كان صاحب المكتب ومؤسسه أحد الباشوات اليهود . إلا أنه كان مع ذلك مصريا صميما . وكان يعتبر أن قيام دولة إسرائيل والتى لم يكن قد مضى على قيامها غير بضع سنوات سيكون كارثة على يهود العالم وعلى يهود العرب بصفة خاصة .

وكان ذلك الرجل هو محامى الخاصة الملكية عندما كانت الملكية قائمة ، وكان محامى الشركة العالمية لقناة السويس ، وكان مستشارا لأكبر الشركات والبنوك الأجنبية العاملة فى مصر آنذاك ، واستمر هذا هو حال مكتبه حتى بعد أن قامت الثورة . وكان الرجل حريصا مدركا رياح التطور ، فضم إلى مكتبه أحد كبار رجال القضاء السابقين شريكا له وهكذا كان المكتب يعرف باسم الشريكين «مزراحى باشا » و «صفوت باشا» وكان فى المكتب العديد من المحامين الآخرين . كان المكتب مدرسة حقيقية للمحاماة ، ولكن على نحو مغاير تماما لما سبق أن رآه ، وكان عصمت يعمل فى المكتب وأخذ معه «فتحى» ثم أغراه هو أيضا بالانضمام إلى ذلك المكتب العريق .

وكان مازال على علاقة بأستاذه الدكتور «حسين خلاف» الذى رشحه للعمل فى الإدارة القانونية لاتحاد الصناعات قائلا له إن مستقبل مصر فى ذلك المكان - يعنى اتحاد الصناعات - ولم يفهم صاحبنا على وجه الدقة ما يقصده استاذه . فلما ذهب إليه يستشيره فيما عرضه عليه «عصمت» نصحه بالقبول بغير تردد .

وترك مكتب «حمزاوى» غير آسف وذهب إلى مكتب «مزراحى» .

ولم يقدر له أن يستمر فى مكتب «مزراحى وصفوت» غير أسبوع واحد أيضا .

ولكنه كان أسبوعا «كثيف الأثر» فى حياته .

أحبه صاحبا المكتب وقدراه ، وأحبهما هو بدوره ، أحب فى «مزراحى» حبه لمصر وحرصه عليها وعدم رضاه عن وجود إسرائيل - رغم يهوديته - وأحب فى «صفوت» بساطته وتواضعه .

ووزعت عليه قضية «قتل خطأ» ارتكبه سائق فى فندق سميراميس - القديم - لكى يقوم بتأجيلها . فلما ذهب إلى محكمة جنح قصر النيل وطلب التأجيل وفقا للتعليمات التى لديه رفض القاضى التأجيل وصمم على أن القضية صالحة للحكم فيها ،، وكان صاحبنا رغم أن التعليمات لديه هى بالتأجيل وحده دون غيره قد قرأ القضية بليل ورأى أنه لا صلة بين القتل وخطأ السائق، وأن السائق لم يخطئ وأن القتيل هو الذى اندفع من شارع جانبى بحيث لم يملك السائق مفاداته . وكان مازال حديث التخرج قريبا من العلم النظرى وأعد دفاعا جيدا . فلما رفضت

المحكمة الاستجابة إلى طلب التأجيل ترافع فى القضية واستمع إليه القاضى بانصات واهتمام ثم قال له بعد أن انتهى من مرافعته «طيب مانت كويس أهه» ومازال يذكر هذه العبارات التى نطق بها القاضى العظيم «بطرس زغلول» الذى أصبح بعد ذلك نائبا لرئيس محكمة النقض . وقال القاضى «الحكم آخر الجلسة» وانتظر حتى يسمع الحكم ولكن النطق بالأحكام تأخر عن الموعد الذى يتعين أن يعود فيه إلى المكتب فترك المحكمة وعاد .

ولما علم «الباشا» بما حدث ثار وعنفه على أنه قبل المرافعة بغير استعداد فلما روى له ما حدث وكيف أن القاضى رفض التأجيل رفضا مطلقا وأنه كان قد استعد فى الليلة السابقة لمثل هذه المفاجأة ، وأنه بنى دفاعه على عدم وجود رابطة سببية بين النتيجة التى حدثت «الوفاة» وتصرف السائق ، أنصت الباشا وبدا على وجهه بعض الاستحسان إلا أنه لم ينبس ببنت شفة .

وكان العمل فى المكتب ينتهى فى الساعة الواحدة لكى يبدأ فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان الباشا اليهودى والباشا المسلم كلاهما يسكن فى المعادى ، وكانا يغادران المكتب فى الساعة الواحدة تماما ويعودان فى الساعة الرابعة بغير دقيقة إلى الامام أو إلى الخلف .

وعاد هو فى الرابعة وخمس دقائق ووجد مدير المكتب - وكان يهوديا اسمه بنجامان - فى انتظاره لكى يقول له «مبروك - القضية أخذت براءة» فلما سأله هل أخبر الباشا قال إنه آثر أن يعلم الخبر منى مباشرة .

وفـرح الرجل أيما فـرح وأثنى على الشـاب ثناء أزال عنه «توبيخ» الصباح .

وفى اليوم التالى – وكان هو اليوم الأخير من الأسبوع الذى قضاه فى المكتب – أعلنت حركة التعيين فى النيابة العامة . وكان هو ضمن المعينين .

وهنأه زملاؤه . وهنأه «صفوت باشا» قائلا إنه يبدأ نفس بدايته وأنه يتـمنى له نهـاية أفـضل . وهنـأه «مـزراحى باشــا» قـائلا له إنك كنت تستطيع أن تكون محاميا كبيرا ولكن الشباب يحبون هذا الطريق – طريق السلطة والأبهة – وقبل أن يسلم عليه مودعا أعطاه شيكا بثلاثين جنيها . وكان ذلك المبلغ فى ذلك الوقت ثروة ضخمة اشترى منها بعض استعداداته لحياته الجديدة فى صعيد مصر فى النيابة العامة .

●●●●

وأصبح منذ ذلك اليوم «البيه وكيل النيابة» . وبدأ طورا جديدا من أطوار حياته .

كان والده أكثر الناس سعادة وفرحا بتعيينه فى النيابة العامة ، ذلك أنه من جيل ومن بيئة كانت توقر رجال القضـاء والنيابة توقيـرا شديدا . وكان وكلاء النيابة بالذات وخصوصا الذين يعملون فى الأرياف يتمتعون بجـاه وسلطان عظيـمين ولم يكن الرجل الطيب يخـفى سـروره بل كـان يعلنه إعـلانا ويحتفظ بجريدة الأهرام التى نشر بها القرار ويطلع عليه كل من يقابله ويريد إخباره بذلك النبأ السعيد .

أما أمه فكان فرحها أكثر تحفظا وصمتا ، وكان ذلك أقرب إلى طبيعتها التى تميل إلى الحزن أكثر من ميلها إلى الفرح من ناحية

ولكونها لا تدرك أهمية النيابة العامة وخطورة منصب وكيل النيابة من ناحية أخرى ، ولكنها مع ذلك كانت سعيدة بيقين لأن ابنها قد تحقق له بعض ما أراد . ولكنها مع ذلك كانت قلقة لأن ابنها الثانى سيسافر إلى الصعيد بعد أن سبقه أخوه ليعمل فى أسيوط وسبقته أخته لتعيش مع زوجها القاضى فى محافظة قنا .

وكان تعيينه فى نيابة سوهاج الكلية . كان البعض قد عين فى القاهرة ومنهم أسامة الباز ، وعين ثلاثة فى الصعيد : واحد فى أسيوط وهو فى سوهاج وثالث فى نجع حمادى . ويبدو أن التعيين والتوزيع التزم درجات الخريجين التزاما صارما فقد جاء ذلك التعيين بعد شهور قليلة من قيام الثورة .

وذهبوا لمقابلة النائب العام لكى يسمعوا التوجيهات التقليدية التى يسمعها أو التى كان يسمعها ويأخذها مأخذ الجد من كانوا يعينون فى تلك المناصب فى الأيام الخوالى : الحرص على الكرامة ، عدم الاختلاط مع الآخرين حتى ولو كانوا من موظفى الدولة ، الحفاظ على المظهر ، إلى غير ذلك مما يليق بوكيل النيابة ومنصبه.

ولما ذهبوا لوزير العدل حدثهم قبل أن يحلفوا اليمين أمامه عن ذكرياته عندما عين وكيلا للنيابة منذ قرابة نصف قرن وكيف كان المرتب آنذاك هو ذات المرتب الآن وكيف كان المرتب فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن يمثل ثروة ضخمة يحار وكيل النيابة كيف يصرفها . وكيف أن كل واحد منهم كان يجد معه فى آخر الشهر بعض الجنيهات التى

كانت فى نهاية السنة كفيلة بشراء «فدان» أرض من أراضى المنوفية .

وكان الوزير من أبناء تلك المحافظة وكان صاحبنا أيضا من أبنائها ، وكانت المنوفية مشهورة بخصوبة أرضها وارتفاع ثمنها إذ كان فدان الأرض فيها يصل آنذاك إلى قرابة مائة جنيه . سبحان الله ! الفدان نفسه الآن يصل إلى أكثر من خمسين ألف جنيه وقد يصل إلى مائة ألف فى بعض المواقع . وردد الوزير بعض ما وجهه لهم النائب العام من نصائح وتوجيهات وانصرفوا لكى يعد كل واحد نفسه لمواجهة الحياة الجديدة والمنصب الخطير الجديد .

وكان قد اشترى بدلتين جديدتين وبقى له مع ذلك مبلغ لا بأس به من «الثلاثين جنيها» التى أخذها من مكتب المحاماة الكبير الذى عمل به أسبوعا واحدا قبل التعيين فى النيابة العامة ، وقد اشترى البدلتين من «عمر أفندى» بشارع عبدالعزيز ودفع فيهما ما يقرب من عشرين جنيها عدا ونقدا . واشترى أيضا بعض الملابس الداخلية وبعض القمصان و بعد ذلك كله بقى له بضعة جنيهات .

واتصل به شقيقه من أسيوط التى كان يعمل فيها فى هيئة قضايا الدولة واقترح عليه أن لا يذهب إلى سوهاج مباشرة وإنما ينزل من القطار فى أسيوط ليقضى ليلة معه هناك ثم يستأنف السفر فى الصباح إلى سوهاج . وركب القطار من محطة مصر ومعه زميلاه اللذان عينا معه فى نفس القرار . أحدهما كان تعيينه فى أسيوط والآخر كان تعيينه فى قنا . ووصل القطار إلى أسيوط فى المساء واستقبله أخوه فى محطة

أسيوط ثم اصطحبه إلى النادى حيث وجد زملاء أخيه وبعض أعضاء النيابة العامة وتناولوا جميعا عشاءهم فى النادى . وكان أخوه فرحا به فرحة الوالد وأوصاه بنفسه وبعمله ثم ودعه فى الصباح إلى حيث استقل القطار إلى سوهاج .

وفى ميدان المحطة كانت هناك «لوكاندة» نزل فيها وترك فيها حقيبته ثم ركب «حنطورا» لكى يوصله إلى مبنى النيابة الكلية .

وتلقاه هناك زملاء مازال يعرف بعضهم حتى اليوم رغم أن الأيام تقلبت بهم فى مناصب عديدة . بعضهم استمر فى سلك القضاء وبعضهم انتهى به المطاف إلى أن يصبح محافظا وآخر أصبح المدعى العام الاشتراكى ، وكلهم جميعا ما تزال بينهم بعض الصلات .

وكان القائم بعمل رئيس النيابة أو «الوكيل الأول» رجلا قصيرا يبدو حاد الذكاء واستقبله بقوله «اهلا فلان بك » ومن يومها وهو لا يسمع اسمه الا مقترنا بلقب بك . وكان وكلاء النيابة لا ينادون بعضهم إلا بهذا اللقب رغم أن الألقاب كانت الثورة قد ألغتها .

وحاول «فرج بك» وكيل أول النيابة أن يلقى فى روعه أهمية المنصب وأن يعلمه بعض ما يجب أن يعرفه أو أن يلتزم به من تقاليد وكان يسمع فى إصغاء عميق وهيبة واضحة .

وعقب انتهاء أول يوم عمل ذهب مع بعض الزملاء إلى «النادى» وكان مكانا فسيحا جميلا لتناول طعام الغداء ثم تفرقوا على وعد باللقاء فى النادى عند المساء. وكذلك كانوا يفعلون .

· وقضى ليلته الأولى فى تلك اللوكاندة . وفوجئ عند منتصف الليل بمن يدعوه إلى التليفون ليكلم رئيس النيابة ، وأخذته رهبة وهو ينزل الدرج لكى يتحدث فى التليفون ، وكان المتحدث هو «فرج بك مكارى» وكيل أول النيابة الذى طلب منه أن يسافر فى الصباح الباكر ليحضر جلسة الجنح فى محكمة البلينا .

وتصور أن ذلك أمر هام وخطير ، ولا يذكر أنه استقر فى نومه تلك الليلة إلا قليلا . وسافر فى الصباح إلى البلينا جنوب سوهاج . ومن المحطة اتجه إلى مقر النيابة ومقر المحكمة الذى لم يكن بعيدا عن المحطة ووجد القاضى الذى رحب به ينتظره لكى يدخل الجلسة - جلسة الجنح. ودخل خلف القاضى وجلس فى المكان المخصص للنيابة يتابع ما يجرى فى الجلسة ولاحظ أنه لم يفعل شيئا إلا الجلوس والمتابعة واستفسر من القاضى عن دور النيابة وهل يقتصر دورها على هذا الذى كان . وأفهمه القاضى أن دور النيابة فى حضور جلسات الجنح هو دور ضرورى يستلزمه القانون ولكن دور النيابة فى جلسات محاكم الجنح محدود لا يكاد يحس به أحد .

وعاد بعد الجلسة إلى سوهاج يحاول أن يسترجع ما شهده وما سمعه فى تلك الجلسة الأولى التى قدر له أن يحضرها والتى أعطته فى البداية نوعا من الأهمية والشعور بهيبة المنصب . وقد عرف بعد ذلك بوقت أن حضور جلسات الجنح هو نوع من «السخرة» يفرض على أعضاء النيابة الجدد ويأنف منه قدامى الأعضاء .

وهكذا بدأ حياته فى عمله الجديد فى النيابة العامة بعد فترة من القلق وعدم الاستقرار والحيرة قضاهما منذ تخرجه وإلى حين تعيينه فى النيابة العامة .

وكان خريجو دفعته الذين عينوا فى النيابة العامة قد عينوا فى قرارين متتاليين .

وكان هو قد عين فى القرار الثانى . وعندما صدر القرار الأول لم يجد اسمه فيه ولم يكن يعلم أن للقرار بقية ستظهر بعد أسبوع، تولاه هم شديد . وأنه ليرجع إلى كراسة كان يكتب فيها يومياته فى تلك الأيام ليجد أنه قد كتب يوم صدور القرار الأول الذى شمل بعض زملائه الذين عينوا فى نيابات القاهرة يقول بالحرف الواحد:

«لقد قدرت الدولة حين عينت بعض الخريجين فى الجامعة وبعضهم فى مجلس الدولة وآخرين فى النيابة العامة اننى دون هؤلاء جميعا كفاءة وأنا أعلم غير متحيز ولا مغرور والعياذ بالله وكثير من هؤلاء يعلم أن واحدا منهم لا يستطيع أن يدعى مثل هذا الادعاء ، ولكن الدولة قدرت أنى لست من أصحاب درجة «جيدا جدا» وأن أصحاب هذه الدرجة أولى بالتعيين من غيرهم وهى فى نظرها هذا معذورة إذ أن هذا هو المعيار الوحيد أمامها للاختيار والتفضيل .

على أى حال فالخيرة فيما اختاره الله وقد كان أملى أن اعمل فى الجامعة وضاع هذا الأمل لست أدرى هل ضاع إلى الأبد. وبعد فقدان

الجامعة فلست بآسف على شئ . واعتقد أن المحاماة إذا وفق الإنسان فيها لأكرم وأمجد من أى مكان سواها .

وإنما أسأل الله التوفيق وأسأله الرضا » .

هذا هو ما كتبه صاحبنا فى يومياته عندما صدر القرار الذى عين فيه بعض زملائه أعضاء فى النيابة العامة . وبعد أقل من أسبوع صدر القرار الثانى متضمنا أسماء الثلاثة الذين عينوا فى الصعيد . وكان هو بينهم وكان من نصيبه أن يعمل فى سوهاج .

وقد كتب فى يومياته تلك التى نقلنا منها الفقرة السابقة عشية صدور قرار تعيينه فى النيابة يقول :

«نحن نسعى لأمر ليس ندركه .. » .

هذا حق لا ريب فيه . إننا لا نملك لأنفسنا غير ملء المكان الذى يفرض علينا وغير تنفيذ الاتجاه الذى يرسم لنا وحتى هذا يبدو أن لا حيلة لنا فيه . حين نظرت إلى آخر مرة كتبت فيها فى هذه المذكرات . وجدتنى أقول فيها قد تحدد المصير وبالنسبة لى تحديدا نهائيا بالمحاماة. ولم أكن أدرى أننى بعد أسبوع من كتابة ما كتبت سيفرض على أن يتحدد مصيرى من جديد لأنه قد تراءى للمسئولين أن يعينوا ثلاثة جددا من الخريجين فى وظائف معاونى النيابة . وكان طبيعيا أن أكون ضمن هؤلاء .. ويشاء القدر الذى توهمت أنه قد حدد مصيرى فى القاهرة وفى المحاماة أن يغير الأمور فإذا هى النيابة بعد المحاماة وإذا هى سوهاج بعد القاهرة .

وهذه هى ارادة الله وهى دائما الخير ولعلى فى النيابة أكون أقرب إلى الجامعة منى فى المحاماة .

أننى أريد أن أكون استاذا فى الجامعة . هذا هو حلمى القديم . ولست أدرى أتتحقق الأحلام أم لا ؟

ولكن الذى أدريه أن الله يفعل الخير وأن نظرتنا المحدودة هى التى تصور لنا الأمور تصويرا قد يبدو غير متفق مع الخير الألهى الذى تقصر عقولنا عن إدراكه »

هذا هو ما خطته يداه يوم أن تصور أنه لم يعين فى النيابة العامة وأن مصيره إلى المحاماة ثم يوم أن عين فى النيابة العامة وهو ما يبرح يذكر حلمه القديم الأثير على نفسه أن يعمل فى الجامعة .

إلى هذا المدى كان الفتى متعلقا بهذا الأمل الذى أخذ عليه جماع عقله وقلبه ولكنه مع ذلك لم يستهن أبدا بعمله الجديد الخطير فى النيابة العامة .

ذكريات النيابة فى الصعيد
وحكايات من الزمن الجميل

كان صاحبنا أحدث أعضاء الهيئة القضائية فى دائرة سوهاج، وكان فى البداية يحمل فى نفسه توقيرا وهيبة كبيرين لزملائه القدامى من القضاة ووكلاء النيابة ، وكان ينظر إليهم وينتظر منهم أن يكونوا أقرب إلى القديسين الذين يحملون رسالة العدل على الأرض منهم إلى بنى البشر. ولكن ذلك التصور الرومانسى الساذج لم يستمر طويلا حيث تبين له أن القضاة ووكلاء النيابة هم بشر من البشر ، فيهم كل مافى هؤلاء من نوازع الخير والشر ، وفيهم كل مافى بنى البشر من ايجابيات وسلبيات ، غاية الأمر إن هذا النوع من الناس نظرا لما ينتظره الناس منهم تبدو نواقصهم أكثر من حقيقتها بكثير ، إن الأمر يأتيه الفرد العادى من الناس لا يلفت نظر أحد ولا يكون محل ملامة ولكنه يصدر من القاضى أو من وكيل النيابة فإذا به يثير كثيرا من اللوم وكثيرا من التعجب وغير قليل من الاستنكار .

وكان صاحبنا يرقب ذلك كله وهو صامت لا يكاد يحدث أحدا بما فى نفسه فقد كان أحدثهم وأصغرهم جميعا وقد تبين له منذ البداية أن التدرج الوظيفى وأن الأقدمية بين رجال القضاء والنيابة هى حاجز لا يجوز تخطيه . وفى ذلك خير كثير ولكن فيه أيضا قيودا حديدية على الأعضاء الجدد .

كان يسمع كثيرا ويتكلم قليلا ، وكان ما يسمعه لا يرضيه فى الأغلب الأعم .

وكان فى مدينة سوهاج مقر النيابة الكلية ، ثم نيابة البندر ونيابة المركز وفى سائر المحافظة توجد نيابة فى كل مركز وكان هو فى البداية يعمل فى النيابة الكلية حيث يوجد رئيس النيابة والوكيل الأول وعدد من وكلاء النيابة وكان ترتيبه يأتى فى آخرهم إذ كان لا يزال معاونا للنيابة.

وكان رئيس النيابة رجلا كبير السن معتل الصحة و الذى يترامى إلى سمعه عنه لا يسر كثيرا ، يقال : إنه «وفدى » وإن حكومة الوفد عينته رئيسا للنيابة بعد أن كان محاميا غير ناجح ، وإنه بالرغم من كونه من عائلة صعيدية كبيرة إلا أنه كان محدود الشخصية محدود العلم .

ولذلك كان «فرج بك مكارى» وكيل أول النيابة هو «الكل فى الكل» فقد تدرج فى وظائف النيابة من أول السلم إلى أن وصل إلى ما وصل إليه ، وكانت درجة وكيل أول النيابة آنذاك هى عنق الزجاجة التى يمكث فيها وكلاء النيابة فترة طويلة ثم بعد ذلك ينطلقون إلى الدرجات العليا حيث لم يكن فى كل محافظة إلا رئيس نيابة واحد وكان فى كل عدد من المحافظات محام عام واحد. والذين يقرأون هذا الكلام فى هذه الأيام من بين رجال القانون يعجبون ، إذ يقارنون بين ما كان وماهو كائن فالقاهرة وحدها الآن فيها مئات من رؤساء النيابة وعشرات من المحامين العامين ، وعدد من الصعب احصاؤه من وكلاء النيابة

ومساعديهم . وهذا تطور طبيعي نتيجة تطور حجم العمل والزيادة الرهيبة في عدد السكان .

وكان يعمل في النيابة الكلية حيث يقوم بدراسة القضايا التي ترد من النيابات الجزئية في مراكز المديرية والتي يطلب منه دراستها ثم يقوم بعد ذلك بعرضها على القائم بعمل رئيس النيابة «فرج بك» وسرعان ما اكتسب صاحبنا رضاه لدقة دراسته وعرضه وإبرازه ما قد يكون خافيا من جوانب قانونية . وكثيرا ما كان فرج بك يوافق على ما انتهى إليه من رأى .

وكانت محكمة الجنايات تنعقد في كل شهر بضعة أيام . وكان مجئ المستشارين الثلاثة إلى عاصمة المديرية من القاهرة – حيث يقيمون عادة – حدثا ذا شأن كبير .

كان مدير المديرية – وهو أكبر موظف مركزي فيها – ورئيس المحكمة الابتدائية ورئيس النيابة وعدد آخر من كبار موظفي المديرية يذهبون إلى استقبال «الباشوات الثلاثة» في المحطة ، وكان قدومهم عادة ما يكون في المساء ، ومن المحطة يتوجهون إلى استراحتهم ، وكان للمستشارين استراحة خاصة ينزلون بها لا يختلطون بأحد ولا يختلط بهم أحد حتى رجال القضاء والنيابة وكبار موظفي المديرية كانوا لا يرونهم إلا عند استقبالهم وعند وداعهم ونادرا ما كانوا يرونهم أو يلتقون بهم أثناء (الدور) إلا إذا قرر المستشارون أن يذهبوا مرة أو مرتين إلى النادي الكبير . وكان في سوهاج ناد للبلدية قريب من النيل ، وكان

واسعا ، وكان نظيفا وكان بقعة خضراء متناسقة ، وكان يؤمه كبار الموظفين ممن يعملون فى سوهاج والذين ترجع أصولهم إلى القاهرة أو إلى مدن أخرى بالوجه البحرى. وأحيانا كان بعض كبار الموظفين يذهب إلى النادى ومعه زوجته . ولكن ذلك كان نادرا ما يحدث . وكان - إذا حدث - مثارا للقيل والقال .

وكان المستشارون إذا جاءوا إلى النادى جاءوا إذا أقبل الليل ودخلوا بذات النظام الذى يجلسون به على المنصة يتوسطهم رئيس الدائرة ويتقدمهم بخطوة أو نصف خطوة ، وإلى يمينه عضو اليمين ، وإلى يساره العضو الآخر ثم يجلسون بنفس الترتيب ويحيط بهم كوكبة من رجال القضاء والنيابة فى احترام وتوقير شديدين ويرهف كل منهم السمع لما عسى أن ينطق به أحد من المستشارين .

كان زمنا جميلا .

وتصادف أن رئيس محكمة الجنايات كان من محافظة المنوفية التى ينتمى إليها صاحبنا وليس هذا فحسب بل كان رئيس الدائرة يعرف صاحبنا هذا الذى مازال فى أول السلم القضائى معرفة وثيقة ، ذلك أنه كان صديقا صدوقا لزوج ابنته «عبدالوهاب» الذى أصبح طبيبا وتزوج عقب تخرجه وكان زواجه من ابنة هذا المستشار الفاضل الجليل .

وذاع الخبر بين أعضاء المحكمة والنيابة أجمعين أن رئيس محكمة الجنايات يعرف صاحبنا ويناديه باسمه ويسأله عن أحواله وأخباره ويخصه بما لا يحلم به غيره من اهتمام .

وقال البعض : إنه خاله . وقال البعض : بل قريبه من بعيد . وقال آخرون : إن صاحبنا هو الذى يتقرب من هذا الرئيس وأن صلة عارضة جعلته يعرفه فى القاهرة وأنه هو الذى يحاول أن يدعى أن ثمة صلة وثيقة بينه وبين الرجل الكبير .

ولم ينطق هو بكلمة واحدة عن حقيقة العلاقة . كان المستشار الكبير يعرفه حق المعرفة منذ تقدم «عبدالوهاب» لخطبة ابنته وكانت صداقته هو وعبدالوهاب معروفة وكان عبدالوهاب قد تخرج فى كلية الطب ثم أسرع بالزواج من كريمة «صبرى بك» الذى كان يمت لهم بصلة قربى بعيدة وكان من نفس القرية من قرى المنوفية.

وترك هو كل واحد يحدس نوع العلاقة ومصدرها ولكن هذه العلاقة على أية حال جعلت له وضعا متميزا لدى كل من رئيس النيابة ووكيلها الأول .

وكان من المعتاد أن ينزل أعضاء النيابة الذين يعملون فى الصعيد إلى القاهرة لمدة أربعة أو خمسة أيام كل شهر ، وأحيانا كان رئيس النيابة لا يوافق على ذلك لحاجة العمل ويرجئ الاذن بالنزول أسبوعا أو أسبوعين ولكنه بالنسبة لصاحبنا كان يوافق له دون تردد ولعل ذلك كان أهم مظهر من مظاهر تميزه بين زملائه أو لعله كان المظهر الوحيد لذلك التميز .

وبعد أشهر ثلاثة من تعيينه صدر قرار بتعيين اثنين جديدين من معاونى النيابة فى دائرة سوهاج وبذلك صار صاحبنا من «قدامى» الأعضاء وكان أحد المعينين الجدد من حقوق القاهرة وكان الآخر من

حقوق الاسكندرية وسرعان ما توثقت العلاقة بين هؤلاء الثلاثة الجدد وكان هو أقدمهم بطبيعة الحال .

وسرعان ما عرف عن صاحبنا أنه من الذين يجيدون المرافعة ويحسنون الحديث باللغة العربية وأن لديه المقدرة على ترتيب الحجج والبراهين وعرضها والدفاع عنها ، ولذلك فكثيرا ما كان يجرى تكليفه رغم حداثته فى العمل بالمرافعة فى بعض الجنايات فى الصعيد ممثلا للنيابة العامة ، وكثيرا ما أبلغت دوائر الجنايات ثناءها على ذلك النائب المترافع إلى رئيس النيابة وأحيانا إلى مكتب النائب العام نفسه فى القاهرة .

وكان هذا وذاك مصدر اعتزازه دون شك ، ولكن بعض الألسنة الحداد التى لا ترضى عن شئ قط والتى تنتقد بالحق والباطل كل شئ كانت لا تتورع عن تقليد طريقته فى الإلقاء ، بل ولا تتورع أحيانا عن تشبيهه بالأزهريين على اعتبار أن هؤلاء وحدهم هم الذين يملكون ناصية اللغة ويتحدثون بها على نحو ما يتحدث صاحبنا من اتقان وكان يعجب من أن الشئ الذى يصح أن يكون محل تقدير يصبح محل محاكاة وانتقاد ولكنه ومنذ وقت مبكر كان يدرك أن النجاح لابد له من حاسدين وكارهين .

وكانت الألفة واضحة بينه وبين العضوين الجديدين «الجندى والرفاعى» وفكر ثلاثتهم فى أن يكون لهم «ميز» مستقل يعيشون فيه وكان «الميز» عبارة عن «شقة» يستأجرها عدد من وكلاء النيابة وقد

يكون منهم بعض القضاة ويستأجرون لهم من يطهى طعامهم وينظف حجراتهم ويتقاسمون التكلفة وكانوا بذلك يحققون أكثر من غرض : يوفرون النفقة ويبعدون الوحدة ، ويوجدون الفرصة للحديث وتبادل المعرفة ، ثم يمارسون بعض وسائل التسلية وفى مقدمتها لعب «الورق» .

وكان فى سوهاج أكثر من «ميز» وكان هناك بعض القضاة الذين يقيمون مع عائلاتهم فى مساكن خاصة بهم ، ولكن غالبية هؤلاء كانوا يتركون عائلاتهم فى القاهرة وكانوا يقسمون الوقت بين العاصمة وبين مقر العمل وينهجون فى توزيع الجلسات نهجا يمكنهم من قضاء نصف أيام الشهر على الأقل فى القاهرة والنصف الآخر فى سوهاج .

ولم يقدر له ولزميليه أن يكون لهم ما أرادوا من «ميز» مستقل فقد فاجأهم «الرفاعى» بأنه تزوج وجاء بزوجته إلى سوهاج واتخذ له بطبيعة الحال مسكنا مستقلا ، وإن كان ذلك لم يمنع من استمرار الصلة الوثيقة بين ثلاثتهم وبقى هو «والجندى» وعدد آخر من وكلاء النيابة فى لوكاندة «سميراميس» وهى غير اللوكاندة التى نزل بها أول يوم وطئت قدماه مدينة سوهاج .

كانت سميراميس قريبة من مبنى النيابة الكلية ، وكانت مملوكة لأحد كبار المحامين المتقاعدين فى سوهاج ، وكانت نظيفة ومؤثثة تأثيثا جيداً وكان صاحبها يؤجر الغرفة لرجال القضاء والنيابة فى الشهر بخمسة جنيهات كاملة . ولم يكن ذلك آنذاك بالمبلغ الهين . وكان بالنسبة له يوازى ثلث مرتبه بالتمام والكمال .

وأنه ليذكر أنه أرسل خطابا إلى صديقه «فتحى» فى القاهرة يشكو له بعض ما يلقاه فى سوهاج من وحشة وغربة ويتباكى على أيام القاهرة ويشتاق إلى الأصدقاء والخلان فيها ورد عليه «فتحى» قائلا ألا يكفيك أن سوهاج جعلتك من نزلاء «سميراميس» وكان ذلك نوعا من التورية الجميلة مع مابين «سميراميس» القاهرة وسميراميس سوهاج من فارق واسع فى كل شئ .

وإنه ليذكر ليلة من الليالى فى تلك اللوكاندة لا يستطيع نسيانها قط.

كان اليوم الأول من الشهر وكان كل واحد منهم قد تسلم مرتبه فى الصباح وتداعى الذين كانوا يقيمون فى نفس اللوكاندة إلى حفل يشربون فيه ويلعبون الورق . ولم يكن هو يقارف أيا من الامرين . لم يكن «يشرب» ولم يكن ومازال حتى يومنا هذا يعرف «لعب الورق» سواء للتسلية أو من باب المقامرة . وجلس أول الليل يشاهد اللاعبين ولكنه لم يستطع أن يقاوم سلطان النوم فتركهم وقد تملكهم الحماس ودخل إلى حجرته كى ينام وتركهم فيما هم فيه من انفعال وتوتر بل وسباب وصياح أحيانا .

وظلوا يلعبون :

وعند الفجر أيقظه صياحهم وكانوا أربعة أو خمسة وكان أصغرهم «الجندى» و أكبرهم من قدامى وكلاء النيابة وكان الصياح قد ارتفع فقد

استطاع «فوزى» أن يكسب الجميع وإذا بالخمسة يفاجأون بأن مرتباتهم بالكامل قد انتقلت من جيوبهم إلى جيب «فوزى» وكانوا يجادلونه ويناقشونه ويرجونه أن يترك لكل واحد منهم خمسة جنيهات فقط لكى يسددوا «أجرة اللوكاندة» ولكن فوزى يرفض فى اصرار قائلا : « إن هذا هو اللعب » لقد كنا «نلعب» ولم نكن «نهذر» ورفض أن يعطى أحدهم شيئا .

وأعطى هو «الجندى» خمسة جنيهات ولا يدرى كيف استطاع الآخرون تدبير أجرة اللوكاندة فى ذلك الشهر التعس .

وكان ذلك درسا لا ينساه . إنه لم يكن يحب ذلك النوع من تضييع الوقت ولم يكن يعرفه ، ولكن تجربة تلك الليلة كانت من القسوة بحيث لم تترك له سبيلا إلى التفكير فى هذا الأمر ومع ذلك فقد استمر الزملاء الآخرون الذين اعتادوا «اللعب» على سيرتهم لم يحيدوا عنها ولم تثنهم قسوة بعض التجارب عن هذا الطريق ولم تردهم إلى صواب .

ذكريات عزيزة وغريبة !
الحسن بك والشعر ونوتة الحساب

كان «عادل» شخصية متفردة فى كل شئ وكان صوته مبحوحا إلى المدى الذى توشك ألا تتبين كلامه رغم محاولاته لرفع صوته ؟ ولا يكاد ينطق جملة كاملة . فعباراته منقوصة غير واضحة وهو كثير الحلف بالله وبالأنبياء والأولياء ، كما كان أكبر أعضاء النيابة سناً فيما عدا قدامى الوكلاء رغم أنه مساعد نيابة حديث ، وكان أكثير التملق للرؤساء عندما يواجههم ، كثير النقد لهم عندما يخلو إلى خاصته من الزملاء ، وكان عادل هو العضو الثانى فى نيابة «البلينا» ولكنه كان مقيما فى سوهاج لا يريد أن يذهب إلى البلينا فهى تضيق كثيرا برغبته فى التهريج وليس فيها مجالات للحكاوى الكثيرة ولا للمقالب بين الزملاء ، وما إن عين صاحبنا فى النيابة الكلية حتى تسلمه عادل يريد أن يقنعه أن البلينا خير له من سوهاج وأن عضو النيابة الجديد لكى يتعلم فإن عليه أن يبدأ حياته فى نيابة جزئية لكى يعرف العمل علي حقيقته و لكى يبدأ من القاع ، وظل هذا الحديث يدور كل يوم بين الاثنين وعادل يحرض بعض الزملاء الآخرين لاقناع صاحبنا ، ولكنه اقتنع أخيرا على أى حال وأبدى رغبته لرئيس النيابة فى أنه لا يمانع فى أن يتبادل الأماكن مع عادل فيذهب هو إلى نيابة البلينا الجزئية ويأتى عادل إلى النيابة الكلية فى سوهاج .

كانت فجيعته فى غير قليل من الزملاء وطريقة سلوكهم وأسلوب حديثهم من ناحية ورغبته فى العزلة وحبه للقراءة وتفكيره فى مواصلة الدراسات العليا عن بعد ، من ناحية أخرى كلها عوامل جعلت قبوله لما عرضه عليه عادل أمرا ممكنا .

●●●●

وذهب إلى البلينا .

واستقبله مدير النيابة استقبالا هادئا حذرا .

وكان ذلك المدير شخصية غريبة لم ير مثلها قط، كان قصيرا نحيفا يلبس نظارات سميكة ولم يكن متأنقا فى ملبسه شأن الغالبية من أعضاء النيابة العامة الذين يعتبرون أن المظهر الحسن والملبس اللائق من السمات الضرورية لمن يتولى هذا المنصب الخطير .

وكان منقولا إلى البلينا حديثا ولم يختر الشقة المناسبة لسكناه للآن ولعله كان ينتظر قدوم العضو الثانى فى النيابة حتى يقررا معا ، ولذلك فقد أقام مؤقتا فى استراحة للبوليس ؛ ووكلاء النيابة يريدون عادة – أو كانوا يريدون فى ذلك الزمان – أن يبتعدوا عن الاحتكاك أو القرب من رجال البوليس ، فضلا عن السكن فى استراحتهم . ولما جاء صاحبنا إلى البلينا يحمل حقيبة ملابسه كان لابد له أن ينزل مع زميله الكبير حيث هو فى استراحة الشرطة أو أن يختار «اللوكاندة» الوحيدة القريبة من المحطة لكى يقيم فيها إلى أن يتقابل مع زميله القديم .

ورأى أن يذهب فى البداية إلى حيث يقيم «الحسن بك» لكى يتعرف عليه ويتفاهم معه .

ولم تطل إقامتهما في تلك الاستراحة غير بضعة أيام إلى حين عثرا على شقة واسعة (يلعب فيها الحصان كما يقولون فى الأمثال) أخذ كل منهما حجرة فيها ، واستعملا الصالة الواسعة لطعامهما وجلوسهما وسماع «الراديو» الذى جاء به «الحسن بك» معه .

وكان ايجار تلك الشقة جنيهين كاملين فى الشهر ، يدفع كل منهما جنيها كاملا .

وكان لابد لهما أن يستعينا بمن يخدمهما ويهيئ لهما طعامهما ولم يكن صعبا أن يعثرا على «طباخ» يتولى إلى جانب الطبخ أمور النظافة . وكان أجر هذا الآخر جنيهين فى الشهر أيضا .

وكان صاحبنا قد رقى إلى (مساعد للنيابة) وكان راتبه الشهرى يصل إلى عشرين جنيها ، أما زميله القديم فكان وكيلا قديما وكان مرتبه يتجاوز الثلاثين جنيها . وقد حرص «الحسن بك» على أن يطمئن صاحبنا إلى أن إقامتهما المشتركة لن تكلف كلا منهما أكثر من عشرة جنيهات . فإن زادت فاثنا عشر جنيها وأنه لا مبرر للقلق وأنه سيستطيع أن يوفر بضعة جنيهات ينزل بها إلى القاهرة فى الزيارة المعتادة كل شهر - أو يزيد قليلا - لقضاء أسبوع حافل هناك .

ويوما بعد يوم أخذ يكتشف جوانب جديدة وغريبة فى تلك الشخصية العجيبة .

كان «الحسن بك» شاعرا جيدا وكانت قصائده تنضح مرارة وسوء ظن بالناس والمجتمع وبالحياة وبكل شئ .

ولما عرف «الحسن بك» أن صاحبنا يحب الشعر ويهوى الأدب والقراءة أنس إليه قليلا ، وأخذ يحدثه بما لم يكن يحدث به غيره ممن عرفهم من أعضاء النيابة الذين كان يسئ الظن بهم إلى أبعد الحدود ويمقتهم من أعماقه كل المقت ، كانت حياتهم تقوم على المظاهر والاحتفال بها ، وكان هو يكره المظاهر كل الكره ، وكانوا يحبون الاختلاط والنميمة والأحاديث التى أغلبها لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وكان هو يحب الاعتزال ويحب التعبير عن ذات نفسه وعن آلامه وما يشعر به من مرارة ، كان نقيضا لهم فى كل شئ ويبدو أن «عادل» وأعضاء النيابة الكلية القدامى كانوا يعرفون عنه ذلك ويبدو أن هذا أيضا كان وراء حرص «عادل» على ألا ينفذ النقل إلى البلينا وأن يقنع صاحبنا بمبادلته . وأدرك صاحبنا ذلك كله بمرور الأيام .

وأعضاء النيابات الجزئية - خاصة فى الصعيد يرحبون بأى مناسبة لكى يذهبوا إلى النيابة الكلية فى عاصمة الاقليم يقضون فيها يوما أو يومين إلا هذا الزميل المعتزل فإنه كان لا يحب الذهاب إلى النيابة الكلية ولا يحب المرافعة أمام محكمة الجنايات ، ولا يحب أن يرى أحدا من العاملين فى عاصمة الاقليم وكان يرحب بأن يذهب صاحبنا إلى تلك المأموريات .

وبمرور الأيام ولما أنس «الحسن بك» إلى صاحبنا بعض الشئ وتحت ضغط الوحدة القاتل بدأ يتحدث إليه عن عائلته وعن ماضيه وعن أحلامه .

كان من عـائلة ميسـورة فى «الشرقية» ولكنه كان ينتـمى إلى فرع العائلة الفقير ، بل والشديد الفقر ، وكان فرع العائلة الغنى فيه عدد كـبير من كـبار رجـال القـضـاء . بل إن أحد رؤسـاء مـحكمـة النقض السابقين كان ينتمى إلى ذلك الفرع الغنى من العائلة .

وكان «الحسن بك» لا يخفى عـقده وكراهيته لأولئك الاقارب الذين ينكرون تلك القـرابة ولا ينظرون إلى أبيــه وإليــه إلا على أنهم دونهم درجات وأقل منهم قدرا وأن انتسابهم إلى العائلة أمر مشكوك فيه وهو أمر مكروه منهم على أى حال .

وكان يؤكد أنه عين فى النيابة العـامة لأنه حصل على درجـة «جيد جدا» فى الليسـانس وليس لأنه قريب لفلان أو فـلان . ويبدو أن ذلك كان صحيحا .

ولما أنس إلى صاحبنا أكثر بدأ يحدثه عن بعض أفكاره السياسية والاجتماعية ولم يكن صاحبنا بعيدا عن تلك الأجواء عندما كان طالبا فى الجامعة . وأخذ يتبين من أحاديثه ومن أشعاره ومن الأسماء التى كان يعرفها وهو طالب أنه كان قريبا من الحركة الماركسية . ياللهول !! عضو من أعضاء النيابة العامة يتعاطف مع هذه الأفكار اليسارية . كان ذلك شيئا عجيبا . ومع ذلك فقد استمع صاحبنا لذلك كله وكتمه فى نفسه لم يحدث به أحدا قط محافظا على ثقة هذا الزميل الذى لا يثق فى أحد، وأدرك هو ذلك وأكبره فى صاحبنا حتى أنه قرأ له من قصائده التى توحى بهذا الاتجاه أكثر من قصيدة .

وكان أصحاب الاتجاه الماركسي في تلك الفترة المبكرة من عمر ثورة ٢٣ يوليو لا يرونها ثورة وإنما يرونها انقلابا عسكريا ديكتاتوريا وكانوا لا يحسنون بأصحابها الظنون ، وكان الهاجس الأساسي عند صاحبنا مساعد النيابه هو قضية الحرية أو الديمقراطية وكان ذلك يباعد بينه وبين تصرفات الثورة أو بعض هذه التصرفات ، ولكنه لم يكن يرى فيها ما يراه زميله أو ما يراه الماركسيون . كانت الثورة عنده أملا أما الزميل الكبير فقد كان متوجسا منها خيفة معتقدا أنها حرفت كفاح الشعب المصري في مواجهة استبداد الملك والانجليز وأنها اجهضت ذلك الكفاح.

وكانت تلك هي وجهة نظر الماركسيين التي كان يسمعها عندما يسافر إلى القاهرة ، وزاد ذلك من تأكده أن الزميل الكبير ليس بعيدا عن هؤلاء .

وكان ذلك كله مقبولا ومن الممكن التعايش معه بل إنه كان جانبا لا يخلو من متعة فكرية يندر أن يجدها الإنسان عند كثيرين من أعضاء النيابة .

ولكن الجانب الأساسي من شخصية «الحسن بك» في المعيشة كان هو الجانب الذي يتمثل لا في حرصه ولكن في بخله الشديد الذي فاق كل الحدود .

كان للحسن بك شقيق توأم يعمل في هيئة قضايا الدولة في القاهرة وكان قد تقدم لاحدى دبلومات الدراسات العليا وكان شقيق الحسن بك يرسل له مذكرات الاساتذة أولا بأول . وكان صاحبنا قد التحق بنفس الدبلوم .

وكان يستعين بالمذكرات التى يرسلها شقيق الحسن بك إليه واستمر ذلك شهراً أو أكثر قليلا . وفى يوم من الأيام إذا «بالحسن بك» يقول له : إن أخى يجد مشقة فى الحصول على المذكرات . وينفق تكلفة فى ارسالها وأنت تأخذها هكذا «على الجاهز» هذا أمر لا يجوز . ولم يفهم صاحبنا فى بداية الأمر ما الذى يقصده «الحسن» ولكنه فهم بعد ذلك أنه يريد مشاركته فى التكلفة والتى لم تكن تزيد على بضعة قروش هى تكلفة الارسال فى البريد وبضعة جنيهات قليلة يدفعها شقيقه – على كل حال – ثمنا للمذكرات .

وأحس صاحبنا بنوع من الغصة ولكنه كتمها فى نفسه وعدل عن الاستمرار فى دراسة الدبلوم ذلك العام .

وكان «الحسن » هو الذى يمسك حساب «الميز» أى حساب المصاريف المشتركة وكان قاضى المحكمة ينضم اليهما فى «الميز» فى يومين من كل أسبوع ولم يكن صاحبنا منذ الصغر له جلد على الحساب و لن يجد على أى حال من هو أكثر حرصا ودقة من «الحسن بك» لكى يتولى أموره ، لقد وعده عند بدء الحياة المشتركة إنه لن يتجاوز فى الشهر أثنى عشر جنيها ، وقد صدق الرجل وعده ، وكان «الحسن بك» يحرص عندما يوضع الطعام على المائدة أن يقسم «السلطة» ذلك أنه لاحظ أن صاحبنا فيما يبدو يجور على نصيبه منها وكان يحرص عندما يوزع أجزاء الدجاجة أن يأخذ كل واحد منهما «صدرا ووركا» حتى لو كان أيهما يحب «الأوراك» دون الصدور وذلك حتى تتحقق العدالة بينهما

والشئ غير المعتاد أنه كان يصمم على أن يقوم صاحبنا بمراجعة «النوتة» التى يكتب فيها حسابات المين، ويوقع عليها كل أسبوع وكان صاحبنا يرفض ذلك ويراه غير كريم فى حق «الحسن بك» ولكن هذا كان يصمم تصميما شديدا مما كان يدفع صاحبنا إلى نظرة شكلية وتوقيع فى غير اكتراث .

وفى ليلة من الليالى عن له تحت ضغط «الحسن بك» أن يراجع الحسابات فإذا به يجد فرقا فى الحسابات قدره «قرشان صاغ» وكان من المقطوع به أن ذلك حدث على سبيل الخطأ ولكن «الحسن بك» بعد أن راجع مرة ومرتين وتأكد من حدوث ذلك الخطأ ساورته شكوك كثيرة ماذا سيظن صاحبنا به ، هل حقيقة اعتقد أن هذا خطأ أم أنه أخفى رأيا آخر ؟ وأصابه هلع عجيب وأخذ يدور فى الشقة جيئة وذهابا ويقسم بأغلظ الإيمان أنه لم يكن يقصد ، وصاحبنا يهون عليه يقسم له أنه ما خطر فى ذهنه إلا أنه خطأ حسابى غير مقصود ، ولكن «الحسن بك» لا يهدأ ولا يسكت عن ترديد أنه فى حالة نفسية بالغة السوء .

وارتدى ملابسه وغادر الشقة لكى يمشى قريبا من جسر السكة الحديد ، وكانا عادة يقومان بهذه «التمشية» سويا ، ولكن الحسن حرص ذلك اليوم على أن يكون وحيدا ، وعاد بعد ساعة أو أقل وهو مازال فى حالة نفسية تعيسة ثم جلس أمام صاحبنا - وكان قاضى المحكمة موجودا فى تلك الليلة الغريبة - ثم قال فى ألم ممض وشك عميق : هل ستبلغ النائب العام يا يحيى بك بما حدث؟

وضربت كفا بكف وعجبت للنفس البشرية أيما عجب . هذا رجل فى يده مصائر الناس بل وأرواحهم ومع ذلك لا يثق فى نفسه إلى هذا المدى . وهو قطعا أخطأ لكن بدون قصد ، ومع ذلك يعيش فى هذا الكرب العظيم ، وأقسم له صاحبنا بأغلظ الإيمان أنه لم يشك فيه لحظة وساعده القاضى محاولا تهدئة «الحسن بك».

وكانت ليلة ليست كمثلها ليلة أخرى .

من نوادر الحسن بك أيضا ..

رغم كل المحاولات الصادقة إلا أن «الحسن بك» لم تهدأ نفسه ولم يطمئن إلى أن صاحبنا لن يبلغ النائب العام أو على الأقل لن يتحدث إلى الزملاء فى النيابة العامة بأمر هذا «الخطأ الجسيم» الذى ارتكبه عندما جاءت نتيجة حساب «الميز» فى ذلك اليوم التاريخى زائدة «قرشين صاغ» ! ولم يكن فى وسع صاحبنا أن يفعل أكثر مما فعل ، ولم يكن فى وسع القاضى أن يبذل أكثر مما بذل .. ولم يكن أمامهما إلا أن يتركا الزمن نفسه يهدئ من مشاعره ويطمئن من شكوكه ومخاوفه .

ومضت أيام «والحسن بك» يبتعد عن هذه الحادثة المؤلمة ثم يقترب منها ثانية ويصمم أن يترك حساب الميز وصاحبنا يرفض ويصمم على الرفض ، ولم يقبل «الحسن بك» أن يستمر فى إمساك الحساب إلا بعد أن تعهد صاحبنا أنه سيراجع الحساب كل يوم ويوقع بصحته .. وقد كان .

وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى . يذهبان فى الصباح إلى دار المحكمة حيث يوجد مقر النيابة وحيث يجلس «الحسن بك» فى الحجرة الرئيسية باعتباره الأقدم أو باعتباره مدير النيابة كما يقال ويجلس صاحبنا فى الحجرة الأخرى ، فإذا احتاج إلى التليفون أو إذا طلبه أحد ذهب إلى حجرة «الحسن بك» وجلس معه قليلا يتجاذب معه أطراف

الحديث وهو معرض فى الأغلب الأعم عنْ كل حديث . وكان إذا عنْ لصاحبنا أن يسأله عن أمر من أمور النيابة أجابه باقتضاب وبابتسامة خبيثة كأنه يقول له ولماذا اجيبك أو لماذا أساعدك لكى تعرف ما لم تعرفه من قبل – قد يكون هذا هو حق العضو الأحدث على العضو الأقدم من أعضاء النيابة ولكن «الحسن بك» لم يكن يؤمن بذلك وكان يرى أن كل أحد لابد وأن يبذل من الجهد ما يمكنه من العلم وأن كل أحد لابد أن يتحمل مسئولية عمله مادام قد أصبح له حق التصرف قانونا ، وكان صاحبنا لا يستنكف أن يسأل رئيس القلم الجنائى وموظفى هذا القلم التابعين للنيابة العامة . وكان هؤلاء يحبونه ويحملون له ودا كبيرا ، وقد اتصلت العلائق بينه وبينهم سنوات طوالا حتى بعد أن غادر البليفا بسنوات وحتى بعد أن ترك النيابة العامة كلها وبدأ طريقا آخر فى الحياة .

وفى يوم من الأيام ذات مساء قدم «الحسن بك» نوتة الحساب لصاحبنا كى يراجعها ويوقع عليها بالعلم وأخذها صاحبنا وتظاهر بأنه يقرؤها ثم وقع فى غير اهتمام والحسن بك ينظر إليه ضاحكا ثم يسأله ألم تلاحظ شيئا غريبا فى حساب اليوم ؟ ولم يكن صاحبنا قد لاحظ شيئا لأنه فى الواقع لم يكن قد قرأ شيئا بالفعل وإنما كان يتظاهر بأنه يقرأ فقد كان يرى ذلك شيئا غريبا .

فقال له «الحسن بك» ألم تلاحظ أن حساب اليوم قد ورد به «قرش صاغ بند نفاق» فأعاد صاحبنا النظر إلى النوتة فإذا به فعلا يجد ذلك

فأبدى استغرابا من هذا الذي دونه الحسن وسأله عن معناه . فإذا بالحسن بك يبتسم ابتسامته المعهودة ويقول لقد استدعيت صاحب المنزل الذي نسكن عنده لكي أطلب منه بعض الاصلاحات في دورة المياه ، وكان علي أن أطلب له «فنجان قهوة» من باب المجاملة أو من باب النفاق ، ولما كان الأمر يتعلق بشقة السكن فإننا يجب أن نتحمله معا ولا يتحمله هو وحده ثم قال وقد ترددت ماذا أكتب في نوتة الحساب، ثم قال مبتسما : وأخيرا اهتديت إلى التكييف الصحيح للقيد والوصف - وهي عبارة من عبارات العمل في النيابة العامة - ورأيت أن أفضل ما يكتب هو أن هذا القرش إنما دفع بند نفاق فكتبتها هكذا .

إنه لم يكن يخلو من طرافة حتى في مثل هذه الامور التي لا تصدر ولا تتصور من غيره .

ومرت الحياة على وتيرتها المعتادة حتى جاء يوم كانا يجلسان إلى إفطارهما صباحا عندما ابتدر الحسن بك صاحبنا بقوله : إن الراديو هو وسيلتنا إلى العالم ، الخارجي .. إنه النافذة التي تطل علينا ونطل بها على ذلك العالم ، وكانا يسمعان نشرة الأخبار أثناء إفطارهما وأمّن صاحبنا على ما قاله الزميل الكبير وأضاف : إن الحياة في هذا القفر لا يمكن أن تتصور بغير الراديو . إن أهميته بالنسبة لامثالنا وحياتهم التي لا تسمح لهم بالاحتكاك بالآخرين بالغة الأهمية .

وأطرق الحسن بك قليلا ثم قال متسائلا : تفتكر يا يحيى بك الراديو يستهلك على كام سنة ؟ ولم يدرك صاحبنا معنى السؤال بادئ ذي بدء إلا أنه قال إن مثل هذه الأشياء تستهلك في العادة على عشر سنوات .

وهنا ابتسم الحسن بك ابتسامته المعهودة ثم قال : عارف يا يحيى بك .. أنا اشتريت هذا الراديو بثلاثين جنيها يعنى استهلاكه فى الشهر بحوالى ثلاثين قرشا .. سعادتك تدفع خمسة عشر قرشا وأنا مثلها . أليس هذا هو العدل مادمت تشاركنى سماعه ؟

وأطرق صاحبنا ولم يجد جوابا يقوله فقد كانت المفاجأة مذهلة ، ولكنه ادرك فى لحظة واحدة أن استمرار الحياة المشتركة أصبح مستحيلا .

وصاحبنا صاحب طبع صبور ، ولكنه عندما يصل إلى مثل هذه الحالة ينفد صبره وكأنه نفد فجأة .

وفى تلك اللحظة وصل «عم عبدالرحيم» شاويش النيابة ليأخذ حقيبة الأوراق لكل منهما إلى النيابة وعندما دخل «عم عبدالرحيم» اتجه اليه صاحبنا قائلا :

«ياعم عبدالرحيم ابحث عن شقة صغيرة فاضية لأنى أريد أن أسكن وحدى» ولم يدرك عم عبدالرحيم ما حدث ولكنه أخذ الأوراق وذهب .

وقال الحسن بك مخاطبا صاحبنا : أنت زعلت يا يحيى بك طيب مش ضرورى تدفع فى استهلاك الراديو .

ومرة ثانية لم يجد صاحبنا ما يجيب به ، ولكنه كان مصمما على قراره بينه وبين نفسه .

وعند الظهر كان عم عبدالرحيم قد وجد شقة جديدة ، ولم يكن نقل حاجياته بالأمر الصعب فقد كانت كل تلك الحاجيات لا تزيد على سرير

ومكتب صغيرين ودولاب أصغر منهما وبعض الملابس . ولم يستغرق الاستقرار فى الشقة الجديدة أكثر من بضع ساعات .

وعندما جاء القاضى إلى جلساته وإلى الليلتين اللتين يقضيهما فى البلينا أقام فى لوكاندة حقيرة صغيرة قريبة من محطة السكة الحديد إلى أن اشترى سريرا ثم انضم إلى صاحبنا فى شقته الجديدة .

ولم يكن من الممكن إخفاء هذا الانفصال فقد شاع خبره فى دائرة نيابة سوهاج الكلية كلها وأصبح حديث الزملاء جميعا وكان محل تندرهم لمدة غير قصيرة .

وبدأ حياته وحيدا فى تلك الشقة الواسعة . كان ينتظر الليلتين اللتين يقضيهما معه «يوسف عز الدين» قاضى المحكمة بفارغ الصبر ، وكان يقيم فى قريته شمال محافظة سوهاج ويحضر إلى البلينا لجلساته ثم يعود إلى قريته . وغير ذلك كان صاحبنا يقضى أيامه مع الكتب أو مع الحوادث التى يخرج لكى يحققها أو مع أعمال النيابة الروتينية العادية .

وكان لصاحبنا دفتر مذكرات ولكنه كان لا يكتب فيه بانتظام ولا على فترات متقاربة ، كان يلجأ إلى دفتره ويكتب فيه وهو على غير ما يرام نفسيا ، وكان هذا الدفتر مؤنسا له فى وحدته وخلوته .. هو الذى يبثه همومه وأشجانه التى كان يعيشها أو يتخيلها فى تلك الفترة القلقة من حياته ، وقد جاء فى هذه المذكرات عن تلك الفترة من حياته فى البلينا «أنا الآن فى البلينا حيث الحياة هامدة راكدة تسير فى بطء وعى وتفرض على الإنسان بلادة الله يعلم ماوراءها إن النفس الحية لابد وأن

تحس فورة الحياة من حولها حتى تمتلىء هى الأخرى بالحياة ، وهى لابد محتاجة إلى فترات من الهدوء والدعة والتأمل . ولكن حين تصبح الحياة كلها هدوءا ودعة ورتابة لا تتغير إنها حينئذ تصير إلى نوع من الموات الذى تتردد فيه أنفاس خافتة يقال لها تجاوزا «حياة» ومع ذلك ففى وسع الإنسان أن يستفيد من البلينا وفى وسعه أن يستفيد منها لثقافته فالإنسان هنا يجد وقتا لا يجده فى مكان آخر والسبيل الوحيد لضياع هذا الوقت هو القراءة .. ولى فى البلينا زميل غير عادى هو مدير النيابة أقل ما يوصف به أنه إنسان غير عادى فتركيبة جسمه نفسها ليست كتركيبة أغلب الناس وهو مجموعة عجيبة من المتناقضات ، فهو أديب وهو مع ذلك لا يدعو إلى ثقافة ولا يؤمل من ورائها خيرا . وهو مثالى يوما ومنكر للمثاليات ساخر بها يوما آخر ، وحريص الحرص كله دائما أبدا على أن يؤكد أن الماديات هى قوام الحياة وعصبها بل هى الحياة ولا حياة بعدها أو قبلها وينعكس هذا التناقض على تصرفاته فترى مثاليته تجعله مؤدبا رقيقا يخشى أن يسىء إليك بقصد أو بغير قصد ويحس بالإساءة إحساسا دقيقا ومن ناحية أخرى فإن إيمانه العميق - فى الجانب الآخر - بأن الحياة ليست إلا المادة فإن ذلك كان يجعله لا ينفق القرش الواحد إلا كارها ويوده لو قتر على نفسه فى أمس ضروريات الحياة ليبقى له فى نهاية الشهر بضعة جنيهات » .

ويضيف صاحبنا فى دفتره ذلك وإنها - بالرغم من كونها فى البلينا - لحياة .. وإنها لتجارب ، والذى ارجوه الا تكون الحياة فى البلينا سببا فى صدأ النفس والعقل . ونرى صاحبنا بعد أن استقل فى شقة وحده يحاول التفلسف وهو يصف وحدته قائلا : إنى بطبيعتى أحب الوحدة وأنس إليها ولكن يبدو أن الوحدة شىء آخر مختلف بالكلية عن الشعور بالوحشة .. ويبدو أن الفارق بين الأمرين هو أن الأولى اختيارية تستطيع أن تخرج منها وقتما تريد والثانية إجبارية لا انفكاك للإنسان منها وأنا الآن فى الشقة الجديدة التى استأجرتها أخيرا وبعد أن سافر القاضى فلان بعد أن انتهت جلساته وبعد أن انصرف «الطباخ» بعد أن فرغ من أمر عشائى وبقيت وحدى .

فقد كانت هذه الوحدة حبيبة إلىَّ حين كنت أحس أنى منصرف إلى نفسى عن العالم وأن فى وسعى أن انصرف إلى العالم وأترك نفسى ولو لبعض الوقت ، ولكن هنا فى البلينا إلى أى شىء ينصرف الإنسان إذا أراد أن يخرج من وحدته ؟ إلى لا شىء ومن هنا كانت الوحشة وكان وقع الوحدة ثقيلا على النفس .

وليس هناك على أية حال شىء يخلو من فائدة فلعل فى الوحدة فائدة ولعل فيها سعة أكثر من الوقت للقراءة وتثقيف النفس ولعل فيها ترفيها أكثر للحس وتعميقا أبعد لمعانى الإيمان .

وتدفعه تلك الوحدة إلى مفاجأة كراسة مذكراته وكأنها صديق له فيقول فى بعض ما يكتب بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٥٣ : إلىَّ أيتها الكراس

فليس فى وحدتى هذه إلا أنت . وهكذا الإنسان يحاول أن ينفخ فى الجماد الحياة ليحس أنه يشاركه إحساسه وشعوره وقد كانت تمضى مدد طويلة لا أكتب فيها شيئا ولا أحس بالدافع يدفع يدى لتجذب هذه الكراس ثم تفتحه ولكنى هذه الأيام أود لو خلوت إليك يا كراسى وأحسست بك كأنك كائن حى أناجيه وأذهب معه فى فنون الحياة المختلفة إن أجمل ما فى الحياة أن يحس الإنسان بصلة نفسية بينه وبين كائن حى مثله ، وإن هذا الجمال ليغدو فى صورة أكمل وأتم حين يلتقى اثنان من جنسين مختلفين حين يلتقى رجل وامرأة ويحس كل منهما انه على صلة عميقة بصاحبه . هذه هى الحياة التى تؤهل للإنتاج والخصب .

وقد أراد الله لى وأرادت التربية ألا تتخلل حياتى مثل تلك الصلة وألا تكون المرأة فى نفسى غير ظل ما يلبث أن يقف حتى يغُز المسير .

وقد أراد الله لى إلى جوار ذلك رقة فى الحس ورهافة فى الاعصاب وذلك كله مما يدفع الإنسان نحو الحب ويجعله ضرورة من ضرورات حياته ومن هنا كانت فورات الألم التى اعتصرت نفسى فى فترات كثيرة.

والله لطيف بعباده ومن نعمه على الإنسان أنه لا يترك نفسه خاوية ، فقد عمرها بحبه والإيمان به ولم يحرمها ايضا من حب على الأرض تحس فيه أنها محبوبة كفاء ما تحب لقد وصلنى اليوم خطابان من الصديقين العزيزين فتحى ويحيى وكثيرا ما تصلنى خطاباتهما فترد إلىَّ

الحياة وتجعلني أحس بالصلة النفسية وقد عشت معهما اليوم في خطابيهما ووجدت في ودهما عوضا وفي اخلاصهما وصدق وفائهما ما يجعل الإنسان يستعيد ثقته بالحياة والأحياء وبأن الدنيا لم تقفر من خير ولم تخل من ضوء ينير الظلمات» .

هكذا كانت حياته تمضي في البلينا ، وهكذا كان يشعر بقلق عميق ووحشة غامرة لا يستطيع التغلب عليها إلا بالقراءة أو العمل أو الذهاب بعيدا مع الأحلام .

المستشارون يزورون معبد أبيدوس ... ولا يأكلون

لم يكن مـأمور البلينا فى ذلك الوقت هو بدوره شـخـصـية عـادية أو سوية، كان قد فاته الدور للترقية إلى الرتبة الأعلى، وكان نقله إلى البلينا بمثابة عقوبة تأديبية مقنعة، ومع ذلك فقد كان يظن فى نفسه انه أكبر من منصبه بكثير، وأن سوء الحظ وحده هو الذى ألقى به إلى مجاهل الصعيد، وأن كل من حوله لابد وأن يحملوا له مشاعر الإكبار. وكان الرجل مريضا أو أشبه بالمريض، وكان لابد وأن تكون علاقته بوكلاء النيابة فيها غير قليل من التوتر، وذلك أن وكلاء النيابة هم بحكم القانون يرأسون كل رجال الضبط القضائى فى دائرة عملهم، ومأمور المركز أحد هؤلاء ولم يكن المأمور راضياً عن ذلك ، فهو الأكبر سنا فى الواقع وهو الأكبر مقاما فى نظر نفسه، لذلك كانت العلاقة بينه وبين صاحبينا وكيلى النيابة مصدر شد وجذب باستمرار، وزاد من توتر العلاقة أن هذا المأمور لم يكن فوق مستوى الشبهات، وكانت الشائعات تقول: إنه ممن يطلبون الهدايا، إذا لم تقدم إليه طوعا، وكان مصدر هذه الشائعات هم أعوانه من رجال المركز أنفسهم.

وكان فى مدينة البلينا أسرة عريقة من أقباط مصر، وكان بعض أفراد هذه الأسرة من حملة الألقاب قبل الثورة، وكانوا من كبار ملاك

الأراضى الزراعية قبل قوانين الإصلاح الزراعى، وكان كبار هذه الأسرة من المعروفين بالكرم ودماثة الخلق، ويبدو أن السيد المأمور لم يقصر فى استغلال ذلك كله استغلالا كان حديث الناس فى دائرة المركز إن لم يكن فى دائرة المديرية كلها.

ويوجد فى البلينا معبد من أكبر المعابد الفرعونية – معبد ابيدوس – وفى يوم من الأيام طلب مستشارو دائرة جنايات محافظة سوهاج ترتيب زيارة لهم لذلك المعبد واتصل بى رئيس النيابة لكى أكون فى استقبالهم وفهمت منه – أى من رئيس النيابة – أنه هو ومدير المديرية سيكونون فى صحبة المستشارين الثلاثة. وكنت قد ترامت أمام هذه الدائرة فى بعض الجنايات الهامة. وتلقيت ثناءً منهم أسعدنى ورفع رأسى بين زملائى وأثار علىّ كثيرا من الحقد بين بعضهم.

وكان طبيعيا أن أهتم بهذه الزيارة كل الاهتمام، ذلك أن منصب المستشار بالنسبة لوكيل النيابة المبتدىء كان هو غاية المنتهى والأمل. وكان رئيس الدائرة هو المستشار «كامل البهنساوى» وكان ذائع الصيت واسع الشهرة. وكان قصيرا بشكل ملفت وكان حاد الذكاء. وكان عضوا الدائرة هما المستشار «حسين عفيف» الذى كان أديبا شاعرا والمستشار «محمد عبدالسلام» الذى أصبح بعد ذلك نائبا عاما.

وكان ركب المستشارين سيصل قرابة الظهر، وزيارة المعبد لن تستغرق أقل من ساعتين، وخطر فى ذهن صاحبنا أن يعد غداء خفيفا

كان يعلم سلفا أنه لا يليق بالزوار الكبار، ولكنه بذل فى ذلك أقصى ما يستطيع.

ووصل الركب، وكان صاحبنا فى استقبالهم عند محطة البلينا، ثم ركبوا جميعا السيارات قاصدين زيارة المعبد وبعد أن انتهت الزيارة فوجئ الجميع ببساط فخم قد مد فى ساحة قريبة من المعبد، ودعا المدير حضرات المستشارين لتناول الغداء على تلك المائدة الفارهة الفخمة التى كان عليها ما لذ وطاب من الخراف والديوك الرومى وغير ذلك من أطايب الطعام .

وبحركة رشيقة أخذنى المستشار «البهنساوى» من يدى وسألنى عمن أعد هذه المائدة العامرة، وقلت له إننى لا أعرف، وإننى فوجئت بها مثلهم، وإننى فى حرج بالغ، وتركنى سيادته وذهب هو وبقية المستشارين كأنهم يريدون أن يروا جزءا لم يروه من المعبد، وفهمت أنه أراد أن يترك لى فسحة من الوقت لأعرف من الذى أعد المأدبة الفاخرة.

وعرفت أن المأمور الهمام اتصل بعائلة «بطرس» وهى العائلة القبطية العريقة فى الإقليم، وطلب منهم إعداد هذه المأدبة الفخمة التى تليق بالزوار الكبار، وأنهم لم يتوانوا ولم يقصروا فيما طلبه السيد المأمور، بل إنهم بالغوا فى التحية والإكرام.

وأسررت إلى المستشارين بما عرفت، وأمام إلحاح المدير جلس المستشارون وجلس المرافقون على المائدة، والتهم المدير ما استطاع أن يلتهمه، وكان رجلا ضخم الجسم كبير «الكرش» وحذا حذوه من معه من

رجال البوليس، ولاحظت أن المستشارين الثلاثة لم يأكلوا شيئا غير «السلطة الخضراء» وإن تظاهروا أنهم يأكلون.

وقيل بعد ذلك أن بقايا المأدبة العامرة انتقلت بقضها وقضيضها إلى منزل السيد المأمور.

وكان درسا تعلمناه نحن وكلاء النيابة المبتدئين من أساتذتنا الكبار: كيف يوازنون بين التقاليد الواجبة الاتباع ، وبين عدم إحراج الآخرين.

وكان نائب المأمور على عكس المأمور رجلا طيبا متواضعا، واتضح أنه رقى من تحت السلاح كما يقولون: بمعنى أنه لم يدخل كلية الشرطة، وكان صاغا رغم أنه كان كبير السن قريبا من الإحالة إلى التقاعد، وكان الرجل مهذبا خفيض الصوت لا يتدخل فيما لا يعنيه. وكانت علاقته برجال النيابة طيبة، وكان من النادر أن يراه أحد إلا فى حجرته فى مبنى المركز: ذلك أنه كان لا يحب الاختلاط بأحد، ولا يحب إثارة المشاكل من قريب أو من بعيد.

وكثيرا ما عنف به المأمور رغم كبر سنه ولكن الرجل الطيب كان يلوذ بالصبر والصمت، حتى لا يعرض نفسه لبذاءات ذلك المأمور من ناحية ، ولكى يرضى فى نفس ذلك المأمور حب العظمة والرغبة القاتلة فى الرئاسة.

وكان فى المركز معاون إدارة من خريجى الحقوق، وكان هو القبطى الوحيد الذى له أهمية وظيفية فى هيئة مركز البلينا، وكان هو الآخر متواضعا لا يدعى المعرفة ، وكان مع ذلك يعتبر نفسه أقرب إلى أسرة

النيابة باعتباره حقوقيا منه إلى ضباط الشرطة. وكان المأمور كثيرا ما ينهره أمام موظفى المركز بل أمام الفلاحين الذين يترددون على المركز وكان الرجل لا يجد له ملاذا يشكو إليه إلا صاحبنا فى النيابة حيث كان يزوره فى مكتبه، وأحيانا يزوره فى منزله، وأحيانا ينتهزان الأمسيات التى ليس فيها حوادث تقتضى الانتقال للتحقيق لكى يسيرا على جسر ترعة قريبة من البلد.

ولكن أقرب موظفى المركز إلى قلبه كان ضابطا صغيرا حديث التخرج خفيف الظل إلى أبعد حد، مرحا كثير الكلام فى غير ابتذال، وكان ذلك الضابط المبتدئ رغم إحساسه بأنه قريب من صاحبنا إلى المدى الذى أصبح فيه فى وقت من الاوقات مؤنس وحشته، رغم ذلك فإن الضابط رجائى لم ينس أبدا أن يحفظ المسافة بينه وبين صاحبنا باعتبار انه ضابط شرطة حديث وصاحبنا هو وكيل نيابة المركز ورئيس رجال الضبطية القضائية فيه.

كانا يسيران معا على الجسر، وكانا يجلسان أحيانا على رصيف محطة البلينا، وكانا يتعمدان أحيانا الجلوس على ذلك الرصيف فى الوقت الذى يفترض فيه أن يصل إلى البلينا أحد القطارات السريعة القادمة من القاهرة والتى تحمل السائحين الذين يهبط بعضهم لزيارة معبد أبيدوس ويظل أغلبهم يواصل الرحلة إلى الأقصر وأسوان.

وكانا يجلسان على رصيف المحطة وعند وصول ذلك القطار الفخم الذى توجد به عربات نوم كانا يختلسان النظر إلى ركابه، وكان أغلبهم

من الأجانب، وبعضهم بطبيعة الحال من السيدات، وكان «رجائى» إذا رأى سيدة أجنبية هلل وصاح بصوت عال، وكان صوته أكثر ارتفاعا وأكثر تهليلا إذا كانت تلك الخواجاية ترتدى قميص النوم. وكثيرا ما كن يفعلن، وكان صاحبنا فى الأغلب يشاطره مشاعره ورغباته، وإن كان بطبيعة تكوينه النفسى من ناحية وطبيعة منصبه من ناحية أخرى أكثر تحفظا فى الإفصاح والتعبير عن مشاعره.

والحقيقة أن «رجائى» بخفة دمه وانطلاقه من ناحية وكرهه لمأمور المركز من ناحية أخرى، وحرصه على الاقتراب من صاحبنا كلما اتيحت له الفرصة ، الحقيقة أن «رجائى» أصبح بذلك كله أقرب الناس إليه فى مركز البلينا حتى أنه كان عندما يسافر إلى القاهرة يتصل بأهله فى التليفون ليطمئنهم عليه، وقد كان وكلاء النيابة أكثر ترددا على القاهرة من ضباط البوليس الذين كانوا قلما يتاح لهم فى غير الإجازة الصيفية السفر إلى القاهرة .

وقد توثقت العلاقة بين صاحبنا وبين «رجائى» حتى بعد أن تركا البلينا، وظلت بضع سنوات، ثم فترت كما تفتر العلاقات التى تنشأ فى ظروف معينة واستجابة لمثل هذه الظروف.

وبعد سنوات طوال، وبعد أن ترك صاحبنا النيابة العامة وتشعبت به الطرق، ووصل إلى ما وصل إليه من مناصب، كان فى مكتبه للمحاماة ذات مساء، وإذا بسكرتيرته تدخل عليه ومعها صورة له وهو شاب يافع، وتقول له إن الذى جاء بهذه الصورة فى الخارج ويريد أن يقابله، وكان

خلف الصورة إهداء منه إلى «رجائي» وكان هذا الإهداء يرجع إلى أكثر من ثلاثين سنة مضت.

وفرح فرحا عميقا وهو يستقبل السيد اللواء واستعادا الذكريات التي مرت بهما في تلك السنين الطوال، وفي آخر الجلسة أبدى السيد اللواء رجائي أنه يريد أن يوسطني في أمر لدى وزير الداخلية آنذاك اللواء زكي بدر رحمه الله وغفر له، واستمعت إليه، ثم طلبت زكي بدر في التليفون وكلمته ولكنه لم يستجب لوساطتي، ولست أدري هل كان على حق، أم أن «رجائي» كان هو صاحب الحق.

وما أظن أنني رأيت «رجائي» بعدها، ولكني عرفت أنه ترك خدمة البوليس بعد أن قضى فترة في رتبة اللواء وفي منصب مهم من مناصب وزارة الداخلية، حيث كان فيما أذكر مديرا لمصلحة السجون.

بين البلينا .. وأبى طشت
رحلة البحث عن القاتل !

ولم يكن اختصاص نيابة البلينا، مقصورا على مركز البلينا بل كان يمتد إلى مناطق شاسعة شرق النيل. كانت وأظن أنها لاتزال تسمى «أبو طشت» . ولم تكن أبو طشت هذه قد أصبحت مركزا إداريا بعد كما هو الحال الآن، ولكنها كانت نقطة بوليس تابعة لمركز البلينا، ومن ثم كانت من حيث التنظيم القضائى جزءا من اختصاص نيابة البلينا ومحكمة البلينا الجزئية إلى أن أنشئ فيها بعد ذلك مركز إدارى ونيابة ومحكمة جزئية.

وكان أهم ما يعنى الحكومة أنذاك – وقبل ثورة ١٩٥٢ بصفة خاصة – أنه يوجد بتلك الناحية «تفتيش» يضم آلاف الأفدنة المملوكة لإحدى أميرات الأسرة المالكة.

وكان لذلك التفتيش إدارة تابعة للأميرة أو لمن تعهد إليه الأميرة بذلك، وكان فيه عدد من الموظفين منهم المهندسون الزراعيون والأطباء البيطريون وغير ذلك، وجلهم من أهل أبى طشت وأقلهم يأتى من مناطق بعيدة.. وكان بين العاملين فى ذلك «التفتيش» مهندس زراعى روسى ينحدر من الروس البيض الذين هاجروا من روسيا عقب قيام الثورة البلشفية. والله وحده يعلم كيف ارتبطت أسبابه بالأميرة المصرية وكيف انتهى به المصير إلى تلك المجاهل شرق النيل فى قرية أبى طشت.

وكانت القوانين التى تجرد الأسرة المالكة من ملكياتها وقوانين الإصلاح الزراعى قد صدرت. ولكن الأمر كان فى بدايته وكان كل شئ قلقا لم يستقر بعد ولم تتضح الصورة الجديدة بالنسبة لأمر هذا التفتيش الذى بقى فى الواقع على حاله كما كان الأمر قبل أن يصدر قانون نقل أملاك أسرة محمد على الى «الشعب»: ذلك أن «الشعب» لم يكن محددا أنذاك، هل هو وزارة المالية أم هو هذا الفرد أو ذاك من ذوى النفوذ.

كان التفتيش مازال يعرف باسم الأميرة لدى أهالى المنطقة. ويبدو أن الأميرة كانت من اللاتى يقمن خارج مصر، وكان أحد وجهاء البلدة الذى صار بعد ذلك عمدة ثم نائبا هو ممثل الأميرة والمتحدث باسمها وقد أصبح الشخص نفسه بعد انتقال الملكية نظريا إلى «الشعب» هو صاحب الكلمة النافذة.

- وفى ليلة من الليالى، وصاحبنا يذهب مع خيالاته وأفكاره فى وحدته كل مذهب، إذا به يتلقى إشارة بمقتل الخبير الروسى فى ذلك التفتيش.

ولم يكن بد من الانتقال والانتقال الفورى إلى مكان الحادث.

وكان الانتقال من البلينا إلى أبى طشت أمراً جللا.

كان هناك طريقان: أحدهما يجعلك تخرج من مديرية سوهاج وتتجه جنوبا إلى نجع حمادى ثم تعبر النيل عن طريق قناطر نجع حمادى فإذا وصلت البر الشرقى اتجهت شمالا من جديد إلى مجاهل أبى طشت. وكان هذا الطريق رغم أنه كان يقطع كله بالسيارة، فإنه كان يأخذ وقتا

طويلا. أما الطريق الآخر فكان لابد معه من عبور النيل من عند البلينا فى مركب شراعى يعبر بك إلى البر الشرقى، وفى البر الشرقى تنتظرك سيارة أجرة من سيارات الأرياف غير محكمة النوافذ ولا الأبواب وتصل بك إلى حيث تريد، أو إلى ما يقرب مما تريد . وقد آثر صاحبنا أن يختار هذا الطريق الثانى بحسبانه أسرع فى الوصول إلى مكان الحادث.

وحملته سيارة المركز إلى حيث كان ينتظر سكرتير التحقيق، ثم اتجهوا إلى شاطئ النيل، وهناك كانت تنتظرهم مركب شراعى. وكان الليل قد أقبل والبرد قارسا وصاحبنا من يومه يخشى نزلات البرد ويعمل لها ألف حساب، وقد تدثر ما استطاع له أن يتدثر. ولم يكن السد العالى قد أقيم بعد، وكان النيل مازال واسع المجرى غزير الماء. ووصلت المركب بعد فترة غير طويلة إلى البر الآخر حيث وجدوا سيارة من سيارات التفتيش فى انتظارهم فاستقلوها إلى مكان الحادث.

وبدأ صاحبنا بالمعاينة ، عاين المكان الذى كان يسكنه المهندس الروسى الذى جاء البلاغ بقتله، وكان المكان أشبه بفيلا ريفية صغيرة، وكان يسكنها وحده، حيث كان «الخدم» ينصرفون بعد أن يتناول الخبير عشاءه ويأوى أو يهم بأن يأوى إلى فراشه..

وبعد أن وصف المكان انتقل إلى حيث توجد الجثة، فوجدها مسجاة على سرير قد أغرقته الدماء، وكان واضحا أن رصاصة قد استقرت فى رأس الخبير الروسى فأردته قتيلا، ولم يكن البحث عن الآلة المستعملة

فى إطلاق الرصاص على القتيل عسيرا فقد وجدها على بعد خطوات من السرير الذى كان الجثمان مسجى عليه، وكشفت له المعاينة أن ثمة اثار دماء فى حجرة أخرى مجاورة، ولم يستطع أن يهتدى من أين جاءت هذه الدماء، وهل هى دماء القتيل نفسه . أم أنها دماء أحد آخر لعله الجانى، ولعل هذه الدماء من آثار اشتباك أو مقاومة.

وحاول أن يرى فى جسم المجنى عليه آثار مقاومة أو عنف فلم يجد شيئا من ذلك قط وأثبت كل شئ رآه أو لاحظه، وكان من المعروف عنه أنه لا يترك شاردة ولا ارادة إلا وأثبتها فى معاينته حتى تكون أقرب الصور إلى حقيقة الواقع عندما يقرأ القضية بعد ذلك المستشارون والمحامون ومن تقودهم أقدارهم لقراءتها لسبب أو لآخر.

وكشفت المعاينة أن الفيلا كانت بسيطة الاثاث. الشئ غير العادى أنه كان يوجد بها «فونوغراف» أو ما يقال له أحيانا «جراموفون» مما تدار عليه الاسطوانات لسماع الموسيقى. وكان إلى جوار تلك الآلة عدد من الاسطوانات كلها غير عربية كما كان واضحا من المكتوب عليها. وإلى جوار الطاولة التى وضع عليها الجراموفون والاسطوانات وجد دولابا صغيرا به عدد من الأكواب وعدد من الزجاجات أدرك بحدسه أنها مشروبات روحية وإن لم يستطع تبين أنواعها على وجه التحديد، فلم تكن له خبرة بأنواع الخمور ولا بزجاجاتها، ولكن كان واضحا أن هناك أكثر من نوع من هذه الزجاجات. وقد علم فيما بعد أن من بين هذه الزجاجات كانت «الفودكا» و«الويسكى» و«الكونياك» وكان بعض الزجاجات ممتلئا وبعضها قد أخذ منه قدر ضئيل احيانا أو كثير من بعض الزجاجات أحيانا أخرى.

وأمر صاحبنا بتحرير كل ما كشفت عنه المعاينة خاصة المسدس الذى وجده بالقرب من سرير المجنى عليه، وكذلك الدولاب الذى توجد به زجاجات المشروبات الروحية.

وحاول وكيل النيابة أن يجد من المعاينة ما يدله على كيفية حدوث الواقعة، ولكن المعاينة رغم دقتها ورغم الجهد الذى بذله فيها لم تكشف له عن شئ.

وكان لابد له أن يبدأ التحقيق.

وكان أذان الفجر قد انطلق فى سماء الريف الهادئة النائمة فهز النفوس وبدأت الحركة تدب فى أوصال القرية وبدأ الناس يشعرون بما حدث ويدركون أن النيابة قد جاءت لأن حادثا غريبا قد وقع فى تفتيش الأميرة.

وبدأ صاحبنا التحقيق بأن أملى على السكرتير الديباجة المعتادة التى يثبت فيها وكيل النيابة نص الإشارة التى أبلغت إليه ثم قراره بالانتقال إلى التحقيق ثم وصف موجز لكيفية الانتقال حتى الوصول إلى مكان الحادث. ثم يشير بعد ذلك إلى المعاينة التى أفرد لها محضرا خاصا.

وبدأ التحقيق بسؤال أول من أبلغ عن الحادث من رجال الشرطة .

وكان الذى أبلغ نقطة البوليس هو أحد خفراء التفتيش ومعه رجل، ممن يقومون على خدمة الخبير الروسى هو أول من رأى المهندس مضرجا فى دمائه بعد أن سمع طلقا ناريا فى هدوء أول الليل.

ولم يأخذ استجواب الخفير وقتا طويلا، وبدأ وكيل النيابة يسأل الرجل الذى كان أول من شاهد القتيل. سأله عن سبب دخوله الفيلا بعد

أن نام الناس. وأطال فى استجوابه حول هذه النقطة وسأله عن علاقته بالقتيل. ثم سأله عن عاداته، وماذا كان يفعل قبل النوم ، وماذا أكل فى تلك الليلة ومن الذين جاءوا إليه أو طلبهم هو، وماذا قال لهم وماذا قالوا له، وحاول أن يصل من ذلك كله إلى شئ يكشف له غموض الحادث، فلم يستطع أن يصل إلى شئ.

وسأل الشخص الذى اعتبر بمثابة مدير التفتيش. وكان من أهل البلد وكان له مسكن خاص غير بعيد عن مسكن الخبير القتيل. وكان همه أن يعرف من هذا المدير علاقات الخبير الروسى مع بقية موظفى التفتيش. ومع الفلاحين الذين يحتكون به لكى يبدأ فى استجوابهم بعد ذلك.

وكان ضوء النهار قد بدا وكان وكيل النيابة قد بلغ منه الإعياء أى مبلغ وكان لابد وأن يقفل المحضر ثم يعود إلى البلينا ليأخذ قسطا من الراحة ثم يستأنف التحقيق.

وقبل أن يترك مكان الحادث قرر انتداب الطبيب الشرعى لكى يقوم بتشريح الجثة، ولكى يحاول تحديد سبب الوفاة ، ولكى يحدد هل الدماء الموجودة على السرير تحت القتيل هى ذات فصيلة الدماء التى وجدها فى الحجرة الأخرى، أم أن الفصيلتين مختلفتان . كذلك فقد قرر ذلك القرار التقليدى وهو تكليف رجال المباحث بمواصلة البحث والتحرى وأمر بأن يحضر إلى مقر النيابة من رأى أن يسألهم من المحيطين بالخبير أو المتصلين به أو المترددين على مكان الحادث فى تلك الليلة منذ

أن تناول الخبير عشاءه، وإلى أن اكتشف الحادث من اكتشفه. كما قرر مواصلة سؤال مدير التفتيش فى سراى النيابة وأمر بإحضار من رأى إحضارهم إلى هناك.

وعاد صاحبنا إلى منزله فى البلينا واستلقى على سريره. وحاول أن ينام ولكنه رغم إرهاقه لم يعرف جفنه طعم النوم، وترك جسده ممدداً وعينه مثبتة على سقف الحجرة التى كانت اشعة الشمس قد ملأتها وأزالت برودة جسمه وبثت فيه بعض الدفء. ولما أدرك أنه لن ينام قام وأخذ حماما ثم أفطر إفطارا سريعا وكان سكرتير التحقيق قد اتصل به فى تلك الاثناء من سراى النيابة ليخبره أن عددا كبيرا من رجال الأمن بعضهم من القاهرة، وبعضهم الآخر من المديرية قد حضروا إلى النيابة يريدون أن يتابعوا التحقيق.

ولم يستغرق غير بضع دقائق حتى كان فى سراى النيابة حيث سلم على الموجودين ثم أعاد فتح محضر التحقيق وسأل عن مدير التفتيش فوجده حاضرا فاستدعاه لاستكمال سؤاله.

وفهم من أقواله أن الخبير الروسى فى الأيام الأخيرة وخاصة بعد أن بدأ رجال الاصلاح الزراعى ورجال مصادرة أملاك الأسرة المالكة يترددون على التفتيش بين الحين والحينُ فهم من أقوال المدير أن القتيل كان كثيرا ما يرى شارد الذهن ساهما وكأنه لا يتوقع خيرا. وأضاف المدير أن الخبير الروسى كان لا يخفى تشاؤمه بعد قيام الثورة، وأنه كثيرا ما تشاجر مع مهندس زراعى صغير كان من المتحمسين للثورة . وكثيرا ما قال له «أبشروا بالشيوعية قريبا».

والتقط صاحبنا تلك العبارة عبارة مشاجرة الخبير الروسى مع هذا المهندس الزراعى، وراح يستجليها ثم أصدر أمرا بإحضار ذلك المهندس على الفور، وانتدب ضابط مباحث المركز لتفتيش منزله.

ودقق كثيرا فى معرفة عادات القتيل أثناء تناول العشاء لعل ذلك يضع يده على شئ يهديه وعرف من المدير الذى كان يتناول العشاء معه أحيانا وعرف أيضا من خدم الفيلا أن الرجل كان فى الفترة الأخيرة يكثر من الشراب سواء على العشاء أو بعد العشاء، ولكن أحدا لم يقل إنه رآه «سكرانا» فى يوم من الأيام.

وجئ بالمهندس الزراعى الصغير وتبين أنه من أهل القرية، وأنه التحق بالتفتيش منذ فترة قصيرة، وعندما أدخلوه غرفة التحقيق كان بادى القلق والاضطراب، ذلك أنه يبدو وأنه سمع بما قاله المدير عن مشاجرته مع الخبير الروسى وعن أنهما كثيرا ما كانا يختلفان حتى فى أمور الزراعة.

وبعد السؤال التقليدى عن الاسم والعمر والعنوان، سأله وكيل النيابة عن علاقته بالقتيل، فقال أنها علاقة مرءوس برئيسه، وهى علاقة عادية. وأضاف أن الرجل رغم كونه روسيا إلا أنه كان طيبا وسأله وكيل النيابة وما التناقض بين أن يكون الرجل روسيا وطيبا فى الوقت نفسه فلم يجد الشاب جوابا.

ثم أخذ يسأله عن تفاصيل خلافاته مع القتيل، فنفى أن تكون بينهما خلافات بالمعنى الصحيح، وإنما هى وجهات نظر كان يبديها أحيانا ثم ينفذ ما يأمر به الخبير الروسى باعتباره أكثر خبرة وأكبر سنا وباعتباره رئيسه فى العمل، وكان فى حرص هذا المهندس الزراعى على

نفى وجود خلافات بينه وبين القتيل ما آثار بعض الشك فى نفس صاحبنا فأطال فى سؤاله ودقق معه حول ليلة الحادث، وكيف قضاها وأين قضاها. وما اذا كان يستطيع أن يحدد الأوقات والأماكن التى كان موجودا بها تلك الليلة منذ الغروب وإلى أن ذهب إلى نومه.

وأجاب المهندس الزراعى على ذلك كله إجابات قد تكون صحيحة. وقد تكون مرتبة ومعدة بعد أن تنامى إلى علمه ما قاله المدير عن سابق مشاجرته مع الخبير الروسى.

وسأل وكيل النيابة كل من كانت له صلة بالقتيل سواء من الذين يتعاملون معه أو يترددون عليه أو يقومون على خدمته، ولم يقدم ذلك كله كثيرا أو قليلا.

وظل الأمر محاطا بالغموض خاصة وأن رجال المباحث لم يتقدموا بتحريات شافية توحى باتجاه معين.

ولم ينته من تحقيقه فى ذلك اليوم إلا والنهار يوشك على أن ينتهى وقواه كلها الذهنية والجسدية قد انهكت انهاكا شديدا وحرص قبل أن يقفل المحضر أن يطمئن إلى أن الطبيب الشرعى قد انتقل من سوهاج إلى أبى طشت. وأنه عاين الجثة ، ولما اطمأن إلى ذلك وجاءته إشارة رسمية تفيد حدوثه، أمر بدفن الجثة ثم أقفل محضره وأخذ يفكر فى القرارات التى سيتخذها.

وكان أهم ما يواجهه هو أمر التصرف مع المهندس الزراعى الشاب هل يخلى سبيله هل يأمر بحبسه احتياطيا أربعة أيام على ذمة التحقيق. أم ماذا يفعل معه؟ .

إنه غير مطمئن إلى أن هذا الشاب له دخل فى الحادث.

ومع ذلك فمن فعلها، هل جاء عفريت من الجن؟

وثار فى نفسه خاطر آخر لكنه أخفاه ولم يتحدث به إلى أحد.

وقرر وهو غير مقتنع تمام الاقتناع أن يحبس ذلك الشاب أربعة أيام احتياطيا على ذمة التحقيق، وبرر ذلك لنفسه بأن الحكمة من الحبس الاحتياطى هى الاستيثاق من الظروف المحيطه بالمشتبه فى أمره إلى أن ينجلى الأمر على نحو أو آخر، ولكنه فى نهاية الأيام الأربعة لم يستطع إلا أن يفرج عنه فقد كان ضميره يؤرقه، وكانت قناعته عميقة ببراءة ذلك الشاب.

وكان دائم الاتصال بالطبيب الشرعى يسأله عما استبان له.

وأخيرا جاءه تقرير الطبيب الشرعى يؤكد له ما كان يثور فى نفسه من خواطر لم يحدث بها أحدا.

لقد شرب الرجل فى ليلته أكثر مما يحتمل. وقد اختلطت الأمور عليه وزاد الشرب من اكتئابه فحاول أن ينتحر بقطع شريان فى يده بموسى صغير وجدها الطبيب الشرعى فى سترته. ولكن شيئا حدث وتوقف نزيف الدم، وانتقل الرجل من حجرة إلى حجرة. ثم ألقى بنفسه على سريره وهاجمته هواجسه فمد يده وأطلق رصاصة على رأسه فأردته قتيلا.

وأقفلت أوراق التحقيق.

مع العقاد ... وتولستوى في البلينا

كانت إقامته فى استراحة الرى من أجمل فترات وجوده فى البلينا ومن أكثرها تفكيرا وقلقا وصراعا بين العديد من الحالات النفسية. كانت الاستراحة على النيل مباشرة وحولها مزارع من كل ناحية وأشجار باسقة ونخيل شاهق . لم يكن يزعجه فى ذلك المكان الرائع إلا «الناموس» الذى لم تكن تجدى معه كافة الاحتياطات.

ومع ذلك فلم يكن هناك أجمل لديه ولا أمتع من أن يجلس فى «فراندة» الاستراحة ويحملق فى اللانهائى ويذهب إلى حيث شاء له خياله الشارد أن يذهب.

وقد كان صاحبنا منذ نعومة أظافره محبا للقراءة محبا للتفكير. قرأ لأبى العلاء وتأثر به، وقرأ للمتنبى وتمتع به وعاش مع طه حسين والعقاد والمازنى فى كتبهم واستغرق مع الحكيم فى كتابه «زهرة العمر» الذى أخذ صاحبنا من أطرافه واستولى عليه حتى أنه قرأه مرات عديدة دون ملل أو شبع.

وكان وهو فى الجامعة يتردد على مجلس العقاد ويستمع إلى محبى الفلسفة ومناقشاتهم ، وكان كثيرا ما يدير بينه وبين نفسه العديد من هذه المناقشات.

وكانت خلوته إلى نفسه عندما يمر يوم بغير انتقال لتحقيق حادث من الحوادث تعنى أن يعيش وسط هذا الزخم من المشاعر والأحاسيس التى كانت أحيانا تعنته إعناتا شديدا.

وكانت حياته الخالية من الحب أكبر مصادر الحزن العميق فى نفسه وكان ابتعاد أمله الذى عاش يحلم به طوال حياته الماضية وهو العمل فى الجامعة مصدرا آخر من مصادر ألمه بل واكتئابه أحيانا وشعوره بالظلم وهو شعور مرير جعله دائما يتعاطف مع المظلومين ويود لو استطاع أن ينجدهم جميعا وأن يرفع عنهم معاناتهم.

وأحيانا كثيرة كان يحس أن حياته فارغة تافهة، رغم المظاهر الخارجية وأنها لا معنى لها وكثيرا ما كان يتساءل هل هذه الحياة تستحق أن يحرص عليها الإنسان وأن يتمسك بها؟ ألم يكن ذلك المهندس الروسى الذى أنهى حياته بيده على حق. وكان يستعيذ بالله من هذه الخواطر التى تنتابه بل وتستبد به أحيانا حتى لايكاد يستطيع لها دفعا.

كان مرهفا إلى أبعد حد، وكانت تلك الحساسية المفرطة مما لا يتفق مع عمل وكيل النيابة فى صعيد مصر حيث تسود الجريمة ويسود العنف وتغلظ العواطف والمشاعر حتى تكاد تختفى فى تلافيفها كل نزعات الإنسانية.

ومع ذلك فقد كان حريصا على أداء عمله كما ينبغى له ، كان يقدر خطورة ذلك العمل، وكان إحساسه بالمسئولية عميقا وكان ذلك فى حد

ذاته مصدر إرهاق شديد له. لم يكن يتخذ قراراته فى تحقيقاته بخفة ورعونة كما كان يفعل بعض الزملاء وكان حين يصدر قرارا بحبس متهم أربعة أيام يحس وكأنه يصادر من حريته هو ويقيد حيلته هو وليس حياة الآخرين وحريتهم .

ورغم حبه للوحدة ومقدرته على مغالاتها كان يضجر بها أحيانا وحين كان يفكر فى الترويح عن نفسه والخروج بها مما هى فيه كان يذهب إلى نجع حمادى، وكانت نجع حمادى تقع إلى جنوب البلينا مباشرة ذلك أنها أول مركز من مراكز محافظة قنا.

وكانت شقيقته تعيش فى نجع حمادى مع زوجها الذى كان يعمل فى القضاء أيضا، وكانت الكثرة من أعضاء نيابة نجع حمادى على معرفة به خاصة «مصطفى» الذى عين معه فى نفس القرار والذى ركب معه ذات القطار من القاهرة ونزل صاحبنا فى محطة أسيوط ليقضى اليوم مع شقيقه هناك واستمر «مصطفى» إلى قنا حيث بدأ عمله ثم نقل بعد ذلك إلى نجع حمادى ليعمل فى نيابة جزئية كما حدث لصاحبنا عندما نقل من سوهاج إلى البلينا.

وكانت «نجع حمادى» تمتاز بميزة لا تدانيها فيها أى نيابة أخرى فى جنوب الصعيد، كانت هناك شركة السكر وكان للشركة ناد جميل رائع به حمام سباحة كبير وكانت الشركة فيها كثير من الأجانب «رجالا ونساء» وكان هؤلاء وهؤلاء ينزلون إلى حمام السباحة، وكان سعيد الحظ هو الذى يحضر إلى النادى فى تلك الاثناء ليرى ما لا عين رأت ولا أذن

سـمـعت ولا خطر على عـقل أحـد من أهل نجع حـمـادى أو البلينا أو الصعيد كله.

كـان وكـلاء النيـابة يذهبـون إلى ذلك النادى مـا وجـدوا إلى ذلك من سبيل وكانت شركة السكر سعيدة باستضافتهم واستضافة ضيوفهم من أمثال صاحبنا الذين يفدون من نيابات أخرى قريبة وكانت الساعات التى يقضونها فى النادى من أجمل ساعات العمر آنذاك، والحقيقة أن الإنسـان كـان عندمـا يخطو إلى داخل النادى يحس أنه انتقل انتـقـالا كاملا من صعيد مصر إلى الريف الإنجليزى مباشرة.

ولا شبهة فى أن المسافة بعيدة كل البعد بين المكانين بل ولعلها أبعد من المسافة بين السماء والأرض أو هكذا كان يتصور صاحبنا وزملاؤه.

وذهب إلى هناك يوم الخميس وبعد أن سلم على شـقيقته وزوجـها ذهب إلى النادى لينضم إلى مجموعة وكلاء النيابة هناك.

وفى تلك الليلة شـرب الموجودون من وكـلاء نيابة نجع حمـادى حتى استبد بهم السكر وفقدوا وعيهم تماما، وبينما هم كذلك إذ بمفاجأة وكأنها صدمة هوت على رؤوسهم جميعا.

إشـارة من المركز بحـادث قـتل، ولابد من الانتـقـال وبدء التـحـقيق، وكيف يتم ذلك وأصحابنا يتمايلون من شدة السكر ويكادون لا يتحققون من مواقع أقدامهم. وكان هو الوحيد الذى لم يشرب وهو الوحيد الذى يحتفظ بعقله وبرأسه على كتفيه، ولكنه من نيابة البلينا التى تتبع دائرة سوهاج والحادث وقع فى اختـصـاص نيـابة نجع حـمـادى الواقـعة فى

دائرة قنا، ولا يستطيع وكيل نيابة البلينا أن ينتقل للتحقيق إلا بانتداب من المحامى العام فى أسيوط، وما هو السبب الذى يمكن أن يقال للمحامى العام ليصدر مثل هذا القرار. وأحيط بالعقلاء منهم ماذا يفعلون.

واقترح المأمور اقتراحا أنقذ الموقف اقترح أن يذهب صاحبنا إلى مكان الحادث وأن يصطحب معه فى السيارة أحد وكلاء نيابة نجع حمادى وأن يفتح محضر التحقيق باسم هذا الأخير حتى يطلع الصباح ويفيق من سكرته، ولم يكن هناك حل آخر، ركب صاحبنا مع المأمور وكأن الأقدار لم تشأ له أن يتمتع بتلك الليلة فى نادى شركة السكر. وإنما شاءت أن تلاحقه الحوادث والتحقيقات حتى عندما أراد أن يهرب منها يوما أو بعض يوم.

وذهب بالفعل ومعه أحد وكلاء نيابة نجع حمادى نائما أو كالنائم ولكنه غائب عن الوعى على كل حال، وتركه فى السيارة وأجرى هو المعاينة وفتح المحضر باسم الزميل «السكران» ولما انتهى من المعاينة بدأ التحقيق واستمر فيه حتى الصباح وعندئذ كان صاحبنا قد بدأ يفيق فسلمه المحضر لكى يوقع صفحاته ثم يكمل التحقيق.

وأخذ يسأل نفسه هل كان على حق فيما فعل، ألم يرتكب تزويرا؟؟ ولكن ماذا كان يمكن أن يفعل.؟

إن عدم تصرفه على نحو ما تصرف كان يعنى تهديد مستقبل أعضاء نيابة نجع حمادى جميعا، ولذلك فإن المأمور عندما اقترح هذا

الاقتراح لم يتمهل حتى يفكر فيه وفى عواقبه وإنما استجاب له على الفور ، وقد ترك هؤلاء الزملاء جميعا عملهم فى القضاء ببلوغ سن التقاعد وذهب بعضهم إلى بعض البلاد العربية ولكنهم مازالوا يذكرون ذلك الحادث الفريد كلما التقوا وجمعت بينهم ظروف الحياة.

وقضى بقية يوم الجمعة فى منزل شقيقته ، نام بعض الوقت وأنس بحبهم بعض الوقت وفى صباح السبت كان فى مكتبه من جديد فى نيابة البلينا وعاد إلى وحدته وأفكاره وأشجانه.

وما أكثر ما تناوبته الأفكار والهواجس وما أكثر تباعد تلك الأفكار وتناقضها أحيانا.

كانت تمر به لحظات يقين عميق وكانت تعصف به لحظات شك قاتل.

فى لحظة من لحظات اليقين كتب فى كراسة مذكراته ما أنقله بنصه بتاريخ ١٣ يناير ١٩٥٤ «السعادة هى الإيمان هذه هى الحقيقة الكبرى فى الحياة أحسست بها فى لحظات شقائى لأنى كنت حينئذ أبعد ما أكون عن الإيمان، الإيمان بأى شئ، وأحسست بها فى لحظات سعادتى لأنى كنت حينئذ أقرب ما أكون إلى الإيمان» .

«وبقدر موضوع الإيمان تكون السعادة ولا موضوع أكبر من الله.. حقا وصدقا الله أكبر ولا قوة ولا سعادة ولا عزة كما هى فى الإيمان بالله».

الإيمان بالله حسا وبداهة وفلسفة ، الإيمان حسا لأنى أحسست بها فى نفسى.

والإيمان بداهة لأن الإيمان رضا وتسليم والبداهة تهدى إلى الرضا والتسليم، وليس فى السعادة عنصر أروع من الرضا والتسليم.

والإيمان فلسفة لأن الذى يؤمن بالقوة المطلقة والخير المطلق ويؤمن أنه مؤيد من لدنهما يحس فى أعماقه بالقوة والخير وليس بعد الإحساس العميق بالقوة والخير سعادة لمن يطلب السعادة».

هذا هو ما كتبه أنذاك ويبدو فى كتابته تلك أنه كان تحت تأثير قوى من العقاد حتى أنه ليستعمل بعض عباراته أو قريبا منها فيما كتب.

ولكن تلك المشاعر الطيبة العميقة التى توحى باليقين لم تكن مستمره ولكنها كانت تخلى مكانها أحيانا فى نفسه لكثير من مشاعر الشك والقلق والبوار.

كان اليقين يتبدد وكان الاستقرار يتبخر وكان يحل محلهما شك قاتل مدمر يوشك أن يقتلع اليقين من جذوره ويعصف به وبنفسه عصفا شديدا.

شك بالحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة، شك فى كل شىء، وأن نفسه لتتمزق وأن عقله ليصاب بإرهاق ما بعده إرهاق ولم يكن له منجاة من ذلك كله إلا أن يغرق فى العمل أو فى القراءة أو فى الكتابة.

وفى تلك الفترة قرأ رواية «البعث» لتولستوى فى ترجمة عربية جيدة ليس يذكر الآن من قام بترجمتها وأثرت فيه تأثيرا بعيدا.

وأنه ليكتب فى مذكراته عن تلك الرواية «انتهيت منذ لحظات من قراءة قصة البعث» لكاتب الإنسانية الخالد «تولستوى» وقد بدأت فى

قراءتها أمس وانتهيت منها مساء اليوم رغم أنها لم تكن شاغلي الوحيد.

إنها قصة خالدة من غير شك هذا هو فن الإبداع الذي يستحق الخلود والذي لابد وأن يخلد، ولن يخلد هذا الفن إلا لسبب واحد هو أنه يعالج موضوعا خالدا: ذلك هو النفس البشرية في قوتها وضعفها، النفس البشرية حين تؤمن بالمبدأ فتقوى به وتسمو حتى على ذاتها، والنفس البشرية حين تتجرد من كل مبدأ ومن كل فكرة وتصبح الحياة لديها لذة ومتعة فتسفل وتسفل وتمعن في الشر ولا تكون مصدرا لغير الألم والعذاب لنفسها ولغيرها من مخلوقات الله. كم كان رائعا تولستوي وهو يتكلم عن الطبيعة البشرية وما تحويه من متناقضات، كم كان رائعا وهو يشبه الإنسان بالنهر يضيق حينا ويتسع حينا ويعمق ويضمحل حينا، يعني بذلك أنه من غير الميسور أن يوصف إنسان بوصف واحد يمكن أن يدوم.

إن هذا الرجل في قصته هذه كان يلمس الأغوار البعيدة للنفس البشرية حين عالج نفس البطلة في سقوطها وفي نجاتها الأخيرة وردتها إلى الخير. وحين عالج نفسية البطل والصراع العنيف يعتور حياته . إنه حين عالج ذلك كله وحين جعل الحب هو طريق الهداية والخير كان رائعا وكان إنسانيا يؤمن بمستقبل الإنسانية وخيرها ويجعل هذا المستقبل مرتبطا بالإيمان وبالحب.

ولقد كان تولستوي ساخرا رائع السخرية حين وصف قضاة المحكمة ومحلفيها في روسيا القيصرية وكيف كانوا يفصلون في مصائر الناس..

ولست أدرى هل كان تولستوى مصيبا فى كل آرائه فى هذه القصة الرائعة، فمن المسائل الخطيرة التى عالجها والتى لا أذهب مذهبه فيها – ولاحظ هنا اعتداده بنفسه ومعارضته لتولستوى العظيم ، مسألة الملكية الخاصة للأرض. إن تولستوى ينكر الملكية الخاصة ويجعلها أصلا لكل الشرور التى صورها فى قصته.

وليس من شك أن الملكية الخاصة على إطلاقها تؤدى إلى شر مستطير، ولكن الملكية الخاصة فى الحدود المعقولة أمر تحتمه الطبيعة البشرية فيما أعتقد ، أن المجتمع الروسى الذى أوحى لتولستوى بكتابة قصته كان مجتمعا بالغ الفساد وهذا هو الذى دفع تولستوى إلى مهاجمة الملكية الخاصة وانكارها نكارا مطلقا ودعاه إلى محاربتها تلك الحرب القوية فى قصته هذه الخالدة «البعث».

ويستطرد صاحبنا فى تعليقه على رواية «البعث» الخالدة لتولستوى قائلا: إن الملكية الخاصة ليست شرا محضا كما أنها ليست خيرا محضا، ولست أعتقد أن هذه الأرض التى نعيش عليها مما يحتمل أن يعيش عليها الخير المحض أو الشر المحض ولكنها مزاوجة بين الأمرين فإن تغلب الخير فى شئ فهو المطلوب. والملكية الخاصة مطلوبة إلى حد ما بشرط أن لا تنقلب إلى صورة من صور استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

لقد أتاح لى تولستوى متعة ما أظن أنه فى إمكان من لم يسعده حظه بقراءة هذه القصة أن يحصل على مثلها. رحم الله ذلك العملاق الخالد وجزاه عن الإنسانية كلها خير الجزاء».

ومرة أخرى نستطيع أن نلمس فى تعليقه تأثره بأسلوب «العقاد ومنطقه وآرائه» ومازال صاحبنا يحب تلك القصة ويحتفظ فى مكتبه بأكثر من ترجمة لها ومازال يأمل أن يعيد قراءتها مرة أخرى بعد أن فعلت به الحياة ما فعلت وبعد أن مر بتجارب العمر العديدة وبلغ من السن ما يقرب من سن تولستوى عندما ألف روايته الخالدة.

العودة الى القاهرة

كان قد قضى فى نيابات سوهاج أكثر من عامين . وكانت تقارير التفتيش عنه ممتازة . وكانت محاكم الجنايات المتعاقبة تثنى على مرافعاته ولذلك كان طبيعيا ومتوقعا أن ينقل إلى القاهرة فى الحركة القضائية .

وفتحت له القاهرة أبواب المعرفة والمتعة والقلق جميعا ، لم تكن هناك مقارنة بين حياته فى البلينا وسوهاج وحياته فى القاهرة لا من ناحية العمل ، ولا من ناحية الحياة نفسها . أحس أنه انتقل من عالم إلى عالم آخر .

و ما كان أكثر ما «يسرح» وهو يرى «رواد» نيابة قصر النيل ، ويتذكر رواد نيابة البلينا . كان وجه المرأة فى البلينا لا يرى إلا فى المستشفى عندما يأخذه التحقيق إلى هناك ويلتقى ببعض المرضات اللاتى يكشفن عن وجوههن ، أما غير هؤلاء المرضات من النسوة فكن يسرن وكأنهن خيمات صغيرات متحركات لا تكاد تتبين منهن شيئا . والآن فى نيابة جاردن سيتى والزمالك وقلب القاهرة - نيابة قصر النيل - ما أبعد الفارق وأوسعه .

فى يوم من الأيام كان عليه أن يحقق شكوى لسيدة ، واضح من اسمها أن لها جذورا غير مصرية وكانت الشكوى ضد أحد المحامين

وكان لابد أن يحققها أحد أعضاء النيابة . وكانت من نصيبه . وحدد موعدا للتحقيق وجاءت الشاكية فى ذلك الموعد .

يا الله !

هذه وأولئك ينتمون إلى جنس واحد ؟؟ غير ذلك صحيح .

كان والدها أحد كبار المحامين أمام المحاكم المختلطة ، وكان يونانى الأصل ، ولكنه استوطن مصر ، وأحبها ومارس فيها المحاماة وجمع من وراء ذلك ثروة ليست بسيطة وكان قد تنازل قبل وفاته عن مكتبه لأحد المحامين المصريين بعد أن انتهى عمل المحاكم المختلطة وقد ثار نزاع بين ابنة المحامى اليونانى الشاكية وبين هذا المحامى المصرى الذى ورث مكتب والدها .

وكان جمالها غير عادى ومع انها كانت تميل إلى شىء من القصر وشىء من الامتلاء إلا أن جمال وجهها وبريق عينيها ولون بشرتها وطريقة تصفيف شعرها وحيويتها التى تكاد تتدفق من كل جزء من جسدها الجميل .. كل ذلك كان يجعلك تنسى أنها تميل إلى شىء من القصر أو أنها تميل إلى شىء من الامتلاء بل إن جسمها الملفوف كان يبعث فيمن ينظر إليها أو يقترب منها حرارة ورغبة لا تقاوم .

عندما دخلت عليه مكتبه أخذه جمالها واجلسها أمامه وقبل أن يستدعى كاتب التحقيق سألها إذا كانت ترغب فى تناول شىء فلم تتردد فى أن تطلب «قهوة مضبوطة» فسألها وهو يعلم أن السؤال لن يرضيها

«قهوة تركي؟ وكان يعلم أن اليونانيين لا يحبون ان يسموا قهوتنا هذه بهذا الاسم ، لأنهم يعتبرون أن أصلها- تلك القهوة - يوناني وليس تركيا .

ثم سألها عن أساس شكواها فاسترسلت في دلال ظاهر وأدرك صاحبنا أنه في خطر وخشي أن يصدر عنه مالا يليق بمنصبه فطلب كاتب التحقيق ليكون هو ثالثهما بدلا من الشيطان.

وفتح المحضر وأخذ أقوالها التي طالت وكان عنده عمل آخر فأجل التحقيق معها إلى موعد آخر حدده لها بعد أن سألها عن مدى مناسبته لها فقالت بذات الدلال الأنثوي الفياض إنها على استعداد أن تحضر له كل يوم إذا أراد وارتاح لذلك الجواب أيما راحة وحدد لها موعدا بعد أيام ثلاثة .

ولم تغادر خياله طوال الأيام الثلاثة كان يدرك أن الشكوى مصيرها إلى أن تعتبر نزاعا مما لا تختص به النيابة لأنه لا يحتوي على أية شبهة جنائية ، ولكنه مع ذلك كان يحس برغبة في أن يطول التحقيق والسؤال والجواب ، ولكنه من ناحية أخرى كان يخشى أن يلفت ترددها على سراي النيابة نظر الزملاء وكان يخشى أكثر من ذلك مدى تأثيرها عليه إذا تعددت اللقاءات أكثر مما ينبغي .

ماذا يفعل هل يترك نفسه لرغباتها أم يلجمها عن الاستمرار في سيل المشاعر والخيالات ؟

كان عالم المرأة بالنسبة له مثيرا لكل مشاعر الخوف والرغبة والشك في آن واحد ، كان يريد أن يدخل ذلك العالم ، وكان يخاف منه ولم يكن

واثقا من نفسه . ترى لماذا يثق فى نفسه فى الغالب من أمره فإذا اقترب من عالم المرأة إذا به يغلب عليه الشعور بالوجل وبعدم الثقة وبالتردد الشديد .

وفى كراسة يومياته عن تلك الفترة تتردد كثيرا هذه العبارة أو ما يقترب منها «أريد أن أعرف عالم المرأة أريد أن أعرفه بقوة وعنف . وأريد أن أحب وأن أعيش فى الحب حتى الأذقان وأريد أن أعبث وأن أتمرغ فى العبث وأوحاله إلى أن أسأمه .. ولكن للأسف أعرف أنى ضعيف أمام المرأة لأنى حرمت منها طويلا ..»

ولم يكن واثقا أن هذه الفاتنة قد التفتت إليه على نحو ما التفت إليها . إنه بالنسبة لها وكيل النيابة الذى يحقق شكواها ، وقد يكون من مصلحتها أن تبدى له بعض الود ولكنه فى الأغلب ود مفتعل ، فهل يشغل نفسه بها ؟ هل يقدم أم يحجم ؟ ما الذى يجعل مثلها تلتفت إلى مثله وكل بضاعته كتب وأوراق ، لكن لماذا قالت له إنها على استعداد أن تحضر إليه كل يوم ، طبعا هى تقول ذلك من باب المجاملة ومن باب الحرص على أن تحقق غرضها من شكواها . هكذا كانت الوساوس والشكوك والأفكار المتعارضة تتناوب عليه كلما خلا إلى نفسه طوال تلك الأيام الثلاثة .

وفى اليوم المحدد والساعة المحددة جاءت الفاتنة ، وما إن دخلت حجرة مكتبه حتى سبقتها رائحة «العطر» لكى تملأ المكان كله أريجا لا عهد له به من قبل .

وأجلسها على كرسى أمام مكتبه ، ولم يسرع بطلب كاتب التحقيق ، وإنما طلب لها «كوكاكولا» فاعتذرت وطلبت فنجانا من القهوة وحاول من بعيد وهى ترشف من الفنجان فى تؤدة أن يوحى إليها أنها كانت فى فكره طوال الأيام الماضية وسألها يطمئن على أخبارها «بصفة عامة» فأجابت برقة ولكنه لم يحس أنها شعرت بما شعر به ولا أنها عاودها من التفكير مثل ماعاوده .

وتجاسر وقال لها إنها «وحشته» فى تلك الأيام وكم كان سعيدا وكم جمح به الخيال وهى تقول له : «وانت كمان» .

يا سلام هل أذن الله له أن يدخل ذلك العالم الساحر الغريب أخيرا؟

ولم يستطع أن يخطو خطوة أخرى وأدرك أنه لابد وأن يطلب على الفور كاتب التحقيق لكى يستكمل ما يريد استكماله من أسئلة ويود لو لم ينته هذا المحضر ابدا .

ولكن لابد لكل شىء من نهاية . انتهى التحقيق معها ، واستدعى لموعد آخر المحامى المشكو فى حقه وطلب منها أن تحضر فى ذلك اليوم لتسمع أقوال المشكو فى حقه وترد عليها إن أرادت . هكذا تقضى أصول التحقيق .

.وجاءت قبل الموعد المحدد ببعض الوقت واستأذنت فى الدخول فأذن لها سعيدا حفيا مقبلا عليها بكل اهتمامه . ودخلت وعبقها يتقدمها وقد أخذت كامل زينتها كشأنها فى كل مرة ، ورحب بها ترحيبا يريد أن

يكون متحفظا ولكنه لم يستطع إلى ذلك التحفظ من سبيل .

– هل أنا معطلاك ؟

– أبدا .. أبدا .. بالعكس أهلا .. أنا سعيد بأنك حضرت قبل الوقت.

– ولماذا أنت سعيد بحضورى قبل الوقت ؟

ولم يستطع أن يجيب واحمر وجهه خجلا وتناوبت وجهه ألوان كثيرة.

وفى تردد سألها عن رقم تليفونها . وكان المحضر يضم عنوانها بطبيعة الحال – فلم تتردد فى أن تعطيه ما طلبه .. ولم يكتب صاحبنا شيئا فسألته لماذا لم تكتب الرقم ..؟ فقال لها فى جرأة نادرة : إن الرقم قد كتب فى قلبه ، فابتسمت وقالت : قد يكون من الأفضل أن تكتبه على الورق لعل ذلك يكون أكثر ثباتا ، ولم يفهم ماذا تريد أن تقول ، ولاحظ أنها لم تسأله عن رقم تليفونه فتطوع قائلا : إنه يأسف لأنه لا يوجد فى منزله بعد أن عاد من الصعيد تليفون خاص ، ولم تكن التليفونات من الوسائل التى شاع استعمالها أنذاك فى أوائل الخمسينات من هذا القرن .

وجاء المشكو فى حقه فأدخله فور وصوله وأجلسه على كرسى مقابل ثم شرع فى أخذ أقواله ، وكان واضحا من البداية أن الخلاف يدور حول المقابل المادى الذى نص عليه عقد التنازل ، وكان واضحا أيضا أنه لا اختصاص للنيابة بهذا الموضوع ، وأنه لابد وأن ينتهى بحفظه .

وبعد أن انتهى من سماع أقوال المحامى المشكو فى حقه وأغلق محضره قال متطوعا : لماذا لا يسعى الطرفان الى صلح واتفاق بينهما يجنبهما عناء الذهاب إلى المحاكم .

وقال المحامى : إنه لا مانع لديه ولكن الشاكية تبالغ فى طلباتها .

وقال صاحبنا فى نفسه .. معها كل الحق ، وإذا لم تبالغ هذه فيما تطلب ، فمن يبالغ إذن ؟

وخرجت الشاكية وخرج الشاكى وأسقط فى يد صاحبنا .. لقد انتهى الموضوع وانتهى الأمر وها هى ذى تخرج من عنده إلى غير عودة.

ولم تمض غير بضع دقائق حتى رأها عائدة تدق باب حجرته وتستأذنه فى سؤال واحد .. وقال فى نفسه .. ولم يكون سؤالا واحدا ؟ لم لا يكون عددا من الأسئلة بغير نهاية ؟ ثم قال لها : تحت أمرك .. ماذا تريدين .. قالت : هل أستطيع أن أخذ صورة من المحضر ، فأجابها بطبيعة الحال تستطيعين .. على أن ذلك يتوقف على انتهاء النيابة من التصرف فى التحقيقات ، وقبل أن تغادر الحجرة من جديد أعطاها رقم تليفون النيابة لكى تسأل عما تم فى التحقيق وخرج من مكتبه وللحظات فكر فى أن يخرج معها من الحجرة، وحتى الدرج – السلالم – ولكنه ارتبك وتراجع إلى حيث كان وذهبت بعد أن ألقت عليه تحية ندية عذبة ..

●●●●

عندما كان صاحبنا فى البلينا كان يحضر إلى القاهرة كل شهر أو أكثر قليلا ليقضى بضعة أيام فى القاهرة ، وكانت تلك الأيام مليئة عادة

بلقاءاته مع فتحى وعبد العزيز ويحيى والأصدقاء الآخرين ولم يكن يتاح له إلا فى النادر أن يذهب الى مجلس العقاد فى يوم الجمعة ، ولكنه عندما عاد إلى القاهرة واستقر به المقام فيها بعض الوقت ، عاد يتردد على تلك الندوة الفنية مع ذلك العملاق الكبير .

ولاحظ صاحبنا أن الكلام فى السياسة كان نادرا على عكس ما كان يحدث عندما كان يتردد على ندوة العقاد وهو طالب فى الجامعة بين سنوات ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وكانت ثورة ١٩٥٢ قد غيرت أمورا كثيرة فى الحياة فى مصر ، ولم ينل ما أحدثته الثورة كل قبول أو رضا عند كل الناس ، وحتى الذين لم يرفضوا الثورة مثل صاحبنا - لم يقبلوا كل تصرفاتها ، وفى تلك الفترة كان حادث جلل قد وقع وكان لذلك الحادث الجلل أثر على كل القانونيين فى مصر وكان له أيضا أثر واضح فى مجلس العقاد .

فى أعقاب الخلاف بين محمد نجيب من ناحية ، وجمال عبد الناصر وأغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة من جهة أخرى ، كانت مشاعر الجماهير أكثر ميلا إلى محمد نجيب ، كان الناس يحسون نحو ذلك الرجل بنوع من الأبوة ، وكانوا يتوسمون فيه رغبة حقيقية فى حكم ديمقراطى أو فى الاتجاه نحو ذلك النظام ولو بعد حين .

وكان وجه عبد الناصر الصارم لا يثير الارتياح لدى الكثيرين.

ولاح فى بعض الوقت أن الثورة قررت أن تصفى نفسها ، وان يعود قادتها إلى ثكناتهم ، ويبدو أنه داخل الضباط انفسهم . كان هناك تيار

قـوى يؤيد ذلك الاتجـاه ، ولكن تيـارا آخـر اسـتطاع أن يحـرك بعض النقابات العمالية فى الاتجاه المعاكس .

وفى يوم – من أكثر أيام هذه الثورة سوادا – اتجه المتظاهرون إلى مبنى مجلس الدولة – حيث يوجد حتى الآن فى مدينة الجيزة وعلى نيلها ودخلوا حـرم المجلس ، بل ودخلوا إلى مكتب الأسـتـاذ الدكـتـور عـبـد الرازق السنهورى واعتدوا عليه بالضرب وشجوا وجهه وكسروا ذراعه .

وكان السنهورى فى البداية من أكبر المؤيدين للثورة ، شأنه فى ذلك شـأن كل المخلصين فى هذا البلد ، وكان يدفـعـه – هو وزمـيله وصـديقه المستشار سليمـان حافظ – نوع من العداء الدفين للوفد وسليمـان حـافظ هو الذى حمل وثيقة التنازل عن العرش إلى الملك ووقعها منه فى أعلاها وفى أسفلها ..

كان العدوان على السنهورى أمرا مفزعا .. كان عدوانا على رمز سيادة القانون ، وكان عدوانا على أستاذ كبير تخرجت على يديه أجيال وأجيال من رجال القـانون ولم يستطع أحد أن يفهم ، أو أن يقبل لماذا يحدث عدوان على مثل هذا الرجل ؟!

وقـيل – ويبـدو أن ذلك صـحـيح إن عـبـد النـاصـر ذهب إلى منزل السنهورى ليعوده ويعتذر ولكن السنهورى اعتذر له عن مقابلته .

وكان السنهورى وثيق الصلة بالعقاد .. وكان العقاد مستاء لما حدث للسنهورى ولكن جو الندوة كان يخيم عليه نوع من الكآبة ومحاولة تجنب الحـديث فى هذا الموضـوع ، ورأى العقـاد أنه قـد يكون من الأفـضل أن يغادر القاهرة إلى أسوان .

رئيس نيابة .. فى فزان

كانت ليبيا قد استقلت منذ بضع سنوات واتخذت لها دستورا برلمانيا وتبنت النظام الفيدرالى الذى جعل الدولة بالرغم من ضآلة عدد سكانها تتكون من ولايات ثلاث هى ولاية طرابلس وولاية برقة وولاية فزان.

وكانت ولايتا طرابلس وبرقة تطلان على البحر الأبيض وتتقاسمان الشاطئ الليبى الطويل الذى يزيد على ألفى كيلو متر من حدود ليبيا مع تونس إلى حدودها مع مصر، وفضلا عن ذلك الامتداد الطويل على الساحل كانت ليبيا تمتد بعمقها إلى الصحراء وكانت ولاية فزان هى الجزء الجنوبى من ليبيا الذى تمتد حدوده مع جنوب شرق الجزائر ومع تشاد وغيرها من دول وسط أفريقيا.

وكانت ولاية طرابلس هى أكثر الولايات الثلاث تقدما وأكثرها «استغرابا» إذ كان التأثير الإيطالى فيها شديدا وواضحا فى كل شئ، فى اللغة وفى العادات وفى العمار وفى حجم الجالية الإيطالية التى بقيت حتى بعد أن انتهى الاستعمار الإيطالى وحل محله النفوذ الأمريكى فى هذه الولاية بالذات التى كانت توجد بها أكبر قاعدة جوية أمريكية خارج الولايات المتحدة الأمريكية والتى كانت تسمى «قاعدة هويلس» وأصبح يطلق عليها بعد قيام الثورة الليبية قاعدة «طارق بن زياد».

أما برقة و عاصمتها بنغازى فقد كانت أكثر الولايات الثلاث عروبة وكانت الوشائج بين سكانها وسكان منطقة غرب الدلتا فى مصر وشائج وثيقة حتى إنك ما كنت تستطيع أن تفرق بين بدو هذه المنطقة وبدو تلك المنطقة فى لهجة الكلام وفى العادات وفى الأغانى وغير ذلك من دروب الحياة.

أما فزان فكانت منطقة صحراوية قاحلة وكان فى عاصمتها «سبها» قلعة فرنسية فيها بعض جنود الفرقة الفرنسية الأجنبية وكان حرص فرنسا على وجودها فى فزان يرجع إلى أن تلك الولاية كانت فى قلب افريقيا الفرنسية، فضلا عن جوارها للجزائر التى كانت فرنسا تعتبرها جزءا منها.

وبعد أن استقلت ليبيا وأصبحت دولة فيدرالية لها دستور برلمانى حديث اتجهت إلى وضع التقنيات الحديثة، ووضع لها «السنهورى» القانون المدنى على غرار القانون المدنى المصرى الذى كان السنهورى قد وضعه والذى بدأ العمل به من أكتوبر ١٩٤٩ بعد نهاية فترة بقاء المحاكم المختلطة، وجئ ببعض كبار رجال القضاء المصرى ليضعوا لليبيا قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجنائية وعددا من القوانين الأخرى.

وكان لابد من وجود تنظيم قضائى حديث ولكن هذا التنظيم كان لابد و أن يعكس سمات النظام الفيدرالى.

وكــان للدولة نائب عــام وفى كل ولاية من الولايات الثــلاث رئيس للنيابة.

وكان النائب العام هو المستشار «محمود القاضى» وكان من خيرة رجال القضاء فى مصر.

وطلبت ليبيا من الحكومة المصرية أن تعيرها ثلاثة رؤساء نيابة للولايات الثلاث.

وأعارت الحكومة المصرية حسن المغربى لولاية طرابلس، ورقعت لطفى لولاية برقة، وصاحبنا لولاية فزان.

وكان المغربى ولطفى من قدامى وكلاء النيابة وكان كل منهما على وشك أن يرقى إلى درجة رئيس نيابة فى وقت كان فيه هذا المنصب ذا شأن خطير إذ يكفى أن نعرف أن القاهرة لم يكن بها غير رئيس نيابة لجنوب القاهرة ورئيس نيابة لشمال القاهرة، وبعض رؤساء النيابة فى مكتب النائب العام.

وكانت ليبيا دولة فقيرة آنذاك ولم يكن البترول قد تفجر فيها بعد وإن كانت كل التوقعات تقول إن ذلك ليس ببعيد.

وكان هناك اتفاق بين حكومة مصر وحكومة ليبيا على أن يتقاضى رجال القضاء المصريون الذين يعارون إلى ليبيا مرتباتهم وبدل إعارتهم من مصر من باب مساعدة الشقيق الكبير لشقيقه الصغير وكانت الثورة المصرية تريد أن تمد تأثيرها إلى حيث تستطيع من البلاد العربية وكان الحديث عن القومية العربية والتضامن العربى من الأحاديث التى بدأت

تكثر في مصر، وبدأت القاهرة تبث إذاعة كان لها شأن كبير ودوى واسع في كل أرجاء الدول العربية وكانت تلك الإذاعة تسمى «إذاعة صوت العرب».

وكان صاحبنا سعيدا كل السعادة أنه كان أحد الثلاثة الذين اختيروا للإعارة إلى ليبيا وكانت إعارة رجال القضاء للخارج مازالت أمرا حديثا نادرا ولعل ليبيا كانت أول دولة عربية تستعير الجزء الغالب من رجال القضاء فيها من مصر.

وكان صاحبنا يتقاضى مرتبا أصليا يزيد قليلا على ثلاثين جنيها. وعرف أن بدل الإعارة هو مبلغ ضخم لم يخطر له على خيال، مائة وعشرة جنيهات إسترلينية ، وكان الجنيه الإسترليني يساوى الجنيه المصرى أو يقل عنه قرشا أو قرشين. وكان معنى هذا أن صاحبنا كان سيتقاضى في الشهر أكثر من مائة وأربعين جنيها. وكان ذلك مصدر فرح غامر عند أهله. وكان هو سعيدا بذلك كل السعادة. وكانت أمور كثيرة تداعب خياله بين الحين والحين عندما يتذكر ذلك المرتب الضخم.

ومازال يذكر عندما ذهب مع زميليه المعارين إلى طرابلس وإلى برقة للسلام على وزير العدل وعلى النائب العام. وكان وزير العدل أحد مستشارى محكمة النقض الذين اختارتهم الثورة ليشغل منصب وزير العدل وقال الوزير موجها كلامه له ولزميليه «تذكروا دائما أن سمعة وكرامة القضاء المصرى هى أمانة فى أعناقكم»، وقد كانت كلمة غالية وثمينة ظلت تتردد فى عقله ووجدانه أمدا طويلا.

وسافر الزميلان الكبيران قبله لأسباب لم يعد يذكرها ولكنه يذكر جيدا أنه سافر على طائرة شركة الـ B.O.A.C حيث لم تكن هناك خطوط طيران مصرية ولا ليبية تعمل على ذلك الخط وسافر على ذات الطائرة الاستاذ الكبير الدكتور عبد العزيز القوصى فى زيارة سريعة للمملكة الليبية وسافر عليها أيضا توفيق بك عبد الحكيم الذى أعير ليكون مستشارا قانونيا فى القصر الملكى.

وكم كان سعيدا بصحبة الرجلين الكبيرين، وكان سعيدا بحنانهما وحبهما.

وكانت جلسته فى الطائرة إلى جوار الدكتور القوصى. وكانت هذه هى المرة الثانية التى يركب فيها الطائرة. كانت المرة الأولى من الإسكندرية إلى القاهرة. كانت رحلة قصيرة . أما هذه الرحلة فكانت رحلة طويلة بحق، كانت رحلة تبلغ مدة طيرانها أضعاف أضعاف المرة الأولى.

لقد أمضى ليلته قبل السفر لم ينم هو ولم ينم أحد من أهله، وفى الصباح اصطحبه أهله جميعا إلى «ميدان الإسماعيلية» ميدان التحرير الآن حيث ركب أتوبيس شركة الطيران من هناك إلى المطار ثم أعتلى الطائرة وهو يتلو آيات من القرآن الكريم لا تنقطع من على لسانه.

. وكان يعرف اسم الدكتور القوصى من أخيه الذى كان مهتما بعلم النفس وكان هو أيضا قد بدأ يقرأ له بعض ما كتب فى هذا العلم الذى كان جديدا.

ولذلك أحس صاحبنا بسعادة غامرة وباعتزاز شديد وهو يجلس إلى جوار هذا الأستاذ الكبير ، وبعد أن أقلعت الطائرة وتناولوا طعام الإفطار استغرق الدكتور القوصى فى نوم عميق ، وأصابه نوع من العجب كيف يستطيع الإنسان أن ينام فى الطائرة؟! إن القلق يستبد به وإنه ينتظر صاعقة فى كل لحظة، وكل هزة من اهتزازات الطائرة تصيبه بفزع وهذا الرجل نائم لايبالى ، سبحان الله!

وما كان يتصور أنه هو نفسه بعد عدد طويل من السنين سيفعل مثل ما كان يفعل الدكتور القوصى وينام ملء عيونه كلما ركب الطائرة فى مسافات بعيدة.

ووصل إلى طرابلس وكان يحس بنوع من الدوار وعدم التوازن. ولكنه تماسك وهو يسلم على رئيس المجلس التنفيذى لولاية فزان الذى كان فى المطار متوجها إلى فزان وفهم صاحبنا أنه سيسافر معه إلى هناك على الطائرة نفسها.

وفوجئ بأن الطائرة المتجهة من طرابلس إلى سبها هى طائرة عسكرية فرنسية ليس لها أدنى صلة بالطائرة المريحة الفخمة التى ركبها من القاهرة إلى طرابلس . لم يكن فى الطائرة العسكرية مقاعد بمعنى المقاعد وإنما كان بها أريكتان خشبيتان متقابلتان وجلس هو ورئيس المجلس التنفيذى الذى كان أهم شخصية فى الولاية بعد عمه الوالى وجلس معهما خلق آخر. وبعضهم من عساكر الفرنسيين وبعضهم من الليبيين على رؤوسهم طرابيش حمراء بغير «زر» . وقامت

الطائرة بعد فترة وكان لها صوت كهدير الرعد وكانت ترج ركابها رجا عنيفا.

وتساءل بينه وبين نفسه: هل تساوى المائة والأربعون جنيها كل هذه المخاطر؟!

وكان تساؤلا بغير جواب.

وفى الطريق إلى «فزان» أخذ رئيس المجلس التنفيذى يحدثه عن ليبيا وعن توقعات البترول وبالذات فى ولاية فزان وكيف أن فزان الآن تستعد لتبدأ رحلة تحضر وتقدم وأحس كأن الرجل يريد أن يهون عليه ما سيراه أو ما هو مقبل عليه.

وعندما حطت الطائرة على الأرض لم يجد مطارا كالمطارات وإنما هى قطعة ممهدة من الأرض إلى جوارها قلعة قديمة عرف فيما بعد أنها مقر القوة الفرنسية.

وفى المطار وجد ثلاثة شبان مصريين يبدو أنهم كانوا فى انتظار رابعهم الذى هو صاحبنا وسلم عليهم وسلموا عليه ورحبوا به . كان منهم مهندس ومحاسب قانونى . وكان هؤلاء الثلاثة ومعهم فلسطينى آخر هم كل إدارة الولاية . وكان فى الولاية مجلس تنفيذى يرأسه سيف النصر ويتكون من عدد من النظار ناظر العدل وناظر المالية وناظر المعارف وغيرهم.

وأوصلوه إلى منزل صغير ونظيف على طريق «مسفلت» تتناثر عليه بعض المنازل الأخرى وعرف أن هذا المنزل الصغير سيكون محل إقامته

. وذهب معه إلى منزله المصريون الثلاثة ثم تركوه ليرتاح من عناء السفر على موعد أن يلقوه فى المساء لكى يتناولوا العشاء جميعا فى منزل « المهندس سعيد».

وعلى العشاء جرت أحاديث كثيرة كلها تأخذ مجرى النصيحة للوافد الجديد وكيف أن عليه أن يمهد نفسه لحياة مختلفة تماما عن حياة القاهرة. ولما سأل عن المحكمة وعن النيابة وعن الجهاز الإدارى لهما أخبروه أنه لا يوجد شئ من ذلك وأنه هو سيكون بداية كل شئ. الكل ينتظره من أجل العدل!!

وأخافه ذلك بعض الشيء . ترى ماذا يستطيع أن يفعل؟

ولم يتركه المصريون يذهب إلى منزله وينام وحيدا وإنما تمسكوا بأن ينام لدى «سعيد» الذى تناولوا العشاء فى منزله. ويبدو أن منزل المهندس سعيد كان أكثر المساكن فى «عاصمة» الولاية تميزا وكان هو أى المهندس يبدو شخصا على قدر من الغرور وقدر من الادعاء. ذلك ما لمسه من الساعات الأولى.

وأصبح الصباح وكان على «سعيد» أن يذهب إلى إدارة الأشغال فى مقر الولاية وتساءل هو أين يذهب؟! وفهم أن الشاب الفلسطينى سيحضر إليه لإتمام بعض الإجراءات الإدارية ثم سيأخذه بعد ذلك لمقابلة ناظر العدل وحرص على أن يسأل عن هذا الناظر: خلفيته ودراسته وعرف أن الرجل كان من المجاهدين أيام الاستعمار الإيطالى وأنه يحفظ بعض أجزاء من القرآن.

ودخل عليه فوجده شيخا كبيرا ذا لحية كثة ورحب به الرجل وأخذ يتحدث وهو يحاول أن يفهم ولكنه لم يفهم أكثر ما قيل وإن فهم عبارة كان الرجل يلح عليها إلحاحا واضحا هي : «أصعب الأمور مباديها» وكان الرجل أراد أن يفهمه أن يتجلد ليتحمل تلك الفترة.

وخرج من عند الناظر وسأل عن مقر النيابة فأخذوه إلى مبنى المحكمة والنيابة، وكان المبنى جدرانا فقط. لم يكن بداخل المبنى شئ أو أحدا وفهم أن عليه أن يتصل بالأستاذ «مفتاح» الفلسطينى من أجل إعداد المبنى لكى يكون صالحا للعمل ووعده مفتاح خيراً.

ولما حاول أن يحدد الأمور مع مفتاح من حيث التوقيت الذى سيتم فيه إعداد المبنى ومن حيث أعداد الأفراد المطلوبين نصحه زميله «عبد الملك» المستشار القانونى للولاية بأن يأخذ الأمور بيسر وهدوء وأن الحماس قد لايكون أمرا مستحباً.

وكان عبد الملك من أهل الفيوم وكان أشبه بمحامى الأرياف وكان من أقباط مصر المسالمين الذين لا يبغون صداما مع أحد ، ويبدو أن عائلته ترتبط بعائلة سيف النصر - وكلاهما من الفيوم أصلا - بعلاقات عمل ، وكان عبد الملك حريصا على أن يسدى نصائحه لصاحبنا باعتباره أصغر سنا وباعتبار أنه هو أكثر خبرة وأكثر معرفة بأهل الولاية .. وقد كان ذلك صحيحاً.

ومضى يوم ويوم وثالث رأى فيه كل نظار الولاية ثم رأى فيه الوالى وكان رجلا كبير السن وقورا وهو أيضا من عائلة سيف النصر وكان

مقيما فى الفيوم إلى أن استقلت ليبيا فعاد إلى مقر القبيلة فى فزان وعينه الملك واليا للولاية ، وقد استقبله الرجل فى منزل بسيط أشبه بدوار العمدة فى قريتهم وأخذ يرجو له إقامة مريحة وطمأنه أن الماء سيصل إلى مسكنه كل صباح وكان هذا أمر بالغ الأهمية وأنه أصدر أوامره بنفسه إلى مدير الشرطة لكى تضعه سيارة الشرطة بين قائمة من ستوزع عليهم المياه.. وختم حديثه معه بأن قال له «والله تالله لا يمنعك من إحقاق الحق شئ».. ودعا له بالتوفيق .

وخرج من عند الوالى ولم يعرف إلى أين يذهب.

وفى اليوم التالى طلب مقابلة «سيف النصر» رئيس المجلس التنفيذى ليعرف منه ماذا سيكون. وقابله السيد الرئيس وطمأنه بألفاظ ضخمة تملأ الفم. وبعد فترة صمت قال له: إن إجراءات تعيينك ستتم فى طرابلس حيث يوجد مجلس القضاء ، ثم بعد ذلك ستؤدى اليمين أمام الملك.

وسكت الرئيس مرة ثانية ثم قال: توجد طائرة خاصة ستقلع إلى طرابلس غدا وسيسافر هو فيها ويصحبنى معه إلى هناك حتى تنتهى إجراءات التعيين.

وسافر إلى طرابلس وأنزلوه فى فندق «المهارى».

و فى طرابلس كان الفندق جميلا خفيف الظل والروح. وكان الطليان هم الذين بنوه إبان الإحتلال وكان أغرب ما فيه مطعمه الموجود داخل

البحر والذى تمر فى ممر طويل حتى تصل إليه ثم تجد نفسك وكأنك فى سفينة محاطة بالماء من كل جانب.

وفى الفندق رأى أشتاتا من الناس : رأى أمريكيين ورأى انجليز ورأى إيطاليين ورأى أيضا أبناء عرب وإن كانوا قلة ورأى رجالا ونساء، وسمع السنة متعددة لأمم متعددة ، كان الأمر مختلفا جدا بين طرابلس وفزان وبين فندق المهارى والمكان الذى كان يعيش فيه هناك وأحس وكأنه انتقل مرة أخرى إلى عالم آخر.

وكانت أمسيات الفندق هى أمتع ما فيه كانت صالة الفندق فسيحة وفى كل ركن من أركانها مجموعة من المقاعد الوثيرة ، وفى تلك الأمسيات كان الناس يجلسون مجموعات قد يعرف بعضها بعضاً وقد لايكونون متعارفين ثم يدور بينهم نوع من الحديث العام الذى لايعنى أحدا ولايشغل أحدا ولكنه حديث والسلام.

وفى اليوم التالى لوصوله طرابلس منتظرا إنهاء إجراءات تعيينه رئيسا لنيابة ولاية فزان وفى المساء جلس على كرسى وجده فى ركن من أركان الصالة وفى ذلك الركن كان يجلس رجل طاعن فى السن وإلى جواره سيدة أغلب الظن أنها ابنته وبيد كل منهما كتاب يقرأ فيه ولاحظ أن الكتابين باللغة الإنجليزية ولذلك قدر أنهما فى الغالب بريطانيان ، وكان هناك رجل آخر ضخم الجثة ومعه سيدة يبدو أنها زوجته وكانا يتكلمان الإنجليزية بلهجة أمريكية وكان الرجل الضخم شديد الهدوء فى حركاته وفى كلامه أما زوجته فكانت «شعنونة» لاتكاد تستقر على مقعدها ولاتكاد تكف عن الحديث.

وكان يتابع ذلك بنظراته ويحاول أن يؤلف قصصا وأن يتصور العلاقات بين هؤلاء الناس وبعضهم وبينما هو فى «سرحاته» إذ بتلك «الشعنونة» تسأله باللغة الإنجليزية عن جنسيته فأخبرها أنه مصرى فأبدت اهتماما شديدا وقالت إنها درست الحضارة المصرية القديمة ولكنها للأسف لم تر مصر حتى الآن وإنها تخطط لزيارتها فى القريب.

واستطاع بإنجليزيته البسيطة أن يدير معها حوارا حول الحضارة المصرية ثم انتقل الحديث إلى مصر الحديثة وسألته عن الثورة وعن ميول قادتها فأبدى تحفظا وحاول أن يتهرب من الإجابة فلما لاحظت منه ترددا فاجأته بقولها : إنهم من «الإخوان المسلمين» أليس كذلك؟ فسكت قليلا ثم قال لها I do not think so لا أظن ذلك.

وتكررت اللقاءات بعد ذلك فى أمسية كل يوم فى بهو الفندق وفى نفس الركن.

أسبوعان فى طرابلس الغرب

قضى فى طرابلس الغرب أسبوعين كاملين ، قضاهما فى فندق «المهارى» الخفيف الظل المليء بالحركة والذى يغص بالناس من كل حدب وصوب . وقد لا يكون مبالغا إذا قال إن هذين الأسبوعين كانا من أمتع أيام حياته حتى ذلك الحين . قابل المصريين الذين كانوا معارين من القضاء المصرى للمحكمة الاتحادية العليا وأولئك الذين كانوا معارين للمحاكم الأخرى فى ولاية طرابلس ولا يزال يذكر منهم النائب العام المستشار محمود القاضى الذى كان يشغل منصب المحامى العام أمام محكمة النقض المصرية ، والذى عين فى أثناء وجوده فى ليبيا أو قبيل إعارته مباشرة مستشاراً بتلك المحكمة . وكان المستشار محمود القاضى ينزل فى نفس الفندق الذى أنزلوه فيه «فندق المهارى» ولكنه كان ينزل فيه بصفة دائمة وليس بصفة عارضة مثل صاحبنا الذى جاء لمدة أسبوعين حتى تنتهى إجراءات تعيينه .

وكان النائب العام مليئا ، وقور الوجه ، حريصا على أداء الصلوات فى أوقاتها وعلى إظهار ذلك أيضا من باب إشاعة الأعمال الطيبة حتى يقتدى بها الآخرون . وكان خفيض الصوت لا يتكلم إلا همسا وإذا كلمك فى أى موضوع أشعرك بجديته الكاملة. وما أكثر ما حدث صاحبنا عندما كان يصطحبه أحيانا إلى مكتبه فى المحكمة الاتحادية

العليا . وكان عندما يتحدث عن أحوال الليبيين ورغبتهم فى تحديث قوانينهم وعن أولئك الذين عينوا منهم فى بعض درجات القضاء كان حديثه لا يخلو من سخرية خفيفة تريد أن تظهر ولكنه يحول بينها وبين الظهور . وكان بعض الليبيين من الذين درسوا بضع سنوات فى الأزهر أو فى جامعة الزيتونة أو حتى فى ليبيا نفسها – قد عينوا فى بعض الدرجات القضائية . وكانوا رجالا فضلاء طيبين ولكن صلتهم بالقانون كانت محدودة جدا . والقلة القليلة من الليبيين الذين درسوا القانون فى بعض الجامعات الإيطالية كان توجههم لشغل بعض المناصب السياسية وكانوا يفضلونها لما قد يصاحبها من سلطة ومن مغانم أخرى .

وكان قرار تعيينه رئيسا لنيابة ولاية فزان لابد من أن تصدر به موافقة من مجلس القضاء الأعلى . ثم يصدر بتعيينه مرسوم ملكى ثم كان يجب قبل أن يباشر عمله أن يؤدى اليمين القانونية أمام الملك نفسه.

وانتظر الشاب الذى لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر تمام هذه الإجراءات . ولم يكن متعجلا ذلك أن تمام هذه الإجراءات كان يعنى أن يعود إلى فزان . وما أدراك ما فزان . قحل وجدب فى كل شىء ! وهو الآن فى طرابلس وفى فندق «المهارى» حيث الحياة حافلة ومثيرة . أو هكذا بدت له آنذاك . وكان أكثر ما فى هذه الحياة من متعة وإثارة هى تلك الأمسيات التى كان يقضيها فى ركن من أركان المهارى يتحدث مع هذه المجموعة أو تلك من المجموعات الكثيرة التى تنزل بذلك الفندق الظريف .

وكان أقرب الأركان إليه ذلك الركن الذى يجلس فيه الرجل العجوز وابنته وتجلس فيه تلك الأمريكية «الشعنونة» وزوجها الطيب . وحاول ذات مرة أن يتجاذب بعض أطراف الحديث مع العجوز أو مع ابنته فرده عن المحاولة فى أدب صامت وعزوف فيه غير قليل من الرغبة فى الابتعاد .

أما الأمريكية «الشعنونة» وزوجها فكانا راغبين فى الحديث ، خاصة الزوجة التى تمتلىء حيوية بقدر ضعف حظها من الجمال .

وعرف أن اسمها «شيرلى» وبأمانة لم يعد يذكر اسم زوجها ذلك الرجل الطيب فقد كان نادرا ما يشارك فى حديث وكان كثيرا ما لا يتردد على ذلك الركن فى الفندق وكان أحيانا يصحب زوجته إلى هناك كى تقضى ما تشاء من وقت ثم تعود إلى المنزل عندما تريد .

وتكررت أحاديثه وحواراته معها حتى نشأ بينهما ما يوشك أن يكون صداقة خفيفة . كانت مثقفة وكانت حادة الذكاء وكان فى ذلك غير قليل من العوض عن افتقادها إلى جاذبية الجمال وسحره، وكانت تكبره بعشر سنوات كاملة . كانت فى الخامسة والثلاثين من عمرها . وفى إحدى الأمسيات سألته عما إذا كان قد شاهد الآثار الرومانية القريبة من طرابلس فلما أجابها بالنفى عرضت عليه أن يصحبها فى رحلة إلى هناك بسيارتها فوافق سعيدا بذلك العرض .

وركب معها سيارتها الـ «سبورت» واتجها نحو الغرب نحو موقع الآثار الرومانية وهناك كانت له بمثابة «المرشد السياحى» الذى يقود

خطواته ويشرح له . هذا هو المسرح الروماني الكبير وهكذا كان يجلس المتفرجون متحلقين حول الممثلين . وهذه هي الحمامات الرومانية . وتلك بقايا معالم أخرى . وظلا يجوبان بين تلك الأطلال والآثار حتى اقتربت ساعة الغروب وهي من أجمل الساعات التي تثير خياله وأشجانه خاصة عندما يقع الغروب بالقرب من شاطيء البحر وتوشك الشمس أن تغرق رويدا رويدا في الماء . كانت الطبيعة رائعة وكان البحر جميلا مليئا بالأسرار وكان يقف شاردا ساهما وتلك الأمريكية ذكية العقل والقلب تقف إلى جواره تقلب ناظريها بين البحر ومنظر الغروب وبينه وفجأة سألته : Why you donot Look happy .. لماذا لا تبدو سعيدا؟

وفاجأه السؤال فلم يجب ثم قال بعد قليل : إنني راض والحمد لله .. ولو خيرت ما اخترت غير ما أنا فيه . ثم أردف : قد أبدو في بعض الأحيان صامتا شاردا ولكن ذلك لا يعني أنني غير سعيد . وأحس بيدها تقبض على يده بحرارة شديدة فيها حنان كثير .

وتبادلا بعض النظرات التي لم يدرك - وما أظنها أدركت - ما كان فيها من معان !

وتجاذبا أطراف الحديث وهما ينظران إلى البحر الهاديء ثم قال لها : ألم يأن الأوان للعودة إلى طرابلس قبل أن يحل علينا المساء ؟

فردت عليه : لماذا تتعجل انقضاء هذه الساعة الجميلة . أمامنا بعض الوقت قبل أن يحل الظلام . ثم إن طرابلس ليست منا ببعيد .

وسارا على شاطىء البحر ويدها فى يده . وكانت رغم أنها أكبر منه سنا تكاد تجره جرا وهى تقفز أحيانا وتسير أحيانا وتوشك أن يختلط كيانها كله بذلك المنظر الرائع الجميل . ووقفا وكانت الشمس وأشعتها الذهبية قد اختفت تماما وبدأت أضواء المصابيح الكهربائية تظهر من بعيد .

وعادا إلى سيارتها وقبل أن يركبا اقتربت منه وطبعت قبلة على خده وطبع على خدها قبلة ، واتجها إلى طرابلس التى لم تكن تبعد كثيرا عن ذلك المكان الملىء بالآثار الرومانية التى توحى بعظمة الامبراطورية وحضارتها .

وكان كثيرا ما يحلو له حتى وهو فى هذه السن الصغيرة نسبيا أن يقارن بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة الرومانية القديمة . وكان يرى – وقد يكون لا يزال عند هذا الرأى – أن الحضارة المصرية القديمة فى آثارها توحى بفكرة القوة وفكرة الخلود على حين أن الآثار الرومانية توحى بفكرة الجمال والمتعة .

وفى أثناء عودتهما قالت له جملة غريبة مازالت محفورة فى ذهنه حتى اليوم .

قالت له بلغتها الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية «أحيانا تبدو لى كأنك أسد فى قفص» "Some times you Look Like a lon in a cage" ، ولعلها كانت تقصد – أو هكذا شرحت له – أنه يكبل نفسه بقيود كثيرة وإنه لا ينطلق انطلاق الشباب ولا يتصرف مثلهم . ولا

يزال رغم مرور سنين طويلة يذكر هذه العبارة ويعجب أن تلك السيدة فى تلك الفترة القصيرة قد وضعت يدها على أهم مفاتيح شخصيته .

وتركته عند باب الفندق ، وظل هو عندما انفرد بنفسه يقلب تلك العبارة التى قالتها له : «إنك تبدو أحيانا كما لو كنت أسدا فى قفص» .

وبعد أيام اجتمع مجلس القضاء الليبى واتخذ قرارا بتعيينه رئيسا لنيابة ولاية فزان وكان لابد بعد ذلك من تحديد موعد لكى يؤدى اليمين أمام الملك .

وكان الملك «إدريس السنوسى» يبدو فى كثير من تصرفاته زاهدا فى مظاهر الملك وأبهته ، وكان من مظاهر ذلك أنه كان يفضل الإقامة فى مدينة طبرق - إحدى مدن ولاية بنغازى - وكانت طبرق مدينة جميلة صغيرة هادئة تقع فى منطقة الجبل الأخضر أو بالقرب منها .

وتحدد موعد السفر إلى طبرق بعد بضعة أيام من صدور قرار مجلس القضاء الليبى .

قضى الأيام السابقة على السفر حيث كان فى فندق المهارى بطرابلس وكانت «شيرلى» تأتى كل مساء أحيانا وحدها وأحيانا مع زوجها ولم تحاول أن تخفى أمام زوجها أن صداقة جديدة وقوية بدأت بينها وبين ذلك الشاب القادم من مصر ، ولم يبد أن زوجها قد اكترث لذلك فى كثير أو قليل .. سبحان الله ما أكثر ما تتباين طباع الناس ! وكانت كل ليلة تمضى تزيده اقترابا منها وتزيدها اقترابا منه ، ولكنه لم

يكن مستعداً أبدا أن يبادلها قبلة بقبلة فى الفندق أو حتى أمام بابه وهو يودعها إلى سيارتها .

وتحدد موعد سفره إلى طبرق بصحبة رئيس المجلس التنفيذى للولاية الذى كان فى الوقت نفسه ناظرا العدل فى الولاية وكان القانون ينص على حضوره حلف اليمين أمام الملك .

وسافر من طرابلس إلى بنغازى بالطائرة وكان واضحاً أن مدينة بنغازى أكثر صلة بالعروبة من مدينة طرابلس على أنه لم يمض فى بنغازى غير بضع ساعات ، ثم استأنف الرحلة مع رئيس المجلس التنفيذى إلى طبرق فى سيارة «لاوند روفر» كان يقودها رئيس المجلس بنفسه . ووصلا إلى طبرق مع اقتراب المساء ونزلا فى فندق نظيف صغير لعله لم يكن به من النزلاء غيرهم . وقضى ليلته وخاطر مقابلة الملك يلح عليه . كيف سيكون ذلك اللقاء ؟ وكيف سيتصرف الملك معه ؟! وكيف سيتصرف هو أمام الملك ؟! وماذا يمكن أن يقوله فى حضرة الملك إذا اتيح له الكلام ؟! وكان ينام نوما متقطعا ، لا يكاد يغفو حتى يفيق ، وقام عند الفجر وتوضأ وصلى وسأل الله التوفيق .

وبعد أن تناول إفطاره فى ذلك الفندق الصغير الجميل الذى كان يديره رجل إيطالى وزوجته خرج مع «سيف النصر» فى سيارته وطافا بمدينة طبرق ولم يستغرق ذلك وقتا طويلا ثم اتجها بعد ذلك إلى القصر الملكى .

لم يكن القصر يزيد على أن يكون منزلا كبيرا تحيط به حديقة بسيطة . لم يكن القصر يزيد على مساكن أعيان الريف فى مصر بل إن بعضها قد يكون أكبر حجما وأكثر فخامة .

ودخل القصر هيابا وجلا .. وقاده أحد الموظفين إلى مكان للانتظار. وهناك تركه «سيف النصر» رئيس المجلس التنفيذى ووزير العدل بالنيابة – لكى يقابل الملك قبل حلف اليمين . ولم يمض وقت طويل حتى جاءه الموظف نفسه فى القصر الملكى لكى يصحبه إلى مكتب الملك . كانت حجرة المكتب صغيرة بسيطة ليس بها أى مظهر من مظاهر الأبهة أو الفخامة . وكان الملك يجلس على أريكة إلى جوار المكتب وكان هناك بعض المقاعد البسيطة والمريحة والقليلة العدد أيضا . لم تكن حجرة المكتب توحى بأنها حجرة ملك بأى حال من الأحوال . وما أظن أن تلك الحجرة البسيطة يمكن أن تقارن بالقاعات الفخمة التى يحتلها بعض كبار المسئولين الآن والذين يقيسون كبرهم بكبر الحجرات وفخامة الأثاث !

ودخل صاحبنا مسلماً فقام الملك وسلم عليه ثم دعاه إلى الجلوس على أحد الكراسى وأخذ يردد معه نفس التحيات التى يرددها الليبيون العاديون وسأله عن رحلته وتمنى أنها لم تكن مرهقة له . ثم سأله عن أحوال مصر مبدياً أنه قضى بها وقتا طويلا سعيدا مكرما معززا عندما كان فى فترة الهجرة من الاحتلال الإيطالى . وبعد ذلك شجعه بكلمات طيبة لكى يتحمل مسئوليته فى «فزان» ثم دعاه لحلف اليمين . وقام

صاحبنا وتلا اليمين من ورقة كانت معه وصوته يكاد يحتبس ثم يتلجلج ثم ينطلق خفيضا بطيئا .

وبعد أن انتهت المراسم سلم عليه الملك ودعا له بالتوفيق .

وخرج وحده وترك «سيف النصر» مع الملك وقد كانت بين قبيلته وبين الملك وعائلته وشائج شتى منذ جمعتهما معا «الفيوم» فى فترة الهجرة .

وذهب إلى حجرة الانتظار . وأحس كأن اعصابه قد ارتخت وألقى بنفسه على أول كرسى صادفه وبعد دقائق أحس برغبة فى أن يذهب إلى دورة المياه وطلب من أحد السعاة أن يقوده إليها فأخذه إلى الطابق الأرضى وسار به فى ردهة حتى أوصله إلى مبتغاه . وكانت دهشته بالغة عندما فتح الباب ليجد سيدة تجلس أمام «طشت غسيل» وتغسل بعض الملابس وتراجع عن الباب .. وخرجت السيدة . ودخل هو ليقضى حاجته .. هل هو حقا فى قصر الملك ؟!

نعم إنه فيه !!

وجاء سيف النصر وخرجا معا واقترح سيف النصر أن يعودا إلى بنغازى لكى يركبا الطائرة من هناك إلى طرابلس .

وفاجأ صاحبنا سيف النصر بالسؤال : كم تبعد الحدود المصرية من هنا ؟ .. إنها بضع مئات قليلة من الكيلو مترات لا تستغرق إلا بضع ساعات ؟

وسكت صاحبنا ثم قال : هل يستطيع أن يستأذن لكى يذهب إلى القاهرة بضعة أيام ثم يعود فى الطائرة التالية القادمة من القاهرة إلى طرابلس مؤكدا أنه لن يتغيب أكثر من بضعة أيام قليلة .

وأذن له سيف النصر بذلك . بل وطلب له سيارة «لاندروفر» لكى تذهب به إلى الحدود المصرية . ورافقه فى السيارة أحد ضباط الشرطة الليبيين .

وعندما وصل صاحبنا إلى الحدود وعبر إلى الأرض المصرية انحنى وقبل ترابها . وتعجب الضابط الليبى لهذا التصرف وقال له معاتبا بما يعنى : هل كنت تشعر عندنا بالغربة إلى هذا الحد ؟!

واعتذر صاحبنا بأنه لم يشعر أبدا ولو ليوم واحد بالغربة لكنه الوطن وأرض الوطن وحب الوطن والاغتراب لأول مرة عنه وعن أهله .

وسلم عليه الرجل ، وعاد إلى حال سبيله ، وسأل هو ضباط حرس الحدود المصريين عن الوسيلة التى يمكن أن يذهب بها من السلوم إلى الإسكندرية ثم منها إلى القاهرة .

وركب سيارة من سيارات حرس الحدود من السلوم إلى مرسى مطروح وفى مطروح كان الأمر ميسرا فى السفر إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث وصلها فى مساء نفس اليوم الذى غادر فيه طبرق فى الصباح . ولكنه وصل مهدوداً مرهقاً فقد سافر ما يقرب من عشر ساعات فى سيارات كلها غير مريحة ، وفوجىء أهله بدخوله عليهم .

وكانت المفاجأة قاسية على أمه .. فرحت وبكت فى اللحظة نفسها ؟!

وبعد أن زالت المفاجأة سأله أبوه بإشفاق ماذا حدث له وهل أنهى عمله هناك . واطمأنوا بعد أن قص عليهم ما حدث . وروى لهم ما كان من أمر لقائه مع الملك وفرحت أمه وفرح أبوه .

ثم تركاه ليذهب فى نوم عميق .

أيام قليلة فى القاهرة

كانت أيامه فى القاهرة محدودة لا تتجاوز الأربعة مادام يريد أن يأخذ أول طائرة عائدة إلى ليبيا كما وعد المسئولين هناك عندما استأذن فى تلك الرحلة القصيرة المباغتة . وكان يريد فى هذه الأيام القليلة أن يرى كل الأصدقاء . وأن يرى كل الأماكن ولكنه أدرك أن ليس إلى ذلك من سبيل وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه يتجه إلى المكتب الذى عمل فيه لمدة أسبوع قبل تعيينه فى النيابة العامة والذى يعمل فيه الآن إثنان من أعز أصدقائه وأحبهما إلى نفسه وأقربهما إلى عقله «عصمت وفتحى» .

وعندما دخل عليهما لم تكن مفاجأتهما أقل من مفاجأة أهله . وأخذ يتبادل معهما الأحضان والقبلات حتى أوشكت عيونهم جميعا أن تدمع من الفرح ومن حرارة اللقاء .

وبعد هذا الترحيب الجميل واللقاء الدافىء أخذ الصديقان يسألانه عما جاء به بعد هذه الفترة القصيرة من سفره . ثم أخذا يسألانه عن ليبيا وأحوالها . وهل صحيح هناك قانون ومحاكم وقضاء وأخذ يتحدث وينتقل من موضوع إلى موضوع بغير ضابط ولا رابط والضحكات بين الأصدقاء الثلاثة لا تنقطع . ويبدو أن صوتهم ارتفع أكثر مما ينبغى لذلك المكتب الوقور . وقد جاءهم «الباشا القصير» وفى فمه سيجارته

التى لا تكاد تفارقه مستفسرا عن سر هذا الضجيج فلما رأى صاحبنا سلم عليه مرحبا وأدرك سبب ما حدث فى المكتب من هرج ومرج فعاد إلى حجرته بنفس الهدوء الذى جاء به .

وكانت الساعة توشك أن تقترب من الواحدة وهى نهاية الفترة الصباحية من عمل المكتب واتفقوا على أن يتصلوا بعبد العزيز ثم يتناولون الغداء جميعا فى مطعم من المطاعم الشرقية فى قلب المدينة وحاول أن يثنيهم عن ذلك بحجة أن والدته فى انتظاره . وأنها أعدت له غذاء دسما وليس لديه من وسيلة للاتصال بها فلم يكن فى منزل أهله «تليفون» ولكنهم رفضوا ذلك رفضا حاسما قائلين : إذا كنت تريد أن تذهب إلى أمك ذهبنا جميعا معك . ولم يكن يدرى إذا كانت أمه قد استعدت لاستقبال هذا العدد الكبير المفاجىء فآثر أن يرضخ لرغبتهم وأن يبقى معهم .

وعندما كانوا فى تلك المناقشات إذا بفتاة صغيرة تدلف من حجرة عصمت إلى حجرة والدها لكى تصحبه إلى حيث تنتظرهم الأم فى السيارة لكى يذهبوا إلى منزلهم فى ضاحية المعادى .

وعندما رأى الفتاة عرفها فقد كان يراها تتردد على والدها فى المكتب وكان قد رآها أيضا فى ذلك «العشاء» الذى أقامه له «مزراحى باشا» بمناسبة تعيينه فى النيابة فى واحدة من زياراته إلى القاهرة من البلينا والتى كانت تتكرر كل شهر كما كانت تجرى العادة بذلك بين أعضاء النيابة الذين يعملون فى أقاصى الصعيد .

وكانت الفتاة قد أنهت دراستها الثانوية فى مدرسة إنجليزية ودخلت قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب وكانت تعطى وهى تدلف من حجرة عصمت إلى حجرة والدها إحساسا بالنضج وبالحياء فى الوقت نفسه .

وعندما خرجت سلمت عليه كما سلم عليه والدها الذى قال له لعلنا نراك فى فترة وجودك معنا فى القاهرة لنعرف منك أخبار ليبيا .

وتطوع بأن قال له : إن المستشار محمود القاضى - النائب العام فى ليبيا - يبلغه السلام فشكر له الرجل ذلك ثم انصرف هو وابنته .

وعاد هو وأصحابه إلى الصخب والضجيج وإذا بعصمت يقول له : «هذه عروسة ممتازة الست تبحث عن بنت الحلال» وأخذوا جميعا العبارة مأخذ الضحك وانصرفوا عندما لحق بهم «عبد العزيز» إلى أحد المطاعم القريبة من حى السيدة زينب حيث أكلوا ما شاءوا من «كفتة وكباب» . وحيث شرب بعضهم أكوابا من «عصير اللفت» وعاد الصحاب بعد ذلك إلى عملهم وذهب هو ليرى أهله ولكى يعتذر لأمه أنه فضل الغداء مع أصحابه على العودة إليها . وقبلت عذره وحذرته من تكرار ذلك فى أى يوم من أيام إقامته معها لكى «تشبع منه» ودخل لينام فقد كانت عادة نوم القيلولة بعد الغداء قد تمكنت منه ولم يعد يستطيع الاستغناء عنها وإلا لم يعد قادرا على عمل أو تفكير منتج فى المساء .

ولما استيقظ إذا به يفكر فى العبارة التى ألقى بها «عصمت» هل يمكن أن يكون عصمت جادا ؟ ولم لا ؟

وذهب فى التفكير مذاهب شتى . لم لا ؟

إن الفتاة ناضجة ويبدو أنها على قدر من الحياء والخفر وبها ملاحة ، حقا إنها ليست بيضاء وهو يحب البشرة البيضاء ، ولكن البشرة لا أهمية لها ، المهم هو «الجوهر» ولكن ما يدريه بالجوهر إنه لا يعرف عنها شيئا .

ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى من التفكير . هل إذا سمع رأى عصمت فهل يستطيع أن يتقدم لأهلها طالبا يدها وهو وكيل النائب العام الذى لم يمض عليه إلا سنوات قليلة فى منصبه وراتبه فى بلده الأصلى يقل قليلا عن ثلاثين جنيها . وهؤلاء الناس يسكنون «فيلا» فخمة فى المعادى فيها خدم وحشم . وهو يسكن مع أهله فى شبرا فى شقة بسيطة . ولكن لم لا إن أباها بدأ بدايته ، وكل رجل قضاء ناجح لابد أن يصل إلى ما وصل إليه أبوها . إنها مسألة زمن لا أكثر ولا أقل . ثم يعود ليقول لنفسه هذا ما تفكر فيه أنت ولكن هى مالها بذلك كله . إنها الآن ابنة المحامى الكبير وابنة الباشا وتقيم فى فيلا فخمة بالمعادى ما الذى يمكن أن يربط بينها وبينك .

وكانت أمها سيدة جميلة على نحو لافت للنظر . كانت بيضاء فارعة الطول وكان فارق السن بينها وبين زوجها كبيرا . ولكنه كان يحس أنه على قدر بساطة الرجل وتواضعه فإن هذه السيدة على قدر كبير من التكلف والتصنع قد يفوق جمالها نفسه . وعلى قدر ما كان جمالها يلفت نظره على قدر ما كان تكلفها يبعده عنها .

وهكذا عاش فى هذه الدوامة لا يكاد يخرج منها إلى أن ذهب فى المساء للقاء بعض الصحاب وذهب يروى لهم ذكريات فترته القصيرة فى

ليبيا بين طرابلس وفزان وقصر الملك فى طبرق . وقد كان يشعر بأنه محل «حسد» الكثيرين من الزملاء الذين رأوا أنه قد أتيح له من الفرص مــا لم يتح لهم ولعل ذلك كـان يبـعث فى نفسـه بعض السـرور وبعض الشعور بالتفوق .

ولم يشر إلى موضوع «الفتاة» لأهله من قريب أو بعيد . وكان أخوه قد واصل عمله فى هيئة قضايا الدولة ناجحا ومرموقاً فيه وكانت أخته مع زوجها القاضى فى إحدى محاكم مصر .

وكـان عندها فى ذلك الوقت عدد من الأطفـال الصـغار فى بدايات مراحل التعليم .

أما أخوته الصغار فكانوا مازالوا يدرسون ويرهقون والدهم إرهاقا ما بعده إرهاق . كانوا ثلاثة فى مراحل التعليم المختلفة .

كان أكبرهم «ز» شيطانا فى جلباب صبى . وكانت مفاجآته وعبثياته لا تنتـهى بالرغم من أنه لم يكن قـد أكـمل مـرحلة الدراسـة الثـانوية . وكانت «شقاوته» مصدر شكوى الأم والأب جميعا ولم يكونا يملكان إلا الدعاء له بالهداية ويبدو أن استجابته سبحانه لهذا الدعاء جاءت متأخرة جدا .

أما الفتيات فكانت كبراهن فى الدراسة الثانوية وكانت الصغرى مازالت فى مرحلة ما قبل الدراسة الابتدائية .

وكانت شقيقته التى تدرس فى المرحلة الثانوية نحيلة الجسم ضعيفة البنية رقيقة الطبع ، وكان هو محبا «لسانت تيريز» يتردد على كنيستها

فى شبرا كثيرا ولذلك أطلق على أخته اسم «تريز» وكان كثير من الأصدقاء والأهل يسمونها كذلك لكثرة ما كان هناك من شبه بينها وبين تمثال «سانت تريز» فى كنيستها .

وسعد بأهله جميعا واطمأن عليهم وأشفق على والديه من تصرفات أخيه «الشقى» ولكنه قضى أياما وإن كانت قليلة وقصيرة إلا أنها كانت مليئة بالحب والدفء سواء من الأهل أو من الأصدقاء .

وكان لابد من العودة إلى ليبيا فى الطائرة التى وعد بالحضور عليها . وكانت أول طائرة تقلع من القاهرة إلى طرابلس بعد وصوله بثلاثة أيام لم تشف غليله ولم ترو عطشه لمصر ولأهله وأصحابه .

ولم يكن يربط بين ليبيا ومصر أنذاك إلا خطوط شركة الـ BOAC «الخطوط الجوية البريطانية» إذ لم يكن لمصر للطيران خط بين القاهرة والمدن الليبية ولم تكن الخطوط الجوية الليبية قد ولدت بعد .

ووصل إلى طرابلس ولم يكن هناك أحد فى استقباله وذهب من المطار إلى فندق «المهارى» .

وبغير شعور أو قصد واضح مد يده إلى التليفون وطلب «شيرلى» التى فرحت فرحا واضحا بمكالمته وقالت له إنها آتية حالاً إلى الفندق للقائه .

ثم اتصل بعد ذلك بناظر العدل فى ولاية فزان ليخبره بأنه انجز وعده وعاد فى الوقت المحدد بغير تأخير .

وسأل ناظر العدل عن تعليماته بالنسبة لأمر عودته إلى فزان فأمهله الرجل الطيب حتى يسأل «الرئيس» – سيف النصر – فقد كانوا يطلقون

عليه ذلك اللقب دائما . أليس هو رئيس المجلس التنفيذى للولاية وأهم رجل فيها حتى وإن كان من الناحية الرسمية يأتى ترتيبه بعد عمه «الوالى» ولكن الحقيقة أن خيوط الولاية وأمورها كلها كانت فى يده .

ورن جرس التليفون فى حجرته فتلقفه ملهوفا متوقعا أن تكون هى «شيرلى» ولكنه كان سيف النصر - الرئيس - يخبره أنه سيمثل الولاية فى اللجان المتعلقة بوضع القوانين الحديثة فى المملكة . وكان معنى ذلك أن يبقى فى طرابلس مدة أخرى . وكانت فرحته بذلك غامرة إلى أبعد الحدود .

وهو فى هذه الفرحة والسعادة اللتين لم يكن يتوقعهما عند عودته إذا بباب الحجرة يدق دقة خفيفة رقيقة وإذا به يفتح الباب ليرى أمامه «شيرلى» وإذا به لا يشعر إلا وهى بين ذراعيه والا وهو يضمها إليه بشوق لم يستطع إخفاءه وأحس بها وكأنها تبادله شوقا بشوق وإذا بهما يتبادلان قبلات على الوجنات فيها عذوبة الصداقة وحرارتها وليس أكثر .

وقال لها بإنجليزيته البسيطة "Awonderful Brotherlyki ss" قبلة أخوية رائعة .

ونظرت إليه نظرة يبدو أنها كانت تريد أن تقول له فيها : «إنها لا تصدقه» وانطلق يحدثها عن رحلته إلى طبرق ثم رحلته من طبرق إلى السلوم ومن السلوم إلى القاهرة .

وقالت له كم تود أن تقوم بهذه الرحلة على أن يكونا معا .

فقال لها من يدرى ماذا تخبئه الأيام .

ثم أخذ يفيض فى حديثه عن القاهرة وعن الأهل والصحاب وأخذت تسأله عن كل شىء حتى لكأنها تريد أن تعرف عنه كل ما تستطيع أن تعرفه .

وافترقا لكى تتركه يستريح من السفر وتواعدا على اللقاء فى الركن المعهود من الفندق فى المساء .

وجاءت كما وعدت ولاحظ أنها اعتنت بأناقتها أكثر مما كانت تفعل عادة واعتنت بما يهتم به النساء من أمر وجوههن وما يضعن من زينة . ولكنها فعلت ذلك كله بقدر خفيف جدا لا يكاد يظهر . ولكنه بدأ يحس فى عينيها ببريق اهتمام أكثر وضوحا .

وكان يحس بسعادة وهو يلقاها وهو يشد على يديها وهو يحدثها ويستمع إليها .

واستأنفا الحديث عن رحلة القاهرة .

وفجأة وبغير مقدمات حدثها عن أمر تلك الفتاة التى جرى ما جرى بشأنها بينه وبين أصحابه فى القاهرة ، وأنصتت إليه انصاتا شديدا . لم تقاطعه قط وهو يتحدث وبعد أن انتهى من حديثه سألته بعض الأسئلة ثم أطرقت غير قليل وقالت له :

– أتريد رأيى ؟

قال لها نعم وإلا لماذا حكيت لك الأمر كله .

– قالت له : إن الفتاة ليس بها ما يعيبها ولكن بحكم معرفتى بك وبطباعك ونشأتك التى تحدثنا عنها كثيرا من قبل فإنها ليست فتاتك ولست فتاها .

قال لها فى استغراب : كيف ؟

– إذا كنت ترى رأيى فإنى أرى أن أكثر الفتيات مناسبة لك هى فتاة تمتد جذورها إلى الريف ولكنها ذهبت إلى المدينة وتعلمت. ثم أنها يجب أن تكون إلى جوار ذلك واسعة الثقافة .

هذا هو رأيى لك .

وأطرقت صامتة .

واطرق هو أيضا ومضت سنون وسنون وجرت مياه ومياه .. ومازال يذكر تلك العبارة التى قالتها تلك «الأمريكية» الغريبة .

فتاة من عائلة من العائلات الكبيرة فى قلب الريف أخذت قدرا من العلم وقدراً أكبر من الثقافة – هذه فتاتك .

والعجيب أن هذا أيضا كان – فيما بعد – رأى أبيه .

ولكن سفينة حياته جرت على نحو آخر أرادته لها الأقدار .

شاهد صغير على تأسيس دولة !

كان هناك العديد من اللجان التى تعكف على دراسة كثير من القوانين اللازمة لبناء الدولة .. حقا .. كان الفقيه الكبير الدكتور السنهورى قد أنجز «القانون المدنى» وكان الملك قد أصدر الدستور بمقدمة تفيض روعة ، وتنتهى بأن الشعب قد أودع الدستور أمانة فى عنق الملك ، وأن الملك قبل الأمانة .

وكان الدستور يقوم على النظام الفيدرالى .. فقد كانت الدولة تتكون من ثلاث ولايات : طرابلس وبرقة وفزان ، ولكل منها مجلس تنفيذى خاص . وكان الملك يسود ولا يحكم ، وإلى جوار الملك مجلس للوزراء هو الذى يتولى السلطة التنفيذية ، وهناك برلمان مكون من مجلسين : مجلس نواب ومجلس شيوخ .. ثم كانت هناك المحاكم والنيابة .

كان مظهر الدولة الحديثة قائما ، ولكن حقيقة الأمور كانت غير ذلك .. كانت الدولة الجديدة بغير كوادر فى كل مناحى الحياة ، وكانت فقيرة توشك أن تعيش على الإعانات . وكانت الإمبراطوريتان الغاربتان - بريطانيا وفرنسا - تريدان أن تتمسكا بما تستطيعان من نفوذ غارب . وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تزحف فى كل اتجاه لكى تلقى سيطرتها على الدولة الجديدة ذات الموقع الاستراتيجى فى جنوب البحر المتوسط والتى تقول كل الدراسات : إن تحت أرضها واحدة من بحيرات

البترول الضخمة ، وكانت لأمريكا بالقرب من مدينة طرابلس قاعدة جوية، وهى واحدة من أكبر قواعدها الجوية خارج بلادها ، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق .

وكانت الثورة قد قامت فى مصر .. ولم تخف الثورة وجهها العربى . ولكنها أعلنته مؤمنة وفخورة به . ورغم أن مصر كانت محدودة الثروة .. محدودة القوة .. لكن ثورتها كانت شديدة التطلع .. شديدة الإيمان بقضية التحرر من الاستعمار ، سواء فى صورته القديمة أو الجديدة .

وكانت السودان وليبيا محل اهتمام خاص القيادة الجديدة فى مصر، بحسبانهما العمق والامتداد الحقيقيين لمصر . وأخذ ذلك الاهتمام مظاهر عديدة ، بعضها ظاهر وبعضها غير واضح . ومن ذلك الاهتمام أن مصر مدت يد العون إلى جارتها الغربية - المملكة الليبية المتحدة - فى كل ميدان استطاعت أن تساعدها فيه، وكان أهم تلك الميادين هو مد الدولة الجديدة ببعض الكوادر فى القضاء وفى التعليم وفى الصحة ، وحرصت مصر على أن تختار عناصر جيدة واعية لهذه المهام جميعا . والحقيقة أن ذلك كان محل تقدير عميق من الشعب الليبى ومن حكومته .

وقد كان صاحبنا من بين رجال القضاء الذين أعيروا لتلك الدولة وهى تحاول أن تضع اللبنات الأولى فى نظامها القضائى . وكان هو أول واحد من رجال القضاء المصريين يصل إلى ولاية فزان لكى يعمل رئيسا لنيابتها ، ولكن ظروف الولاية لم تجعله فى أيامه الأولى يقيم فى «سبها»

– عاصمة الولاية – وإنما كانت أغلب إقامته فى طرابلس حيث كان دولاب الدولة الجديدة يدور ويدار .. وكانت هناك لجان لإعادة النظر فى قانون العقوبات وفى قانون الإجراءات الجنائية اللذين كانا لم يجف مداد كتابتهما بعد . وكانت هناك لجان أخرى لقوانين ثانوية ، وكانت هناك لجنة مهمة لوضع مشروع القانون الذى سينظم الامتيازات البترولية .

وأعطى «سيف النصر» مشروع ذلك القانون لصاحبنا ، وطلب منه دراسته وتدوين ملاحظاته وإعطائها له . وفعل ما طلب منه ، وقام به على نحو ما استطاع ، وهو حديث الخبرة العملية ولم يسمع قط عن شىء اسمه امتيازات البترول وتنظيماته ، ولكنه مع ذلك أبدى بعض الملاحظات التى اهتم بها «الرئيس» .

وحضر مع بعض كبار رجال القضاء المصريين فى لجان أخرى خاصة بإعادة النظر فى قانون العقوبات وفى قانون الإجراءات ، وكانت تلك اللجان تتكون من بعض الليبيين وكثير من المصريين الذين يقومون فى الواقع بالعمل كله . وكان المصريون أعضاء تلك اللجان من قدامى المستشارين فى مصر ، وكان صاحبنا يجلس أمامهم مجلس «التلميذ» من أساتذته ، ولكنهم فيما يبدو كانوا يقدرون فيه بعض السمات ، وكانوا يرون فيه نوعا من النبوغ المبكر الذى يمكن أن يعتمد عليه بعض الاعتماد . وكانت بالنسبة له تجربة غنية ثرية أن يجلس إلى هؤلاء الرجال الكبار الذين أنضجتهم التجربة ، وأن يسمع مناقشاتهم

وحـــواراتهم، وأن يتـــدخل قليـــلا – وبأدب شـــديد – فى بعض هذه المناقشات.

وحرص وهو فى طرابلس على أن يحـضـر بعض جلسـات مـجلس النواب ، حـيث قد علم أن أحد النواب قد وجـه اسـتجـوابا خطيراً إلى رئيس الحكومـة ولا يذكر الآن كـيف اسـتطاع أن يحـصل على تصـريح بحضور جلسات المجلس ، ولكنه يذكر جيداً ذلك النائب الخطيب الجرىء «صالح مسعود بويصير» وهو يكيل الاتهامات لرئيس الوزراء «مصطفى بن حليم» والذى كان من خريجى كلية الهندسة بجامعة فاروق – جامعة الاسكندرية فيما بعد – وأعجب إعجابا شديدا بذلك النائب الجرىء ، وكان حريصـا على أن يسمع رد رئيس الوزراء عليه ، وقد جاء ذلك الرد حريصاً ماكراً ذكياً . وإن صاحبنا وإن كان لا يذكر وقائع الاستجواب .. إلا أنه يذكر جيدا أن الأمر كان خطيراً ، وكان يتعلق ببعض مظاهر الفساد ، وبعض مظاهر التفريط فى سيادة الدولة الجديدة .. ولم يملك صاحبنا نفسه إلا أن يسعى لمعرفة ذلك النائب الجرىء الذى لا يخشى شيئاً والذى جعله يتذكر «مصطفى مرعى» وعبد العزيز الصوفانى» .. وجولات المعارضة فى البرلمان المصرى قبل أن تطفىء الثورة المصرية .. تلك الحياة البرلمانية التى كانت خصبة وواعدة من أجل أهداف أخرى قدرت الثورة أهميـتها وحيويتها ، وقد كانت بالفعل كذلك .. وإن كان الفـتى لم يدرك أين كـان يوجـد التناقض بين هذه الأهداف الجـديدة والحـياة البـرلمانيـة قبل الثورة ؟! ولكن ذلك هو الذى كان على أى حـال واستمرت آثاره السلبية إلى مدى بعيد !

وقدمه بعض من عرفه من الليبيين إلى «صالح مسعود» نشأت بينهما علاقة طيبة كانت مقدمة لعلاقة أعمق عندما عاد هو إلى القاهرة بعد انتهاء إعارته ، وعندما جاء «صالح مسعود» إلى القاهرة لاجئا سياسيا وأقام بها إلى أن قامت ثورة الفاتح من سبتمبر فى ليبيا ، حيث عاد ليكون وزيرا لخارجية ليبيا ووزيرا لشئون الوحدة .

وكان يجد فى نفسه الجرأة التى جعلته يجلس مع «صالح» وبعض النواب المعارضين من شيعته فى «قهوة إيطالية» قرب مبنى البرلمان ، يتبادل معهم الحديث والمناقشات وكأنه نسى أنه وافد يعمل فى النيابة العامة ، والأصل فى رجال القضاء أن يبتعدوا عن ميادين السياسة ، خاصة إذا كانوا من غير أهل البلد الأصليين .

وهكذا كانت أيامه تلك فى طرابلس مليئة وخصبة ، وكانت بيقين أكبر من سنه ومن تجربته . كان فى الصباح يحضر اجتماعات اللجان ويحاول أن يتابع ما يجرى فيها من دراسات ومناقشات ، وفى المساء يحضر أكثر من جلسة من الجلسات التى نوقش فيها ذلك الاستجواب الخطير الذى لم يعد يذكر تفصيلاته !

وكانت إلى جوار ذلك فى حياته لحظات أنس ومتعة .. تلك التى كان يقضيها فى فندق المهارى فى تلك الأمسيات المليئة بكثير من أجناس الأرض .. وكانت «شيرلى» تأتى . وعادة ما كانت تخبره بموعد حضورها وكان ينتظرها حفياً بها ، سعيداً بحديثها ونقاشها .. وما أكثر ما كان يثور بينهما من جدل فى بعض الأمور السياسية وفى بعض الأمور الفكرية .

والحقيقة أن العلاقة بينهما كانت قد توثقت وتعمقت ، وأوشكت أن تدخل فى منحنى جديد . كانت تكلمه كل يوم فى التليفون أكثر من مرة ، ودعته ذات مرة لكى يتناول العشاء معها ومع زوجها فى منزلهما الذى كان يقع قريبا من القصر الملكى فى طرابلس ، وإن كان الملك لا يقيم عادة فى ذلك القصر ، ورحب بدعوتها وذهب فى يده هدية صغيرة .

وكم كان العشاء بسيطا ، لا يقارن بما يحدث فى الدعوات العربية التى يسودها البذخ والتظاهر .. إنه يذكر إلى الآن البساطة الشديدة .. صنف واحد من اللحوم ، وصنف واحد من الخضار ، وسلاطة كثيرة .. ثم فاكهة أكثر ، ولم يشاركها هى وزوجها فيما كانا يشربان واكتفى بأن تناول شرابه المفضل «الليمون» .. وانتهى العشاء .

كان واضحا أن علاقتهما تزداد تطورا ، وتزداد عمقا ، وتوشك أن تقلع فى بحار غير معلومة .

وأصابتها نزلة برد حالت بينها وبين المجىء إلى الفندق ، وأحس برغبة فى أن يعودها ، ويطمئن عليها ، وذهب لزيارتها وفى يده «باقة من ورد» وبدا عليها المرض واضحا وهى تفتح له الباب ، وهى تقوده إلى الداخل وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث .

وكانت هى فى سريرها وهو يجلس على مقعد بجوارها يربت على يدها ثم ما لبث أن أنتقل إلى السرير وجلس على حافته وأخذ ينقل يده من يدها إلى جبهتها ثم ينحنى عليها يقبلها ... ثم يتطور الأمر قليلا قليلا إلى أن يصل إلى قبلة عارمة ليس لها بقبلات «الأخوية» أى صلة .

و كانت بداية رحلة وعرة وإن كانت قصيرة .

وتكررت اللقاءات ، وأحس أن براكين الشباب المكبوتة قد تفجرت فجأة فى أعماقه .

وعاش تجربة لم يعرفها من قبل .

وغرق فى تجربته تلك حتى أذنيه .

كانا يعلمان أنها تجربة محكوم عليها ألا تستمر طويلاً .. فكلاهما إقامته فى طرابلس عارضة .. هى ستعود يوما إلى بلادها ، وهو سيذهب إلى فزان ، وبعد أن تنتهى إعارته سيعود إلى القاهرة .

واقتضى الأمر أن يعود إلى فزان .. فقد كانت الولاية قد فرغت من تأثيث مبنى المحكمة والنيابة ، وكان أحد القضاة على وشك أن يحضر من مصر معارا رئيسا للمحكمة فى فزان .. رئيسا بغير قضاة .. كما كان هو رئيسا بغير وكلاء نيابة .

وكان وداعا حاراً ومؤثرا ، ولم يرها تبكى قط كما بكت فى ذلك اليوم ، ولم يكن من قبل يتخيلها باكية أو مهزومة .. لقد انتهت «الشعنونة» التى عرفها بادىء الأمر وجاءت مكانها مخلوقة تمتلىء حرارة ورقة ومشاعر جياشة فياضة .. وقالت إنها ستكتب له . وعلى الرغم من أن رحلة الطائرة بين طرابس وفزان هى مرة واحدة فى الأسبوع .. فإنها قالت له إنها ستكتب كلما أرادت أن تتحدث إليه . ولم يكن هناك سبيل إلى الاتصال التليفونى إلا بعسر عسير ، وسافر إلى فزان ، وبدأ عمله فى النيابة وقلبه وعقله هناك بعيدا فى طرابلس ..

قريبا من قصر الملك ، وإن لم يكن الملك صلة بذلك من قريب أو من بعيد! وجاءت أول طائرة بعد عودته إلى فزان وعليها منها ثلاث رسائل ، كل رسالة منها بضع صفحات ، وأخذ يعبها عبا .. ثم يعيد قراءتها من جديد ، ولم يكن قد اعتاد على كتابتها بعد .. وكانت هذه أول مرة يقرأ فيها رسائل باللغة الإنجليزية .. فكان يعانى ، ولكنه كان يجد فى المعاناة متعة، وكان يكرر القراءة مرة ومرة حتى تستقر كل الكلمات والجمل فى قلبه .

وكان عمل النيابة محدودا جدا ، وكانت التحقيقات القليلة التى باشرها تدور حول بعض قضايا الشذوذ الجنسى – وهو أمر شائع فى المجتمعات الصحراوية ، حيث الفصل الكامل بين عالم الرجل وعالم المرأة .. وبعض قضايا الاعتداءات القبلية ، ولكن هذا وذاك كان من الأمور النادرة . كانت كل قضايا ولاية فزان لا تساوى جزءاً صغيراً من قضايا «نقطة بوليس» من النقاط العديدة فى قسم قصر النيل الذى كان يعمل فى نيابته قبل سفره إلى ليبيا ، وكان وقت الفراغ كبيراً ، ولم يكن يجد متعة فى الحديث مع مجموعة المصريين الموجودين ، وخاصة مع القاضى الذى جاء أخيراً ، والذى كان يريد بحكم السن وبحكم التدرج الوظيفى أن يفرض عليه نوعاً من الوصاية والرئاسة .

كان يقضى وقته إما فى القراءة العادية لبعض كتب الأدب ، أو فى قراءة رسائلها ، أو فى الاستماع إلى محطات الإذاعة التى يمكن له التقاطها بذلك «الراديو» الصغير الذى كان فى حوزته .

وكان ينتظر الطائرة بفارغ الصبر .. كانت تأتى مرة واحدة فى الأسبوع بعد أن كانت فى البداية تأتى كل أسبوعين ، وكانت الطائرة تحمل له بعض الصحف والمجلات ، وتحمل له بعض رسائل الأهل والأصدقاء من القاهرة ، وتحمل له كل مرة رسالتين على الأقل منها .. وكان ذلك الزاد الضخم يملأ عليه حياته ليومين أو ثلاثة على الأكثر .. ثم يمضى بقية الاسبوع يجتر ما سبق أن قرأه ، أو يمد يده ليتناول بعض ما جاء به من كتب الأدب العربى أو الأدب المترجم إلى العربية .

واقترحت عليه فى إحدى رسائلها أن يكتب إليها على صندوق بريد اتخذته فى طرابلس ، وأنقذه ذلك من السأم والملل .. إذ أنه كان يحاول أن يكتب بإنجليزيته الضعيفة كل يوم بضعة أسطر حتى يكمل لها رسالة من صفحة أو صفحتين كل أسبوع يعلق فيها على رسائلها له ويكتب لها عن حياته فى فزان ، ومضت بضعة أسابيع – قد تكون شهرين أو أكثر . فما عاد يذكر بعد ذلك الزمن الطويل ، ولكنها بالقطع كانت مدة طويلة بالغة الطول بمقاييس الإحساس والمشاعر ، وإن لم تكن كذلك بمقاييس الزمن من ساعات وأيام .. وأخذ الصيف يقترب ، مقتحما عفياً يملأ صحراء فزان حرارة وقيظا .

وأخذ يفكر : كيف يذهب إلى طرابلس ؟

كيف يذهب إلى البحر .

وذات يوم استدعاه «سيف النصر» وأخبره أن برقية جاءت من النائب العام يحدد فيها اجتماعا لرؤساء النيابات الثلاث معه فى

طرابلس ، واعتذر له «سيف النصر» عن هذا الإقلاق ، ولكنه أخبره أنه لا سبيل إلى الاعتذار ولابد من الذهاب إلى الاجتماع .

كان يسمعه وهو لا يسمعه ! .. كانت الأفكار والمشاعر كلها تمور مورا لا يحس معه بشيء . ولم يشعر وهو يغادر حجرة «الرئيس» - سيف النصر - إلا أنه يسلم عليه ويقبله ، وعجب من نفسه كيف فعل ذلك .. فالعلاقة بينهما لم تكن تسمح بذلك ، ويقينا فإن الرجل قد أصابه من الاستغراب مثل ما أصابه هو ، ولكنه لم يجد لذلك تفسيرا ولم يشغل نفسه به على أي حال !

أما صاحبنا .. فقد ذهب إلى منزله لا يكاد يحس بشيء ، ولا يكاد يعي شيئا .. إلا أنه يعد الأيام الباقية على وصول الطائرة ثم إقلاعها في رحلة عودتها إلى طرابلس .. ومضت الأيام والساعات بطيئة لا تريد أن تتحرك حتى جاءت ليلة السفر ، ولم يذق في تلك الليلة طعم النوم .. أو هكذا خيل له .. وأخيراً أزفت الساعة ، وركب الطائرة متجها إلى طرابلس .. ولم يكن هناك من سبيل إلى إخبارها بنبأ الرحلة ، ووصل إلى المطار - ومطار طرابلس القديم بعيد عن المدينة - وما أظنه شعر بطريق أكثر طولا ولا مللا من ذلك الطريق في تلك المرة .

ووصل إلى طرابلس .. ولم تحتمل المفاجأة .. وجاءته فورا .

واختلطت الدموع مع زفرات الصدور ، ولم يشعر بالساعات التي مضت وكأنها دقائق ، ويا سبحان الله .. إلى هذا المدى تكون نسبية الزمان والمكان ؟! الزمان الذي كان لا يريد أن يتحرك يصبح وكأنه

يركب «عفريتا» أو يركبه «عفريت» ! وسألته كم سيبقى فى طرابلس ؟!
فأخبرها .. مدة قصيرة لن تقل ولن تزيد على أسبوع تحكمه رحلة
الطائرة الأسبوعية .. ولم يره أحد قط فى طرابلس فى أثناء هذه الزيارة
إلا تلك السويعات التى قضاها فى اجتماع النائب العام مع رؤساء
النيابة .. ثم اختفى بعد ذلك فى فندق صغير خارج المدينة على شاطىء
البحر . وكل فنادق الدنيا ما كانت تدانى عنده فى أيامه تلك روعة هذا
الفندق الصغير .

امتحان عسير .. فى سن صغيرة

كان الوالى قد قال له عندما استقبله أول مرة عند حضوره إلى فزان : بالله .. تالله لا تأخذنك فى الحق لومة لائم .. وكان صاحبنا على استعداد لتصديق ذلك خاصة أن وزير العدل فى مصر قال له ولزملائه قبل سفرهم إلى ليبيا : إن كرامة القضاء المصرى وسمعته أمانة فى أعناقكم .. تذكر صاحبنا ذلك كله عندما أحيلت إليه أول قضية خطيرة فى ولاية فزان .

وتتخلص القضية فى أن الدولة الفقيرة آنذاك – فى أوائل الخمسينيات – كانت تتلقى قمحا على سبيل المعونة من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت ولاية فزان باعتبارها أفقر الولايات صاحبة النصيب الأوفر من هذه المعونة حسب تعداد سكانها الضئيل ، وجرى توزيع المعونة على الفقراء المستحقين ، ولكن الأمر لم يقف عند حد هؤلاء .

بعض الأثرياء – ومنهم بعض أعضاء مجلس النواب والشيوخ – استحلوا لأنفسهم الجزء الأكبر من هذا «القمح» إما لأنفسهم وذويهم أو – وهذا أشد نكرا – للتجارة فيه .

وأحيل الأمر إلى النيابة العامة .

وبدأ صاحبنا التحقيق على نحو ما ينبغي أن يكون التحقيق مراعيا وجه ربه ووجه القانون .

وكانت الجهات التنفيذية فى الولاية قد اتهمت شخصين أو ثلاثة من ذوى النفوذ باستغلال نفوذهم وبأخذ المعونة المخصصة للفقراء لأنفسهم ولكن التحقيق عندما بدأ لم يتوقف عند هذين الاثنين ، وإنما امتد ليشمل غيرهم من أعضاء النواب وأعضاء الشيوخ وذوى النفوذ من العائلات الكبيرة .

وبدأ التحقيق وأصحاب الشأن فى الولاية – فيما تبين له بعد ذلك – يريدون أن يوقعوا بالشخصين اللذين أبلغ عنهما أولا ولم تكن نيتهم تتجه إلى اتساع التحقيق على النحو الذى وصل إليه .

ولكنه وهو يحقق لم يكن يذكر غير نداء ربه وغير ما قاله له الوالى ، وما نصحه به وزير العدل ، وغير أمانة الحق وحيدة التحقيق واستقامته..

وجاءته الرسل .. واحداً بعد الآخر يحذرونه فى صمت .. وكأنهم يسدون إليه النصح ! ألا يذهب بالتحقيق بعيدا وأن يقتصر على أولئك الذين أبلغ عنهما فى بداية الأمر .

ولم يكن يأخذ كلام هؤلاء «الناصحين» مأخذ الجد وكان يقول بينه وبين نفسه : لو كان فى مصر ما كان من الجائز أو المقبول أن تحدث مثل هذه الحوارات أو المداخلات حتى ولو كان ذلك بحذر شديد .. إن مثل هذا الأمر أنذاك كان يعتبر شيئا نكرا ، ولكن فى المجتمعات حديثة العهد بالتنظيم القضائى والتى لم تستقر فيها تقاليد قضائية بعد فإن الناس قد تبيح لنفسها ما لا يباح ! .

وأخذ الأمور ببساطة ولم يعطها اهتماما كبيرا ومضى فى تحقيقه على النحو الذى تقتضيه المصلحة العامة وسلامة التطبيق القانونى .

ولكنه بدأ يلاحظ أنه يطلب شهودا ولا يحضر هؤلاء الشهود ويكرر الطلب ولا من مجيب وبدأ الفأر يلعب فى «عبه» كما يقولون!

واتصل بصاحب الشرطة يذكره بأن على الشرطة أن تستجيب لما تطلبه النيابة وما تراه لازما لمصلحة التحقيق ، وأجابه الرجل بأن ما كان لم يكن مقصودا وأن طلبات النيابة ستنفذ بعد ذلك بغير إبطاء .

ولكن الأمر استمر على ما كان عليه ولم يتغير شيء .. الشهود لا يحضرون . بل وأكثر من ذلك أن المتهمين – وكانوا مازالوا مفرجا عنهم – لا يستجيبون لطلبات النيابة ..

وأدرك أن الأمر وراءه تدبير .. واحتار ماذا يفعل ؟

هل يلجأ إلى النائب العام ؟ إن النائب العام فى النظام الفيدرالى لا شأن له بأمور الولايات وإن مهمته مقصورة على تمثيل النيابة أمام المحكمة العليا الفيدرالية ؟ .

إلى من يلجأ إذن ؟

ليس أمامه إلا ناظر العدل فى الولاية .. ورغم أن ناظر العدل جزء من السلطة التنفيذية .. إلا أنه هو المرجع الذى يمكن أن يرجع إليه فطلب مقابلته وكان أمرا غير عادى ألا يستجيب الرجل لطلب المقابلة إلا بعد أسبوع كامل رغم أن مكتبه يقع على بعد خطوات من النيابة ، ورغم أنه لا يوجد لديه عمل يحول بينه وبين لقاء رئيس النيابة الذى طلب مقابلته وأوضح أن الأمر عاجل لا يحتمل التأخير !

وذهب فى الموعد المحدد لمقابلة ناظر العدل وقابله الرجل الكبير فى السن ذو اللحية الكثيفة وأخذ يرحب به على عادة الليبيين ترحيبات متكررة ، وبعد أن شرب الشاى شرح للناظر ما جاء به وما يلقاه فى تحقيق قضية «قمح المعونة» من عنت وتعب وتعطيل ..

واستمع الرجل وهز رأسه ولم يزد على أن قال : صبر جميل إن شاء الله : وإن الله بيده الأمر من قبل ومن بعد .. وحاول صاحبنا أن يشرح له عدم استجابة الشرطة لطلبات النيابة وأن هذا مخالف للقانون فلم يزد الرجل على أن قال : «صبر جميل» وزاد أنه سيخبر السيد الرئيس – يقصد رئيس المجلس التنفيذى ..

ومضى يوم ثم أسبوع وبدأ تطور جديد ظن فى بداية الأمر أنه غير مقصود ثم تبين له بعد ذلك إنه تطور وراءه ما بعده ..

كان الماء يوزع على المنازل بواسطة سيارات خاصة لتوزيعه ، وكان المنزل الذى يقيم فيه يتمتع بمزية خاصة . وهى أن الماء كان يأتيه بواسطة سيارة الولاية ثم كان يأتيه ماء إضافى بواسطة سيارة الشرطة لتوزيع الماء على منازل كبار رجال الشرطة . وبدأ الأمر بأن سيارة الشرطة لم تعد تجىء ، ورغم أنه أدرك المعنى المقصود فإن ذلك لم يزعجه كثيرا فقد كان فيما يأتيه من ماء عن الطريق العادى الكفاية..

وفى النيابة كانت المحاضر تفتح ثم تقفل كما هى بغير جديد ، لا شهود يحضرون ولا متهمون ، ولا رد من الشرطة على خطابات النيابة .

وأصبح الأمر واضحا بغير خفاء ، لقد كانت السلطة فى الولاية

تقصد أن يتجه التحقيق إلى أشخاص بعينهم هما اللذان أبلغ عنهما أول الأمر فلما امتد التحقيق إلى غيرهم من رجال سلطة الولاية وأحبائهم كرهوا ذلك وبرموا به وقاوموه بتلك الطريقة السلبية الفجة .

وطلب مقابلة الوالى فلم يسمع ردا ..

ما الذى جرى ؟ لقد كان يطلب مقابلة هذا أو ذلك فيستجاب لطلبه فى الحال ، لماذا تغيرت الدنيا هكذا ؟ وكان صاحبنا يعيش فى الصحراء الليبية ، وكانت حياته تعتمد اعتمادا كاملا على ما تقدمه له الولاية وسلطاتها من عون فى كل مناحى الحياة ، وقد بات واضحا أن سلطات الولاية تقبض يدها عنه يوما بعد يوم ولا تستجيب له سواء تعلق الطلب بأمور العمل أو بأمور الحياة .

وفكر وقدر ..

ووجد نفسه فى طريق مسدود ..

ولجأ إلى ذلك الزميل الذى جاء ليرأس المحكمة ، وكان رجلا قصيراً بدينا يمتلىء وجهه بالذكاء والمكر ، وكان لا يرتاح لصاحبنا ولا يرتاح صاحبنا له ، ورغم أنه كان من المفروض أن يكونا أقرب اثنين من المصريين لبعضهما بحكم انتمائهما القضائى إلا أن الواقع كان غير ذلك ، ومع ذلك فإنه لم يجد بدا من أن يلجأ إليه يسأله ماذا يفعل .

واستمع إليه المرحوم «المستشار إبراهيم الجافى» رئيس المحكمة دون أن يقاطعه ، ومضت فترة صمت بعد أن انتهى صاحبنا من روايته، وأطرق «الجافى» غير قليل ثم قال له : ماذا ستظن أنى قائل لك ؟ .

قال صاحبنا : لو كنت أدرى ما كنت لجأت إليك !

وعاد الصمت من جديد .

ثم قال «الجافى» : أتسمع رأيى إذا قلته لك ؟

قال صاحبنا : يقينا سأفكر فيه مليا ، وإلا فلماذا لجأت إليك ؟

قال الجافى : اصمت كأن الأمر لا يعنيك ، افتح محضرك وأثبت فيه أن أحداً لم يستجب لطلب النيابة ، وبين وقت وآخر إرسل إلى إدارة بوليس الولاية وجدد طلب من تريدهم من شهود أو متهمين والزم بعد ذلك جانب الصمت . ثم أردف قائلا : إنها بلادهم وليست بلدنا !

وسمع صاحبنا هذا الكلام ولكنه لم يرتح له .

وأخذ يفكر ويفكر ، يوما وثانيا وثالثا ..

وكان العام الأول من إعارته إلى ليبيا يوشك أن ينتهى ، كان قد مضى عليه قرابة عشرة أشهر ، ولم تكن الإعارة قد أتت بعض ثمارها من الناحية المادية . ماذا يفعل ؟ هل يسمع كلام «المستشار إبراهيم الجافى» ويعتبر الأمر كأنه لا يعنيه .. أم ماذا يفعل ؟ واشتدت حيرته .

وأخيراً أمسك القلم وكتب إلى رئيس مجلس القضاء الأعلى فى ليبيا يخبره أنه يقدم استقالته من منصب رئيس نيابة ولاية فزان ويطلب إنهاء إعارته وعدم تجديدها . مما يعنى رغبته فى العودة إلى بلده .

ولم يخبر أحداً فى الولاية بقراره ، وأرسل استقالته فى خطاب مسجل إلى طرابلس ، وسافر الخطاب فى طائرة اليوم التالى ..

وكان عليه أن ينتظر أسبوعا لكى يعرف ماذا حدث عندما تعود الطائرة بعد أسبوع من طرابلس .. ولم يأته شىء فى الطائرة التالية .

ولكنه تلقى برقية بعد ذلك .. بعد عشرة أيام تقريبا من تقديم استقالته - من أحد الزملاء المصريين فى طرابلس تعلمه بأن استقالته قد قبلت .

وأخذ يستعد لمغادرة فزان ..

وحملت له الطائرة القادمة من طرابلس والتى سيستقلها فى اليوم التالى خطابين ، أحدهما من رئيس مجلس القضاء الليبى يفيض بعبارات التقدير والأسف على قبول الاستقالة ، والآخر من السفير المصرى فى ليبيا يطلب منه الاتصال به قبل سفره إلى القاهرة .

وفى طرابلس التقى بكل رجال القضاء المصريين ، وكانوا بين مؤيد لموقفه وبين معارض له ، ولكن الجميع أبدى له التشجيع وشد على يده .

وعندما اتصل بالسفير . وكان رجلا عسكريا فى الأصل - المرحوم أحمد حسن الفقى ، الذى صار بعد ذلك سفيرا فى لندن ثم بلغ سن التقاعد - أخبره السفير أنه يقدر موقفه ويعتز به وقال له : لقد ضربت مثلا لكثيرين من المتكالبين على المنصب وعلى الإعارة .. وأخبره أنه فخور بموقفه وتصرفه وأنه سيقيم حفلا على شرفه قبل سفره .

وأحس صاحبنا بسرور ورضا كبيرين .

وسافر إلى القاهرة غير آسف على المنصب أو على المال ، وكان واثقا أنه سيلقى فى القاهرة من التكريم ما يستحقه .

ولكن الأمر فى القاهرة كان على غير ما توقع تماما !

إلى القاهرة .. من جديد

كان وهو فى الطائرة فى طريقه إلى القاهرة يسترجع شريطا حافلا ، وإن كان قصيرا فى زمنه ذلك أنه لم يتعد أحد عشر شهرا وبضعة أيام منذ وطئت قدماه أرض ليبيا لأول مرة ، واليوم وهو يغادرها عائدا إلى القاهرة بعد أن استقال وقبلت استقالته ، وبعد أن لقى من أوجه الحفاوة ما لم يكن يتوقعه من سفير مصر فى ليبيا الذى أقام له حفل توديع فى حديقة منزله ودعا إليه عددا كبيرا من رجال القضاء المعارين إلى ليبيا والذين كان بعضهم ينظر إلى ذلك الشاب بإكبار وتقدير شديدين ، وكان بعضهم الآخر ينظر إليه على أنه «مهفوف» أو مغرور أو لعله من الذين لديهم من الأموال فى مصر ما يجعلهم لا يندمون على ما كانوا فيه ، والله وحده يعلم أنه لم يكن يملك من الدنيا شروى نقير وأنه لم يكن «مهفوفاً» ولا مغروراً ولكنه كان يؤمن برسالة معينة ، وكان يسعى إلى أن يرضى عن نفسه وقد تحقق له من ذلك شىء كثير .

وهو لا يستطيع أن ينسى الملحق العسكرى فى السفارة المصرية فى طرابلس «إسماعيل صادق» .. كان رجلا شهما بكل المعايير ، كان طويلا عريض المنكبين ، وكان كريما جريئا . قابله فى نهاية حفل السفير: ثم دعاه إلى الغداء ظهر اليوم التالى وأخبره آنذاك أنه قد بعث تقريرا إلى القاهرة بكل ما كان وأنه يستطيع أن يعود إلى القاهرة وهو مطمئن إلى أنه سيجد فيها من النصفة والإعزاز أكثر مما وجده فى طرابلس بكثير ، وسر لسماع ذلك بعد أن لقى من تكريم السفير ما لقيه.

واستقبله أهله بفرح شديد ، كان أخوه الكبير قد تزوج واستقر فى مسكن بعيد فى المطرية .

وكانت أخته مازالت فى الصعيد حيث يعمل زوجها فى القضاء .

وكان أبوه وأمه يترددان بين القرية وبين القاهرة أحيانا معا وأحيانا كل منهما بمفرده .

وشرح لهم ما كان من أمر انتهاء إعارته بعد عام واحد على عكس ما كان يتوقع ويريد وأحس أنهم بدورهم يحملون مشاعر متباينة ، بعضهم يرضى عنه وعما فعل ، وبعضهم يرى أنه كان متسرعا لم يرع ما أفاء الله به عليه من نعمة .

أما «عصمت وفتحى» فقد كانا راضيين تماما عن تصرفه ربما لأنهم جميعا كانوا ينتمون إلى مدرسة مثالية فى السياسة هى مدرسة الحزب الوطنى القديم أو مدرسة الحزب الوطنى «الوطنى» كما كان يؤثر المرحوم الاستاذ فتحى رضوان أن يسميه تمييزا له من أسماء أخرى وأحزاب استجدت ، ربما لهذا السبب وربما لفرحتهما بعودته إليهما حيث كانت علاقتهم نوعا فريدا من العلاقات الإنسانية الغالية ، وكان قربه فى السن من فتحى وقربه منه أيضا فى الصفات الهادئة يجعلهما أقرب لبعضهما منهما لعصمت ، أو هذا ما كان يظنه .

وكان قد سأل بعض كبار رجال القضاء أثناء حفل السفير إلى أين يتوجه عندما يعود إلى القاهرة وفهم منهم أن عليه أن يتوجه إلى النيابة الكلية التى أعير منها ، وكانت تلك هى نيابة جنوب القاهرة .

ولم يكن فى القاهرة غير نيابتين كليتين ومحام عام واحد . ما أبعد الشقة بين الأمس واليوم . إن القاهرة فيها الآن من المحامين العامين – بدرجة مستشار – عدد يزيد على عدد وكلاء النيابة فى ذلك الزمان الذى يتحدث عنه صاحبنا .

وذهب وهو يحمل فى قلبه وعقله مشاعر متباينة وانفعالات كثيرة مكبوتة إلى نيابة جنوب القاهرة فى محكمة باب الخلق العتيقة ، واستقبله زملاؤه هناك بحرارة وإن لم يسلم من سخرية البعض واستغرابهم لتصرفه واستقالته وعودته إلى «الفقر» على حد تعبير بعضهم . بعد أن كان مرتبه مائة وأربعين جنيها بالتمام والكمال يعود ليقبض «ثلاثين» جنيها ليس غير . ياله من غر أحمق ، وتبادل الزملاء «القفشات» .

وآن الأوان لكى يدخل ويقدم نفسه إلى رئيس النيابة .

وكان رئيس نيابة الشمال هو الرجل الفاضل العالم والأب الحنون المستشار أحمد موافى ، وقد عمل معه صاحبنا قبل إعارته سواء عندما كان فى النيابة الكلية أو عندما كان فى نيابة قصر النيل وهى إحدى النيابات التابعة لجنوب القاهرة آنذاك .

واستقبله الرجل الكبير حفيا به مرحبا وأبدى له إنه سمع بطرف مما حدث فى ليبيا وأبدى له إعجابه وتشجيعه وأن هذا هو ما ينتظره من العاملين فى القضاء صغيرهم قبل كبيرهم .

وسره ذلك سرورا شديدا وأثلج صدره .

وخيره «أحمد موافى» فى أن يبقى فى النيابة الكلية أو أن يذهب

إلى نيابة قصر النيل التى كان فيها قبل إعارته ، وما كان له أن يبدى رغبة خاصة وإنما ترك الأمر للسيد رئيس النيابة الذى آثر أن يستبقيه مؤقتا فى النيابة الكلية .

وكان بذلك سعيدا فقد كان حبه للرجل وإعجابه به يجعله يرجو لو بقى قريبا منه ، وقد تحقق له ما أراد .

وبعد أن رحب به رئيس النيابة وجهه إلى أن يذهب لمقابلة النائب العام والسلام عليه وأفهمه أن النائب العام عرف بعودته وعرف بما حدث فى طرابلس وما حدث فى فزان .

وتوجه فى اليوم التالى إلى مكتب النائب العام .

وكان المستشار حافظ السابق النائب العام - آنذاك - رجلا مهيبا ، كان قصيرا مليئا ، وكان أهم ما يميز وجهه عيناه الصغيرتان اللامعتان النفاذتان .

وانتظر قليلا فى مكتب سكرتير النائب إلى أن أذن له بالدخول فدخل مضطرباً لا يدرى ماذا يقول وبماذا ينطق ، ولكنه دخل على أى حال وتلعثم ببعض الكلمات ، ومد له النائب العام يده وسلم عليه وقال له: حمدا لله على السلامة ، ثم ربت على كتفه وقال له نيابتك وبلدك أولى بك .

وأدرك بسرور شديد أن هذه العبارة توحى بنوع من التكريم الكبير.

وهو على باب الحجرة هاما بالخروج ، اتجه إليه النائب العام قائلا : «اذهب وسلم على حسنى بك» .

ووقف صاحبنا وهو لا يفهم ولا من يعنى النائب العام بحسنى بك هذا ، ويبدو أن التساؤل كان واضحا على وجهه فأعاد النائب عبارته «روح سلم على حسنى بك» وللمرة الثانية لم يدرك ماذا يقصد النائب وزاد ارتباكه وإذا بالنائب يقول له فى شىء من العنف «أحمد بك حسنى وزير العدل»» .

حاضر يا فندم حاضر يا فندم .

وخرج وهو لا يكاد يجمع شتات نفسه ، وبدأ يهدأ رويدا رويدا ويستعيد نفسه شيئا فشيئا .

وفى اليوم التالى توجه إلى وزارة العدل ، وكانت آنذاك فى ميدان لاظوغلى ولكن فى مبناها القديم ، وكان المبنى لا يضم وزارات أخرى كما هو الحال اليوم ، وكانت وزارة العدل وحدها فى ذلك المبنى القديم المتسع الحجرات ، المرتفع الأسقف ، وسار وهو سعيد أنه سيقابل الرجل الذى أوصاه هو وزملاءه بالحفاظ على كرامة القضاء المصرى وأن هذا القضاء وسمعته أمانة فى أعناقهم ، لابد أن الرجل الكبير قد علم بموقفه الصلب فى الحق وبأنه ضحى بكل مصلحة ذاتية مالية من أجل أن يدافع عما اعتقد أنه حق وصواب و من أجل حفاظه على نصيحة الوزير وصيانته لكرامة القضاء المصرى .

ودخل بادىء ذى بدء عند وكيل الوزارة لشـئـون مكتب الوزير «المستشار لطفى بك على» وكان رجلا ودودا فاستقبله استقبالا أبويا فيه حنو وعطف واستبقاه حتى يفرغ الوزير مما لديه .

وكان «المستشار لطفى على» يهم بين وقت وآخر لينظر من كوة زجاجية فى باب أخضر يفصل بين مكتبه ومكتب الوزير ليرى ما إذا كان الوزير مشغولا فى التليفون أو مشغولا مع أحد وبعد فترة كانت طويلة عليه كأنها دهر أدخله «لطفى بك» إلى مكتب الوزير .

ومشى وهو لا يكاد يحس بنفسه ولا بخطواته وشعر بنوع من الدوار الخفيف ، وكانت الحجرة واسعة والوزير هناك بعيد فى آخرها على مكتبه الذى لا يكاد يظهر منه ، فقد كان المكتب ضخما جدا وكان الوزير قليل الحجم دقيق البنية ، وما كاد صاحبنا يصل إلى نصف الحجرة حتى سمع الوزير يقول :

أنا قلت «ماترسلوش» شباب صغير قالوا لى لأ دا عاقل ، عملت إيه ياسى العاقل . إنت عارف إنك بتصرفك الأخرق كنت حتأثر على العلاقات بين البلدين .

إنت متعرفش يا فندى إنك ممثل دبلوماسى لبلدك هناك .

ونطق صاحبنا وهو فى ذهول شديد من هول المفاجأة : لا يا فندم أنا ما كنتش أعرف أنى ممثل دبلوماسى لبلدى ، أنا كنت فاهم إنى هناك لكى أرفع وأحافظ على سمعة القضاء المصرى كما أوصيتنا معاليك قبل السفر .

وبدون أن يلتفت إليه قال الوزير بنوع من الغيظ غير خاف :

- فى أى النيابات أنت ؟

- فى نيابة جنوب القاهرة .

- طيب روح على جنوب القاهرة بتاعتك .

وخرج من عند الوزير كاسف البال مقهورا لا يكاد يحس بنفسه ولا بالناس من حوله ، هل كان فى حضرة نفس الرجل الذى قابله قبل السفر وأوصاه بما أوصاه به ، أم كان فى حضرة رجل آخر .

هل ما سمعه حقيقى .. أما أنها أوهام وأضغاث أحلام .

لا بل إنه هو هو الرجل نفسه وإن ما سمعه منه لا يزال يقرع أذنه ، إن الرجل حتى لم يحاول رفقا بذلك الشاب الصغير أن يسلم عليه أو أن يجلسه للحظات أو أن يقول له أية كلمة طيبة . إن الشاب الذى اعتقد أنه فعل ما يستحق أن يهنأ ويكرم عليه لم يلق من الوزير إلا هذا الإهمال وهذا الكلام الغليظ .

وذهب وهو محزون إلى نيابة الجنوب واتجه إلى مكتب رئيس النيابة الرجل الفاضل الجليل «أحمد موافى» .

وأدرك «موافى» ما به من هم وحزن وإن لم يدرك سببه . بحنو قال له مالك يا فلان ؟ ماذا بك ؟

وقص عليه ما حدث له مع النائب العام ، ثم ما حدث بعد ذلك مع الوزير .

وسكت «أحمد موافى» ولم يعلق إلا بعبارة «خير إن شاء الله» و حتى يخرجه مما هو فيه أحال إليه بعض القضايا ليدرسها ثم يقوم بعرضها عليه وكان هذا هو العمل الأساسى لوكلاء النيابة الكلية - إلى جوار تحقيق الحوادث الجنائية - أن يدرسوا القضايا المحالة من النيابات الجزئية ، ويعدوا فيها مذكرات للعرض على رئيس النيابة للتصرف .

وكانت إحدى تلك القضايا من نيابة عابدين ، وعابدين بدورها من النيابات المهمة والحساسة لموقعها وسط القاهرة ووجود كثير من مبانى الوزارات وكثير من المرافق فى نطاقها .

ودرس القضية واجتهد فيها رأيه وكتب فيها مذكرة ثم عرضها على رئيس النيابة وطلب منه رئيس النيابة أن يتوجه بنفسه إلى نيابة عابدين ليقابل مديرها لكى يناقش معه رأى النيابة الجزئية وما انتهى هو إليه من رأى ، وفور دخوله ابتدره مدير النيابة بقوله : لماذا نقلت إلى بنى سويف ؟ ونزل السؤال على رأسه كالصاعقة . بنى سويف .. من قال ذلك . لا أنا لم أنقل خارج القاهرة . وسكت مدير نيابة عابدين وحاول أن يطوى صفحة موضوع النقل ويبدأ الحديث فى القضية محل الدراسة ، ولكن صاحبنا لم يكن فى حال تسمح له بأية مناقشة أو بفهم لأى شيء .

لقد أحس بألم وجرح عميقين . لماذا ينقل من القاهرة وهو لم يمض بها قبل الإعارة وبعدها إلا عاما وبعض العام ومن حقه أن يبقى فى القاهرة بين أربع سنوات وخمس ، كما جرى بذلك العرف المستقر .

وعاد إلى أحمد موافى الذى يبدو أنه لم يكن قد عرف ذلك الخبر بعد، وطلب من صاحبنا أن يصبر إلى الغد حتى يعرف هو جلية الأمر ويوجهه التوجيه السليم .

وقضى يوما عبوسا قمطريرا .

ولم يخبر أحدا من أهله أو ممن حوله بما كان ، كان السؤال الذى يلح عليه : ماذا جنيت لكى أعاقب . لقد كنت أنتظر التكريم فإذا بى

أكون محلا للمؤاخذة ؟ .. ثم يهدأ ويقول لنفسه : قدر ولطف ، ألم يكن من الجائز أن تنقل إلى قنا أو أسوان وقد أغضبت الوزير وأثرته ، ولكن لماذا بحق السماء . أما كان يجب أن يشكرنى الوزير لأننى نفذت ما قاله عندما ذهبت للسلام عليه قبل السفر . أهكذا يتصرف الكبار . ما الذى كان عليه أن يفعل غير ما فعل ؟!

وذهبت نفسه حسرات ، ولم ينم ليلته إلا أطرافها .

وفى الصباح توجه إلى النيابة وعنده أمل أنه سيسمع من رئيس النيابة المستشار أحمد موافى ما يسره ويجبر خاطره ويفرج كربه ويدخل على الرجل وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى واستقبله أحمد موافى بابتسامته الودودة الطيبة .

– أهلا يا يحيى بيه ، كما اعتاد أهل النيابة أن ينادوا بعضهم .

– أهلا سعادة الريس .

وجلس صاحبنا أمام رئيس النيابة الذى أخذ يصرف بعض الأعمال ويرد على بعض التليفونات ويناقش بعض وكلاء النيابة فيما وزعه عليهم من عمل ، وصاحبنا يغلى من داخله وينتظر أن يسمع شيئا يتعلق بموضوع نقله . ولكن «أحمد موافى» لا يقول شيئا ولا يبدو عليه أن يريد أن يقول شيئا أو أن هناك شيئا غريبا قد حدث ، وأن صاحبنا على أحر من الجمر يريد أن يعرف جلية الخبر .

وأخيراً تحامل على نفسه ثم نطق : سعادة الريس .. هل عرفت سعادتك شيئا ؟

وبهدوء شديد قال أحمد موافى : نعم لقد نقلت إلى بنى سويف، ولعل فى ذلك خيرا كثيرا ، وكانت نبرة الصدق والرضا تشيع فى وجه الرجل وعباراته . كان مؤمنا إيمانا عميقا ، راضيا بالقدر خيره وشره . لا يكاد ينفعل ولا يغضب لشيء قط .

ولما رأى الهم على وجه صاحبنا ورأى على وجهه علامات الاستفسار والاستفهام قال له : دع الأمور تمر ، لقد دافع عنك النائب العام وقد كان مطلوبا أن تنقل إلى أعماق الصعيد ، ولكن النائب العام استطاع أن يتدارك الأمر وأن ينقلك إلى بنى سويف ، ثم أردف أحمد موافى بعد صمت إن «الحركة» قريبة ، نحن فى أبريل والحركة فى يوليو وربنا يعمل ما فيه الخير .

ثم صمت وقال : له إن «صفوت باشا» صديق للوزير بل إنه كان رئيسا له فى دائرة محكمة الاستئناف فلماذا لا تطلب منه أن يكلمه فى هذا الأمر .

ولم يكن راغبا ولا مستوعبا لماذا يوسط أحدا من أجل رفع ظلم .

ومع ذلك فقد تحدث مع «صفوت باشا» وأنصت له الرجل القصير والقاضى الكبير القديم ، ولم يجب بسرعة ولكن بعد وقت قال له : سمعت منك أن السفير – وهو رجل عسكري – قد احتفى بك وأنه راض عن موقفك ، لماذا لا تكتب له وتروى له ما حدث ؟ ثم سكت غير قليل وقال كلمات مدغومة سمع منها صاحبنا إن «حسنى قد يسمع كلام العسكر أكثر من أى كلام آخر» .

وروى لرئيس النيابة ما جرى من حديث ثم قال : إننى أريد أن أتقدم بطلب إلى النائب العام لكى يحقق معى فإن ثبت على خطأ

استحققت جزاءه وإن لم أكن قد أخطأت أعيد إلى حقى . ولم يكن أحمد مـوافى من هذا الرأى وإن لم يملك أن يمنعـه من طلب مـقـابلة النائب العام.

وأجيب إلى طلبه .. وذهب إلى النائب العام بادى التـأثر بادى الألم وطلب من النائب أن يجرى معه تحقيقا فيما صدر منه من تصرفات فى ليبيا وعلى ضوء التحقيق يتم التصرف فى أمره .

ورفض النائب طلبـه فى رفق وقـال له إنه لا يريد أن يكون فى ملف خدمته مثل هذا التحقيق أيا كان سببه ، ثم أردف : إن الحركة العامة قريبة وعليه أن ينتظر .

وخـرج من عند النائب وأمـسك ورقـا وكتب خطابا إلى السـفـير فى طرابلس وخطابا آخـر إلى «اسـمـاعيل صـادق» الملحق العسكرى هناك وروى لهما ما حدث واستنجد بهما فى إظهار الحق والدفاع عن موقفه .

ولم يكن أمامه بعد ذلك من سبيل إلا أن يسافر إلى بنى سويف .

وكـانت بنى سـويف - فى منتـصف الخـمـسينيـات - من المدن التى جنى عليها قربها من القاهرة ، وكان يضرب بها ويشبين الكوم المثل فى عواصم المديريات المتخلفة لقربها من القاهرة على حين أن المنيا وطنطا والمنصورة كانت لبعدها نسبيا عن القاهرة أفضل حالا وأحسن منظرا .

ونزل فى «لوكاندة» قريبة من محطة السكة الحديد ، قديمة متداعية ، ولكنهـا مع ذلك كـانت المحل المفـضل لوكـلاء النيابة بل إن رئيس النيـابة «فؤاد بك الرشيدى» نفسه كان ينزل فيها أيضا .

وكان اليوم مقسما بين النيابة الكلية فى الصباح ، ثم وسط النهار فى «اللوكاندة» والأمسيات كلها فى نادى البلدية الذى كان واسعا مريحا غير مكتظ بالناس .

ولم تمض غير أيام قليلة حتى كان قد ألف المكان والزملاء وتخلص من غير قليل من ألمه وهمه ووحشته .

وكان بعضهم يحب لعب الورق ، وقلة تهوى القراءة ، وكلهم يعشق الحديث بعضهم عن البعض الآخر ، وتعرف على «على بك عبد الحكم» وكان أكثر وكلاء النيابة تدينا وصمتا وبعدا عن اغتياب الزملاء بعضهم بعضاً ، وكان من الزملاء واحد أصله سورى فيما يبدو وكانت تربطه صلة قرابة بأحد محال بيع الحلوى الشامية الكبيرة فى القاهرة وكان الزملاء يأخذون ذلك الأمر مأخذ التندر أحيانا .

وعين معاون نيابة جديد «مسعد الساعى» وارتبط المعاون الجديد بصاحبنا حتى لا يكاد يفارقه فى غدوه ورواحه .

وفى يوم من الأيام إذا به يجد استدعاء لكى يقابل العميد « فتحى الديب » فى مبنى من المبانى العسكرية القديمة بشارع الخليفة المأمون وذهب فى الموعد المحدد له، وكان المبنى قديما متسعا، تحيطه رهبة من حوله ومن داخله ويلفه صمت مخيف، عرف فيما بعد أن ذلك كان مقر المخابرات العامة أو ما أصبح فيما بعد يعرف باسم المخابرات العامة.

واستقبله العميد فتحى الديب، وكان يجلس معه فى الحجرة زميل آخر اسمه «عزت سليمان» وقد أصبح كل من الرجلين بعد ذلك سفيرا، وأصبح أولهما وزيراً وشاءت الأقدار أن يلتقى معه بعد ذلك فى ظروف أخرى مختلفة تماما .

المهم أن فتحى الديب سأله عما حدث فى ليبيا وما بدر من الآخرين ثم سأله عما ألم به بعد عودته إلى القاهرة وما كان من أمر مقابلته مع الوزير، وانتهت المقابلة دون أن يفهم لماذا استدعى ولا إلى ماذا انتهى اللقاء، ولكن الرجل على أى حال ودعه وداعا طيبا وقال له بصوته الأجش: لا تتردد فى الاتصال بنا إذا احتجت لشئ.

وما كان محتاجا إلا لشئ واحد هو رفع الظلم عنه ومع ذلك فإنه امسك عن الكلام ولم يسأل عن كيفية الاتصال إذا احتاج لشئ، ولم يذكر الرجل الآخر شيئا وإنما سلم مودعا وهو على مكتبه.

وتنفس الصعداء وهو يخرج من ذلك المكان برغم أنه لم يلق شيئا نكرا.

ولم تمض غير بضعة أسابيع قليلة إلا وتلقى خطابا من «المرحوم إسماعيل صادق» الملحق العسكرى فى طرابلس يخبره فيه أن وجه الحق قد تبين للمسئولين فى القاهره وأن كل شئ سيكون قريباً على ما يرام.

ومضت الأيام فى «بنى سويف» رتيبة متماثلة، عقيب المغرب من كل يوم ينزل رئيس النيابة ووكلاء النيابة الذين يقيمون فى ذات اللوكاندة لكى يركبوا «حنطورا» إلى النادى وكان كل واحد منهم يدفع أجرة الحنطور يوما من الأيام إلا أحدهم كان لايدفع شيئا قط وكان الرشيدى بك رئيس النيابة هو الذى يدفع إذا جاء الدور على ذلك الزميل الذى كان ينتمى إلى أسرة من أغنى الأسر فى أسيوط ، وكان أبوه «باشا» وكان يقال إن اخاه الذى كان سفيرا كان صديقا للملك فاروق قبل الثورة

وإنه كان سيتزوج إحدى أخوات الملك، ومع ذلك فقد عرف ذلك القاضى بالبخل الشديد الذى لايقارن إلا بصاحبنا وكيل نيابة البلينا «الحسن بك» برغم الفارق الشديد بين الاثنين من حيث العمل ومن حيث الثراء. وكان بخل ذلك الزميل محل تندر الجميع وكان هو لا يأبه لشئ من ذلك أو لايكترث به ولم يعرف عنه أنه مد يده فى جيبه وأخرج منه نقوداً قط.

وكان الرشيدى بك على العكس من ذلك كريما معطاء، لايبخل بشئ على أحد ممن حوله.

ومضى كل منهما إلى حال سبيله ولكن ذكرى كل منهما مازالت باقية فى الأذهان وعلى الألسنة.

وإن ينسى صاحبنا لاينسى تلك الليلة فى شهر يوليو عندما دقوا على باب حجرته فى اللوكاندة دقا شديدا وقالوا له إن «قطب بك فراج» مدير التفتيش القضائى يطلبه من القاهرة، وذهب إلى التليفون وهو لايدرى هل أتم لبس ملابسه أو لم يكمل لبسها وأخذ التليفون وإذا قطب بك يقول له: مبروك لقد نقلت إلى القاهرة.

وألقى بنفسه على السرير وراح برغم صفارات القطارات يغط فى نوم عميق حتى الصباح.

ثلاث جنايات .. غريبة
قابيل .. وهابيل

ترك بنى سويف إلى القاهرة وعنده شعور بالانتصار وبأن الله لم يتخل عنه وأن ما أريد أن يحيق به من ظلم «ذوى القربى» تصدى لرفعه عنه من كان لا يرجو منهم خيرا أو شرا ، ولكن هذه هى تصاريف الزمان .

ورغم أنه ترك بنى سويف إلا أن ذهنه مازال مشغولا بتلك الجنايات الثلاث التى عاش معها فى تلك الفترة القصيرة بين بنى سويف ومركز ببا ، جنايتان منهما ترافع فيهما أمام محكمة الجنايات فى بنى سويف، والجناية الثالثة قام هو بتحقيقها بالكامل فى مركز ببا ..

والجنايات الثلاث تتشابه فى أمر غريب، القاتل فيها جميعاً هو شقيق القتيل.. أخ يقتل أخاه ولأسباب تافهة.

أليس ذلك شيئاً عجباً، خاصة في ذلك الوقت فى منتصف القرن الذى انتهى منذ شهور، إننا نسمع فى هذه الأيام عن أمور أكثر عجباً. نسمع عن أم تقتل ابنها من أجل عشيقها ونسمع ما قد يكون أغرب من ذلك ولكن فى تلك الأيام الخوالى كان ما حدث غريبا وعجيبا، أشقاء ثلاثة يقتلون أشقاءهم.

وقد غابت عن ذهنه القضيتان اللتان ترافع فيهما، أما القضية التى قام هو بتحقيقها، فإنها مازالت أيضاً أصداؤها تعيش فى دفتره الأزرق القديم.

هل هى قصة هابيل وقابيل تتكرر على مسرح البشرية بين الحين والحين.

هل صحيح أن كل العلاقات الإنسانية هى علاقات اجتماعية عدا علاقة الأم بأبنائها فهى العلاقة الوحيدة الطبيعية.

وهل .. وهل..؟.

كلها أسئلة كانت فى ذهنه ولا يجد لها جواباً شافياً.

لماذا قتل قابيل - أو قابين كما تقول التوراة - هابيل؟ هل لأنه كان يغار منه؟ هل لأنه كان أفضل منه؟ هل لأن الشر فى نفس قابيل كان يغلب على الخير على حين أن الخير فى نفس هابيل كان يغلب على الشر؟!

هل لأن حواء لم تعرف كيف تربى ابنيها وتساوى بينهما فى حبها ورعايتها؟ أم أن حواء كانت مشغولة بغواية آدم عن ابنيها وأنها بهذه الغواية كتبت على كل أبنائها حياة المكابدة والعناء؟!

وتتوالى الأسئلة على ذهنه بغير جواب، وكان لابد وأن يكبح جماح تفكيره قبل أن يضل به ضلالاً بعيداً، والأخ الذى قتل أخاه فى القضية التى حققها صاحبنا وكيل النائب العام فى بنى سويف كان هو أكبر الأخين وأكثرهما تدليلاً وأقلهما تحملاً للمسئولية، وقد أظهر التحقيق أن

الأخ الأصغر كان يحب العمل ويحب القراءة والمذاكرة ويحرص على التقدم فى المدرسة وكان يحمل جزءاً من المسئولية عن أبيه فى الحقل.. أما الأخ الكبير فكان مدللاً يعيش حول نفسه ويريد من الناس جميعاً أن يهتموا به دون أن يهتم هو بأحد ويكره أن يهتم أحد بأحد غيره، وكان هو وأخوه الصغير – على حد تعبير شقيقتهما فى التحقيق – دائمى الشجار والنقار، كان أحدهما إذا عمل شيئاً قام الآخر بتسفيه عمله وانتقاده، وكان أحدهما لا يرضى عن عمل قام به الآخر، وكان الأخ الأكبر المدلل يبدى دائماً سخطه وعدم رضاه عن كل تصرفات الأخ الصغير.

ولم يكن أمام الأم والأب رغم تدليلهما للابن الأكبر إلا أن يحمدا للابن الصغير تفوقه وتحمله للمسئولية ويبدو أن ذلك لم يكن محل قبول حسن من الأخ الكبير.. بل إنه فى الواقع كان يثير موجدته على أخيه.

وذات صباح كئيب – كما أظهر التحقيق – كان الأخ الأكبر نازلا على سلم الدار متجها إلى الخارج وكان الأخ الأصغر نائماً على الأرض فى الطابق الأسفل من الدار، وكان يغط فى نوم عميق، ويقول الأخ الكبير فى التحقيق لقد نظرت إليه وهو نائم واستنكرت لماذا يحظى بتقدير من أمه وأبيه، وماذا فعله من أجل هذا التقدير، إنه وحده الذى يستحق كل الاهتمام وكل التقدير والرعاية ولا يجدر بأحد أن يشاركه فى شئ من ذلك..

وفى لحظة إذا بسحابة تلف عقله ووجدانه وإذا به يمد يده إلى فأس قريبة من أخيه وإذا به يهوى بها على عنق أخيه فيفصل رأسه عن جسده.

وإذا به يصيح بعد ذلك صارخا كالمجنون، لقد قتلت أخى، لقد قتلت أخى.

وأبلغ العمدة المركز، وأبلغ المركز النيابة، وانتقل صاحبنا إلى التحقيق.

وكانت المعاينة بشعة، فى دار ريفية بسيطة دورها الأرضى عبارة عن قاعة بها فرن وإلى جوارها زريبة بها بعض البهائم.. ثم وسط الدار حيث كانت الجثة مسجاة وعليها جلباب يسترها والدم حولها لم يجف بعد، وكان للدار دور ثان فيه حجرتان، حجرة فيها الأم والأب، وحجرة فيها الأخان، ولكن الأخ الأكبر فى تلك الليلة كان هو وحده الذى ينام فيها، وعندما استيقظ ونزل على السلم ورأى أخاه حدث ما حدث.

وسأله وكيل النيابة عن التهمة المسندة إليه فاعترف بها وهو يبكى ثم أردف أنه لم يكن يقصد قتل أخيه وإنما كان يقصد أن «يخضه» كى يستيقظ مذعورا، ولكن «السلاح طال».

واتجه وكيل النيابة إلى الأب والأم يسألهما..

ولم يجد عندهما جواباً شافياً.

كانا حزينين، وكانا يبكيان بألم ومرارة، وكان كلامهما متقطعاً لايكاد يبين.

وحرص كل منهما على أن ينفي قصد القتل عن القاتل وأبدى كل منهما عدم تصديقه لما حدث وعدم فهمه له وأضافت الأم أن شيطاناً لعيناً هو الذى تسلط على الأخ الأكبر وجعله يفعل ما فعل أما أختهما الصغرى.. فقد ألقت على أسباب الحادث بعض الضوء.

كانت صغيرة ساذجة وسئلت على سبيل الاستدلال.

قالت فى شهادتها إن أخويها كانا دائما الشجار والنقار، وكان كل منهما ينتقد تصرفات الآخر ولا يرضى عنها، وقالت إن الأخ الأكبر كان أقرب إلى أمه من الأخ الأصغر على حين أن الأخ الأصغر كان أقرب إلى أبيه لأنه كان يساعده فى الحقل ولأنه كان ناجحاً فى المدرسة.

ولما سألها وكيل النيابة عن طريقة معاملة كل منهما لها قالت: إنهما كانا يحبانها وأنها كانت تحبهما، وأنها حزينة الحزن كله لفقد أخيها الصغير واتجهت إلى وكيل النيابة ترجوه أن لا يأخذ أخاها الكبير معه إلى السجن.

ويرجع صاحبنا إلى كراسة مذكراته ليجده قد كتب تاريخ ١٨ مايو ١٩٥٦ ما يلى:

«.. وانتهى الأمر إلى أن أكبرهما وهو نازل ذات صباح باكر متوجها إلى الحقل وجد أخاه الأصغر نائما فلم يستطع أن يقاوم فكرة تسلطت عليه وأهوى بالفأس على رقبة أخيه فقتله.

هل الأسباب التى ذكرتها الأخت كافية لتبرير مثل هذا العمل الفظيع، هل لو كان هذان الأخان غريبين أو لو كانا أبناء عمومة كانت تلك الدوافع يمكن أن تدفع أحدهما إلى قتل الآخر؟ .

بالقطع لا .. إذن لماذا تؤدى إلى هذه النتيجة فى حالة كونهما أخين؟ .

الفرض أن الأخوة علاقة تقرب بين الأخين وتجعلهما أقرب إلى بعضهما من الأغراب، فلماذا ينتهى السبب هنا - بين الأخوة - إلى ما لا يمكن أن ينتهى إليه هناك، والمعقول فى الظاهر أن يكون العكس هو الصحيح.

أرجح أن السبب الذى ظهر لى فى تحقيق هذه القضية - والذى لم يظهر فى القضيتين الأخريين اللتين ترافعت فيهما والتى ارتكب الأخ فى كل منهما جريمة قتل أخيه - هو السبب الأصيل فى هذه الحوادث الثلاث: اختلاف المعاملة فى الأسرة الواحدة والتمييز بين طفل وطفل فى العناية و الرعاية والاهتمام خاصة من جانب الأم، هذا هو فى تقديرى السبب الكامن والدافع الأصيل وراء ارتكاب هذه الحوادث الثلاث.

اختلاف المعاملة هو السبب..

هذا الاختلاف يجعل الأطفال ينشأون - والعقل الباطن لا يعرف القرابة - وإحساس كل منهم نحو الآخر هو إحساس المنافس نحو منافسه ولأنه لابد فى المنافسة من منتصر ومهزوم فإن شعور المهزوم فى المنافسة بالمرارة قد يدفعه إلى ارتكاب ما لا يمكن تصوره فى الأوضاع العادية.

هذا هو السبب الأصيل الذى لو وجد فى حالة الأجنبيين لما انتهى إلى نفس النتيجة التى انتهى إليها فى حالة الأخوين.

ونعود فنسأل.. لماذا؟ لماذا لا تؤدى المنافسة فى الحياة العادية إلى أن يقتل المهزوم المنتصر أو أن يعتدى عليه على الأقل؟

أولاً .. لأن طبيعة الحياة ومنطق التفكير البشرى فى الظروف العادية يتوقع من المنافسة فى الحياة العادية أن تؤدى إلى منتصر ومهزوم، ولأن الناس يدركون أن انتصار هذا وهزيمة ذاك ترجع فى الغالب إلى فعل كل منهما وقد ترجع أحيانا إلى الظروف المحيطة، ولكن النصر والهزيمة هنا وإن أديا إلى موجدة وغيره فإنها لا تؤدى إلى التعبير عنها بالقتل، أما فى حالة الأخين فالطبيعة نفسها ترفض مبدأ تفضيل أخ على أخيه، الفرض أنهما متساويان فى كل شئ.. أليسا أخين؟، وطبيعة الطفل نفسها ترفض هذا التفضيل، وحين يحدث يكون وقعه قاسيا مريرا على النفس.

ومن ناحية أخرى فالمهزوم فى الحياة العادية لا يشعر عادة أن المنتصر قد أخذ حقا طبيعياً له هو وحرمه منه على حين أن هذا هو الشعور الذى يحس به الطفل الذى يشعر أن حنان الأسرة واهتمامها وحبها يتوجه نحو أخيه وحده ولا يتوجه إليه..» .

ويختم صاحبنا تلك الفقرة من مذكراته يوم الثامن عشر من شهر مايو ألف وتسعمائة وستة وخمسين بقوله.. «ترى هل لو علمنا الأمهات وربيناهن تربية سليمة.. هل كنا نواجه مثل هذه الحوادث الثلاث التى واجهتها فى أسبوع واحد. أظن لا..».

وإلى هنا ينتهى ما كتبه فيلسوفنا الصغير فى كراسة مذكراته عندما كان يعمل وكيلا للنيابة فى بنى سويف قبل أن ينقل إلى القاهرة، وقبل أن يشعر فى أعماقه أنه وهو وكيل نيابة صغير انتصر على وزير العدل لأنه كان صاحب حق ولأنه وجد من يساعده على إظهار هذا الحق.

إن الحق وحده فى هذه الدنيا قد يكون قويا ولكنه لا يستطيع أن يفرض نفسه إلا إذا كانت وراءه قوة تسانده وتسنده، وليس هذا هو أمر الأفراد وحدهم، حتى الدول والشعوب قد يكون بعضها صاحب حق ولكن فى غياب القوة التى تسند هذا الحق وتظاهره لا يستطيع الحق أن يفرض نفسه ولا يستطيع أن ينتصر وقد يتغلب عليه باطل تؤيده القوة. والتاريخ ملئ بمثل هذه العبر والروايات.

***

وفى القاهرة كان تعيينه فى نيابة شمال القاهرة، وكانت القاهرة فى ذلك الوقت فيها نيابتان كليتان فقط، نيابة جنوب القاهرة التى كان يعمل بها قبل سفره إلى ليبيا وبعد عودته منها، ونيابة شمال القاهرة التى نقل إليها من بنى سويف.

وكانت النيابتان معا تقعان فى المبنى العتيق العريق، مبنى «محكمة مصر» فى باب الخلق، وكان هذا المبنى العتيق يضم محكمة مصر الابتدائية ومحكمة استئناف القاهرة ومكتب المحامى العام. بل وكان بها أيضاً مكتب النائب العام ومحكمة النقض إلى أن زالت غمة المحاكم

المختلطة وانتقلت إلى مبناها الجميل الذى سمى بعد ذلك دار القضاء العالى، ثم استضافت دار القضاء العالى إلى حين مقر المحكمة الدستورية العليا.

وكان المبنى العتيق القديم فى باب الخلق مازال يطلق عليه لدى القدامى من رجال القضاء والمحاماة «محكمة مصر» إلى أن عرفت أخيراً باسم محكمة جنوب القاهرة.

وذهب صاحبنا سعيداً إلى محكمة باب الخلق اتجه إلى مقر نيابة الشمال الذى يوجد فى أعلى أدوار المحكمة وفى الجناح المقابل لمبنى نيابة الجنوب الذى قضى فيه عدداً من الشهور.

وكان رئيس نيابة الشمال هو المستشار «قطب فراج» الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لمحكمة النقض والذى كان هو بنفسه الذى أبلغه خبر نقله إلى القاهرة.

وتلقاه الرئيس وزملاؤه بالترحيب والتهنئة وانتظر توزيع العمل الجديد فإذا به يعهد إليه بأن يتولى «الحوادث» فى قسمى الجمالية وروض الفرج إلى جوار ما قد يعهد به إليه من قضايا يترافع فيها أمام محكمة الجنايات فقد أصبح معروفاً عنه أنه من وكلاء النيابة المترافعين منذ أن اشتهر عنه ذلك وهو فى نيابة سوهاج.

في نيابة شمال القاهرة
بين حوادث القاهرة .. وحوادث الصعيد

لم تكن حوادث القاهرة كحوادث الصعيد فى نوعيتها أو فى كيفية ارتكابها أو حتى فى مرتكبى هذه الحوادث.

جرائم القتل للثأر أو القتل انتقاما للعرض لم تعرض له طوال عمله فى القاهرة، ومع ذلك فقد يشترك الصعيد مع القاهرة فى بعض الجرائم كالمخدرات، ولا شبهة فى أن سرقة البهائم وما قد يصاحبها من قتل لا وجود له فى القاهرة على حين أن أنواعا أخرى من السرقة قد تكون أشد خطورة تواجه رجال الشرطة ورجال النيابة الذين يعملون فى القاهرة.

ونوعية المجرمين تختلف، هنا تجد العامل والموظف والتلميذ أحيانا ولا تجد فلاحا بطبيعة الحال.

وهكذا قدر له فى الفترة المحدودة التى عمل فيها فى النيابة العامة أن يجمع بين تجربة الصعيد وتجربة القاهرة، وكان فى ذلك اثراءً معرفته بالمجتمع المصرى ريفه وحضره، وساعده ذلك إيما مساعدة فى قابل حياته من أيام.

●●●●

وكـان قـد انتـوى بينه وبين نفسـه فى تلك الليلة أن لا ينتـقل إلى التحقيق فى الحوادث فى أماكنها.. فقد كان الإرهاق قد بلغ به مبلغا ألزمـه أن يستريح ولو لليلة واحـدة، وبالفعل فقد عرض عليـه فى تلك الليلة أكثر من محضر وبعد أن قرأها أشر عليها بالعرض غداً صباحا فى سراى النيابة.

وحـول منتصف الليل وكـان قد أغفى ذلك أنه لم يكن بطبيعتـه - ومـازال - ممن يحبون السهر إذا برنين التليفون الذى لا يريد أن ينقطع يفزعه ويقض مضجعه ويجعله يحمل نفسه حملا من سريره إلى حيث تلك الآلة الجهنمية التى لم تنشأ بينه وبينها صداقة قط : التليفون.

وكـان على الجـانب الآخر مـأمـور قسـم روض الفرج مـصطفى بك وبادره الرجل بقوله إنى اعتذر للازعاج فرد عليه صاحبنا مطمئنا إلى قراره السـابق لا إزعاج فى الأمر فـقـد قررت أن لا أنزل اليوم مـهما كان الأمر فإذا بالمأمور يقول له (وحياة رأس أبوى وأبوك ستنزل رغما عنك) قالها ضاحكا جاداً فى نفس الوقت.

فسأله ما الأمر؟ قال المأمور إنها جناية قتل وإن القتيلة أستاذة فى مـعـهـد عـال وإن ابنها ضـابط فى الجيش وقـد أخطرت كل الجـهـات بالحادث وكان لابد من إخطار النيابة.

ولم يجد بدا من القيام من فراشه وارتداء ملابسه وإخطار سكرتير التحقيق ثم التوجه بعد ذلك إلى قسم روض الفرج الذى لم يكن بعيداً من حيث يسكن.

وفى القسم وجد حشداً من رجال الامن، من المديرية ومن القسم بل ومن وزارة الداخلية نفسها. وقدم له المأمور بلاغ الحادث ومحضر الضبط فاستعرضهما وكعادته كان يمسك بيده قلما أحمر كان يؤشر به على ما قد يتصور أنه أمور هامة، والواقع أن محضر الضبط لم يكن يفيد توجها معينا وكانت مباحث القسم ومباحث المديرية لم يفرغا بعد من تحرياتهما وكانت الخطوة الأولى التى امامه هى إجراء معاينة مكان الحادث فقرر الانتقال اليه.

وكانت المجنى عليها تسكن فى شقة كبيرة فى شارع رئيسى من شوارع حى روض الفرج بالقرب من مدرسة شبرا الثانوية التى قضى بها شرخ شبابه، وبدأ المعاينة بوصف الشقة وصفا اجماليا، ثم وصف جثة المجنى عليها وصفا تفصيليا على قدر ما يسعف به ظاهر الأمور ثم محتويات الحجرة التى وجدت بها جثة القتيلة وما إذا كان بين تلك المحتويات ما يساعد على معرفة الباعث على الجريمة أو ما يساعد على معرفة فاعلها من قريب أو من بعيد، وكان مشهوراً عنه الدقة الشديدة فى معايناته لما يحققه من جنايات، وكانت هذه أول جناية يقوم بتحقيقها فى القاهرة وكانت ظروف الحادث كلها تدعو إلى غير قليل من التأنى والاهتمام.

ولم ينته من معاينته إلا عند اقتراب نور النهار فعاد إلى القسم وأقفل محضره بعد أن كلف البوليس بمواصلة البحث والتحرى.

وعـاد إلى منزله لكى يلقى بنفسـه على السـرير وهو فى حـال من الإرهاق والتوتر حالت بينه وبين ما كان يريد من نوم عميق..

وأيقظوه عند الظهيرة لكى يعرضوا عليه ما انتهت إليه المباحث من تحريات.

وكانت تحريات المباحث الأولى تقول : إن خادمة السـيدة هى التى ارتكبت الحـادث بغـرض السرقـة. وأحس أن هذه التـحـريات إنما هى تحـريات مـا يقـال له «أقل مـجـهـود» ولكنه كـان لابد له أن يسـأل تلك الخـادمـة التى أنكرت كل صلة لهـا بالحـادث وقـررت أنهـا تركت منزل مخدومتها بعد المغرب بعد أن انتهت من عملها وأنها لم تعلم بما حدث إلا عندما جاءت فى الصباح واستشهدت بينها وبجيرانها على أنها كانت فى سكنها منذ أن عادت إليـه إلى أن أصبح الصبـاح ، ولم يجد امامه شيئا يعتد به فأمر بإخلاء سبيل المرأة على كره شديد من رجال الشرطة وأمر بمواصلة «البحث والتحرى».

وعـاد إلى منزله والخـاطر الذى يلح عليـه هو النفس البـشـرية وغرائبها وتصاريف القدر وعجائبه.

تلك السيدة التى كانت ملء السمع والبصر أضحت خبرا من أخبار الحـوادث فى الجـرائد. وتجـمع أبناؤها وذووها ليـوم وبعض يوم ثم تفرقوا كل إلى حال سبيله ولم يعد يهتم بالأمر إلا ابنها الذى لم يكن قد تزوج والذى كان يقيم معها كلما عاد من فرقته فى الجيش إلى القاهرة. والعجيب أن هذا الابن كان فى لحظة من اللحظات محل شك رجال المباحث إلا أن هذا الشك لم يدم طويلا.

وظل ملف تلك الجناية مفتوحا بعض الوقت دون أن تصل التحريات إلى شيء إلى أن جاء يوم تكشفت فيه الأمور جميعا.

فى قسم آخر من أقسام القاهرة قتل موسيقى اجنبى، وفى قسم ثالث قتل رجل كبير السن كان يقيم وحده، ولم يكن يفرق بين الحادث الذى بدأ فى تحقيقه والحادثين الآخرين وقت طويل وإن كان كل حادث منها قد وقع فى قسم مختلف من أقسام القاهرة ولم يكن هناك رابط بين التحقيق فى هذه الحوادث المختلفة لاختلاف النيابات التى تقوم بالتحقيق فى كل منها.

ولكن مباحث القاهرة كان الأمر بالنسبة لها مختلفا، وساد لدى رجال المباحث اعتقاد ان هناك نوعاًمن التشابه بين هذه الحوادث وبعضها مما قد يوحى بوحدة الفاعل أو الفاعلين وأن هناك عصابة هى التى تعبث فى القاهرة وترتكب هذه الجرائم وأنه لابد من كشفها قبل أن ترتكب جديدا من الحوادث وقبل أن يضج سكان القاهرة لأن البوليس الذى يحميهم لم يتمكن من وضع يده على الجناة فى هذه الحوادث الخطيرة.

وكان كلما فرغ إلى نفسه من ضغط العمل ذهب بتفكيره إلى مآرب شتى، ترى هل سيقضى بقية عمره فى العمل القضائى؟ ولم لا وهل هناك أكرم أو أشرف من هذا العمل، ثم إن هذا العمل يعطى صاحبه خبرة ويكسبه هيبة ووقاراً و يرفعه فى مدارج الوضع الاجتماعى درجات أكبر من سنه بكثير.

ولكنه فى قرارة نفسه لا يحس بأن ذلك العمل يشبعه وأن المظاهر التى يتعلق بها كثير من زملائه ليست هى بغيته فى الحياة ويعاوده شيطانه القديم الذى لم يغادره يوما من الأيام، شيطان الجامعة، إن هذا الشيطان ما يزال يتلبسه ويقض مضجعه حتى لكأنه لن تهنأ له حياة إلا إذا تحقق له ذلك الأمل، ولم لا يتحقق الأمل وقد أصبح فى القاهرة قريبا من الجامعة ومن الكلية ومن الدراسات العليا. وها هو ذا بالفعل قد حصل على دبلومى الدراسات العليا المطلوبين للتسجيل للحصول على الدكتوراة وبعد الحصول على الدكتوراة تتفتح كل الأبواب، هكذا صور له خياله وطموحاته.

وكان أصدقاؤه الأقربون يعلمون ما هو فيه من قلق واصب وكان بعض أساتذته يعطفون عليه ويقدرون طموحه وحبه لمهنة التدريس، وقد يصادف أن يشجعه أحد منهم بكلمة أو إيماءة فإذا بصاحبنا يتعلق فى الكلمة ويبنى آمالاً كباراً.

قابل ذات مرة الأستاذ الدكتور حلمى مراد قبل أن يصبح وزيراً وهو مازال أستاذاً للاقتصاد بجامعة عين شمس وفهم من بعض عباراته أن كلية الحقوق فى جامعة عين شمس هى كلية جديدة وأنها فى حاجة إلى تربية أعضاء لهيئة التدريس وأنه قد يكون له فرصة التعيين فى تلك الكلية معيداً إلى أن ينتهى من إعداد الدكتوراه وعندئذ ينخرط فى سلك التدريس، وكان الدكتور حلمى مراد يعرف صلته بالدكتور على راشد الذى كان أستاذاً فى حقوق القاهرة، والذى كان صاحبنا معجباً

به أشد الإعجاب إلى المدى الذى كان يقلد فيه بعض حركاته ويردد بعض عباراته، والذين درسوا عبقريته وغرابة بعض أطواره ومقدرته على الشرح حتى لايكاد أحد يطلب المزيد وحتى لايكاد أحد يقصر عن فهم الموضوع مهما كانت مشكلاته أو صعوباته، كان متعلقاً بعلى راشد وكان الأستاذ يبادله قدراً من الاهتمام دفعه إلى أن يذهب إليه ويعرض عليه ما حدثه به الدكتور حلمي مراد.

وطلب منه على راشد أن يذهب إلى الدكتور عثمان خليل وكان الدكتور عثمان هو عميد الكلية وكان أيضاً أحد أساتذته فى جامعة القاهرة قبل أن تنشأ كلية الحقوق فى جامعة عين شمس وقبل أن يعين لها عميداً الأستاذ الدكتور عثمان خليل.

وذهب إلى عثمان خليل وكان له مكتب فى ناحية باب اللوق وأحس الرجل بصدق صاحبنا فى العمل بالجامعة وأبدى الرجل عطفاً عليه وتشجيعاً له ووعده أن يعرض الأمر على مجلس الكلية، وإنه مازال يذكر أن العميد قال له فى نهاية الحديث: إن غداً يوم امتحان فى الكلية وإذا جئت وقابلت الأساتذة وأقنعتهم فإن ذلك سوف يسهل الأمر فى مجلس الكلية.

وذهب منذ الغد الباكر إلى حيث كانت تقع كلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقرب من ميدان عبده باشا بالعباسية قبل أن تنتقل إلى مبناها الحالى داخل حرم الجامعة، وكان يعرف بعض الأساتذة ولايعرف كثيرين منهم، وتولى الدكتور على راشد تقديمه إلى من لم يكن يعرفه،

وقد قابله الأساتذة بقبول حسن، وإنه ليذكر أن واحداً فقط ممن قابلهم هو الذى قال له إن هذا الأمر ليس سهلاً وإنه من الأفضل له أن ينتظر حتى يحصل على الدكتوراه، ولكن غالبية من قابلهم سمع منهم كلمات الإطراء والتشجيع.

وبعد أيام أسقط فى يده عندما علم أن أغلبية مجلس كلية الحقوق بجامعة عين شمس رفضت طلب تعيينه مدرساً مساعداً فى الكلية وأنه لم يوافق على هذا التعيين إلا اثنان فقط من الأساتذة هما العميد والأستاذ الدكتور على راشد.

وتساءل ترى لماذا لم يصدقه الأساتذة القول ، ترى لماذا جعلوه يعيش على الأمل ثم تركوه يهوى من حالق، إنه لا حول له ولاطول وإنه لايملك لأحد منهم نفعاً ولاضراً وإنه فى مقام التلميذ بالنسبة لهم جميعاً فلماذا لم يصارحوه ويصرفوه عن هذا الأمر، لماذا قالوا له كلمات طيبة حلوة ثم عندما آن أوان القرار إذا بهم يعدلون.

وعاش أياماً فى غصة وألم، عاش أياماً قاسية مرة ولولا «عصمت وفتحى» لقد كانت نفسه تذهب حسرات.

ويشاء الله أن يشغله العمل عن نفسه وعن أماله وعن كل ما حوله.

وتسقط عصابة الطلبة فى يد البوليس.

كانوا ثلاثة ممن أتموا دراستهم الثانوية ثم تعثروا فى أوائل سنيهم فى الجامعة وزين لهم شيطانهم طريق الانحراف فعاثوا فى الأرض فساداً.

وكان زميلهم الذى ما زال يذكر أن اسمه «مجدى» مسيحياً وكان أحدهم ابناً لموظف إدارى كبير فى مجلس الدولة أما ثالثهم فإنه لايذكر عنه شيئاً.

واعترف الثلاثة اعترافاً مفصلاً أنهم الذين ارتكبوا حوادث القتل الثلاثة فى أنحاء العاصمة.

وتولى تحقيق الجناية التى تقع فى اختصاصه وهاله البساطة التى كانوا يتحدثون بها عن جرائمهم وحاول أن يستجلى دوافعهم وأن يتحرى أوضاعهم الاجتماعية والنفسية ولكنه لم يصل فى ذلك إلى ما يشفى غليله، ومازال يذكر أن «مجدى» طلبه أكثر من مرة ليدلى بأقوال جديدة، أحياناً كان يذهب إليه فى السجن وأحياناً أخرى كان يستدعيه إلى سراى النيابه وبعد أن يسمعه يواجه بينه وبين زملائه وكان يتبين صدق أقواله أحياناً وكذبها أحياناً أخرى.

وانتهى أمر اثنين منهم إلى حبل المشنقة أما الثالث فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ولعله الآن قد خرج إلى الحياة وما عاد صاحبنا يعرف عنه شيئاً قط.

الرحلة إلى الدكتوراه

كانت من أمتع رحلاته فى عالم الزمان والمكان جميعا.

قضاها بين القاهرة ولاهاى وباريس ثم القاهرة مرة ثانية.

وبدأ تلك الرحلة مع موضوع من موضوعات القانون الجنائى، وكان ذلك طبيعيا ومنطقيا، ذلك أن واحدا من رجال النيابة العامة عمله فى الصباح وفى المساء وفيما بين ذلك يدور حول الحوادث والقيود والأوصاف الجنائية لابد وأن يتجه بتفكيره عندما يريد إعداد رسالة للدكتوراه إلى القانون الجنائى ذلك فضلا عن تعلقه بأستاذه الدكتور / على راشد، وقد اختار بالفعل موضوعا يتصل بالمسئولية الجنائية للأشخاص المعنوية، وإذا كانت مسئولية الشخص الطبيعى واضحة ومعروفة فإن المسئولية الجنائية للشركات والمؤسسات والإدارات تبدو غير مفهومة أو واضحة ذلك أن المسئولية الجنائية تقوم على إرادة الفعل موضوع الجريمة وهذا مفهوم بالنسبة للشخص الطبيعى ولكن الشخص المعنوى ليست له إرادة يمكن أن تتجه إلى مثل هذه الأفعال، وإذا حدث فإن هذه الأفعال يقوم بها أشخاص بذواتهم فى الشخص المعنوى ولا يقوم بها الشخص المعنوى نفسه.

المهم أنه قطع شوطا فى التحضير لدراسة هذا الموضوع ولكنه لم يقدر له أن يكمله وكتب فيه بعد ذلك زميل آخر وصل إلى القمة فى العمل القضائى.

كـان هـناك مـؤتمـر فى المغـرب للقـانونيين العـرب وكـان ضـمن الموضوعات المطـروحة للبحـث موضوع «الاعتـراف بالدولـة» وكان هذا الموضوع فى أواخر الخمسينات من الموضوعات الحية المثيـرة للجدل خاصة بالنسبة للدول العربية التى لم تكن تريد أن تعترف بإسـرائيل ، ومن ناحية أخرى فقد كان الموضوع مهما بالنسـبة للصين حيث كانت توجد - آنذاك وما تزال - دولتان ، ذلك فضلا عن أن افريقـيا كانت قد بدأت تستيقظ وبدأت دولها تستقل استقلالا شكليا وبدأت تسعى إلى عضوية الأمم المتحدة وجعل ذلك كله موضوع «الاعتراف» فى مقدمة الموضـوعات التى تحظى باهتمام الدارسين فى ميدان العلوم القانونية .

وبدأ بالفعل يعد بحثا فى موضوع الاعتراف لمؤتمر المغرب وانتـهى من البحـث وألـقاه فـى المؤتمـر وأبـدى كـثيرون إعجابهم به .

وهنا خطر له خاطر : لماذا لا يتخذ من «الاعتراف بالدول» موضوعا لرسالته للدكتوراه .

وكـان يجل أسـتـاذه الدكتـور / حـامد سلطان ويعـجب به إعـجابا شديدا وطلب مقابلته وحدد له الرجل الكبير موعدا فى منزله فذهب إليه هيابا يترقب .

كان الدكتور / سلطان يسكن في الزمالك ، ولم تكن الزمالك آنذاك فى أواخر الخمسينات هى «زمالك اليوم» ، كانت شوارعها هادئة والمارة فيها قليلون والسيارات أقل والعمارات نظيفة والفيلات عليها غير قليل من الأبهة .

وكان أستاذه يسكن فى عمارة ضخمة وعندما صعد بالمصعد ودق الجرس فوجئ بالدكتور / حامد سلطان نفسه يفتح له ويرحب به ويقوده إلى الصالون .

وأخذته رجفة خفيفة ، ما يظن أنه رأى فى حياته مسكنا مثل هذا المسكن فى تنسيقه وجماله ، كل شئ فيه مرتب وكل شئ فيه جميل وكل شئ فيه هادىء ، والحيطان تغطيها لوحات جميلة أصلية، والأرض يكسوها أنواع من السجاد الإيرانى الأصيل ، ولم يملك نفسه بعد أن جلس واسترجع أنفاسه وشرب الليمون الذى قدمه له بانحناءة خفيفة رجل أسمر وقور أن أبدى إعجابه بما يرى فى المنزل .

وبهدوء قال الدكتور / سلطان إن ذلك لم يكن نتاج يوم وليلة ، إنه نتاج سنين طويلة وجولات فى أرجاء العالم .

ومازال منذ يومه ذاك إلى اليوم يحب اللوحات ويسعى لاقتنائها ما استطاع إلى ذلك من سبيل وما زال تعلقه بالسجاد الإيرانى واضحا ، وزواره يدركون ذلك منذ أن يطأوا عتبات المنزل وهو لا يخفى سعادته عندما يبدون تعليقا جميلا على البيت ولا ينسى أن يردد عبارة شبيهة بعبارة أستاذه . إنه جهد السنين والزمان وحصيلة كثير من الرحلات فى المكان .

وجلس أمام أستاذه واستجمع نفسه ثم عرض عليه أنه يريد أن يشرف بتسجيل رسالة الدكتوراه معه فى موضوع «الاعتراف فى القانون الدولى العام» .

وسأله الدكتور / سلطان عن سبب اختياره للموضوع وعما إذا كان قد قرأ بعض مراجعه .

وكان صاحبنا مستعدا بأن أحضر معه البحث الذى كتبه وقدمه لأستاذه .

وبعد حـوار قصير وافـق الأستاذ الكبير على تسجيل الموضوع وعلى الإشراف عليه وحدد له موعدا آخر يلقاه فيه فى مكتبه فى الكلية .

وسأله عن مدى معرفته باللغات الأجنبية : الفرنسية والإنجليزية ، فـأجاب صراحة بأنه يحاول أن يقرأ باللغتين لكنه يلقى فى ذلك عنتـا غير قليـل ، وقال له الأستاذ إنه بغـير معـرفة جـيدة بهـاتين اللغتين يصعب كتابة رسالة دكتوراه لها وزن وقيمة .

وفـهم الرسـالة ، وبدأ يدرس الفرنسـية فى المعـهد الفرنسى فى المنيرة وأخذ يواصـل قراءاته فى الإنجليزية التى كانت بالنسبة له أكثر تقدما من الفرنسية .

وفى لقـاء آخر أوصـاه أستاذه بأن السفر إلى أكاديمية القانون الدولى فى لاهاى قد يكون أمرا مستحبا كذلك فإن زيارة مكتبـة كلية الحقـوق فى جامعة باريس - البانثيـون - ولم يكن غيرها آنذاك فى باريس - قد يكون مفيدا .

وأدرك توجيه أستاذه وبدأ يفكر فى كيفية تنفيذه .

وكـانت المشكلة مـادية مـحـضـة ، من أين له تدبيـر الموارد التى سيحتاج إليها من أجل سفره وإقامته فى أوربا وأموره المالية محدودة ومصادر رزقه متواضعة .

وقد كان صديقه فى الكلية / أحمد زكى يمانى قد أصبح مستشارا قانونيا لمجلس الوزراء فى السعودية - وهو نفسه الذى أصبح بعد ذلك أكثر وزراء البترول فى العالم شهرة - وكان «زكى» يريده أن يحضر إلى السعودية منتدبا ليعمل مستشارا قانونيا هناك .

وبدا له أن هذا هو الطريق الوحيد لكى يحقق أمنيته فى السفر وفى إنجاز رسالة الدكتوراه .

وقرر أن يقبل ما عرضه عليه صديقه وفى ذهنه أن ذلك وسيلة واضحة من أجل غاية محددة .

لم يكن الاغتراب هدفا له ولم يكن جمع المال غايته ، وإنما كان الأمر هو أمر وسيلة وحيدة لتحقيق أمل قديم متجدد .

وذهب إلى السعودية وعاش بين جدة والرياض والطائف واصطحب معه عديدا من المراجع المتعلقة بالرسالة كان ما يفتأ يقرأ فيها .

وكان من حسن حظه أنه قابل الأستاذ الدكتور / طلعت الغنيمى - وهو أحد تلاميذ الدكتور / سلطان المقربين - وكان أنذاك مدرسا للقانون الدولى بكلية الحقوق بجامعة الاسكندرية ومنتدبا للعمل بالسعودية ، وشجعه الدكتور / الغنيمى على الحوار والمناقشة ، وأفاد من ذلك غير قليل ، وعرف من الدكتور / الغنيمى أن الدكتور / حامد سلطان نفسه هو أحد مستشارى المملكة السعودية فى المسائل الدولية وأنه بهذه الصفة يتردد على المملكة بين الحين والحين فى فترات متباعده ووعده الدكتور / الغنيمى أنه سيدبر له أمر لقاء الدكتور / سلطان عندما يحضر إلى المملكة رغم ضيق وقته .

وهكذا فإن وجوده فى السعودية لم يبعده عن العمل فى الرسالة ولكنه كان وسيلة من وسائل إتمامها ذلك إلى جوار ما أفاده من خبرة فى مجال القانون التجارى والفقه الإسلامى .

وفى تلك الفترة كانت السعودية تفكر فى إدخال بعض الأنظمة القانونية الحديثة واستدعت كثيرا من الخبراء المصريين الكبار فى مقدمتهم الأستاذ الدكتور / أمين بدر أستاذ القانون التجارى الضليع ، والذى كان قد فصل من جامعة القاهرة عام ١٩٥٥ لخلاف بين بعض أساتذة الجامعة والثورة وكانت وسيلة الثورة لحل ذلك الخلاف هى فصل الأساتذة .

وفى ذلك الوقت أيضا يعار «فتحى» صديق عمره ، وقد استدعاه أيضا أحمد زكى يمانى الذى كان وثيق الصلة به وكان زميله أيضا فى الكلية وفى «القسم Section » الذى يضم عددا محدودا من الطلبة ويؤدى ذلك إلى تقوية صلاتهم ببعض .

وأنس بوجود فتحى كثيرا وكان طبيعيا أن يعيشا معا فى مسكن واحد وخفف ذلك عن كليهما الغربة وساعده ذلك أيضا على تدبير بعض الموارد المالية من أجل تحقيق غايته فى السفر إلى أوروبا .

ولم يضيع وقتا طويلا ، ما إن تجمع لديه مبلغ من المال قدر أنه يكفيه للرحلة والإقامة بعض الوقت بين لاهاى وباريس حتى اعتذر للسعوديين وهيأ نفسه للسفر .

• وإنه يذكر أنه قضى ليلته الأخيرة فى السعودية فى المسجد الحرام فى مكة يصلى ويطوف ويبتهل ويرجو من الله التوفيق والسداد فى مقصده .

وخرج من البيت الحرام إلى المطار فى جدة ، وكانت روما هى محطته الأولى فى أوربا .

وفى روما زار الفاتيكان .

وجرت فى عقله كثير من المقارنات ، وما زالت تجرى .

إنه يؤمن إيمانا عميقا أن جوهر الدين واحد ، وأن جوهر الدين هو إشعار الإنسان الضعيف أنه ليس وحيدا ولا غريبا فى هذا الكون الشاسع ، وأن هناك عناية أوجدته وأنها أيضا ترعاه ، وأن تلك العناية الإلهية تريد من الناس أن يحب بعضهم بعضا وأن يعامل أحدهم غيره كما يحب أن يعامله الآخرون .

هذا هو جوهر الدين عنده مع اختلاف المشاعر والطقوس ..

وكان سيأخذ القطار من روما إلى لاهاى فإن ذلك أقل تكلفة وأكثر تمكينا من مشاهدة الريف الأوربى وبعض مدنه .

وكان القطار طويلا كثير العربات ، وعرف أن تلك العربات لن تتوجه كلها إلى مكان واحد وأن بعضها كان سيتخلف أو ستنتهى رحلته عند بعض المدن فى الطريق وكان عليه عندئذ أن يتأكد من أن العربة التى ركب فيها سينتهى أمرها إلى لاهاى .

وقضى فى القطار ساعات طويلة وأظنه نام ليلته فى مقعده من الدرجة الثانية - والقطارات هناك درجتان فقط أولى وثانية - إلى أن وصل إلى لاهاى .

مـا هـذا الـهدوء ومـا هـذه النظافـة ومـا هـذا النظـام . هل تنتمى هـذه البـلد إلى ذات العـالم الذى تنـتمى إلـيه البـلاد التى جـاء منـها ، أغلب الظـن أنهما ينتمـيان إلى عـالم واحد .

وتوجـه إلى أكاديميـة القـانون الدولى وهى تشغل جزءا جانبيا من مبنى محكمة العدل الدولـية - قصر السلام - واستقـبلته مدام مـارلفيلد سكرتيرة الأكـاديمـيـة والمشـهورة بحبـها العـرب عامة والمصـريين خاصة وبوجود صداقة قـوية بينها وبين الدكتـور بطرس غـالى والدكتـور فـؤاد رياض وكـان كـلاهمـا من الذين يترددون على الأكاديمية كثيرا بل إن بطرس غـالى كـان من أساتذتهـا ، وأعطـوه العنوان الذى سيسكن فيه - وكان اليوم يوم جمعـة - وأعطوه عنوان البنك الذى حول إليه نقوده من السعودية .

وذهـب أولا إلى المنزل فـى «فونـدل سترات» أى شـارع فونـدل ، وفـونـدل هذا فـيمـا عـرف بعـد ذلك هو اسم شـاعـر هولندى كـبير ، وقـابلتـه صـاحبة البيت وهى سيـدة طاعنة فى السن - وهولندا بلد الطاعنـات فى السن - ولا تعرف كلمة واحدة بالفرنسية ولا بالإنجليزية وهو لا يعرف كلمة واحـدة بالهولندية ولكنها دلته بالإشارة إلى حجرته وإلى مرافق المنزل وساعدته على تفريغ حقيبتـه وترتيب ملابسه ، وكان

من الواضح أن السيدة تمتلئ حنانا ومودة وأنه لا يسكن معها فى المنزل أحد غيرها .

وأسرع نحو البنك لأنه إذا لم يلحقه فإن عليه أن ينتظر إلى صباح يوم الاثنين وليس معه من النقود ما يكفيه فضلا عن أنه فى صباح يوم الاثنين يجب عليه أن يكون فى الأكاديمية .

وتوجه إلى البنك ودلوه على الشباك الذى يستفسر منه وبإنجليزية ركيكة من الجانبين – جانبه وجانب موظف البنك – جرى التفاهم وأدرك أن المبلغ الذى حوله من السعودية قد وصل ، وطلب من البنك أن يصرف له جزءا منه ، وطلب منه البنك ما يثبت شخصيته فأخرج لهم بطاقته وكانت باللغة العربية فلم يفهموا منها شيئا وسألوه عن جواز سفره فتبين أنه قد تركه فى الأكاديمية لاستيفاء بعض الإجراءات ووقع فى «حيص بيص» . ليس معه ما ينفقه حتى صباح الاثنين ، وليس معه ما يثبت شخصيته بوثيقة مفهومة لدى البنك ، ولاحظ موظف البنك حيرته ، ومرت لحظة صمت ثم سأله الموظف : كم يكفيك حتى صباح الاثنين ، ولم يحر جوابا فهو لا يعرف ، وقال له الموظف سأصرف لك مبلغ «مائة جيلدر» على مسئوليتى الخاصة وستوقع على إيصال باستلامها وصباح الاثنين تحضر ومعك جواز سفرك .

وسلمه الرجل المائة جيلدر .

ترى هل كان يمكن أن يحدث مثل هذا مع أى بنك فى مصر؟

★ ★ ★

كانت مكتبة محكمة العدل هى قبلته من هذه الرحلة فهى أكبر مكتبة فى العالم لمن يريدون البحث فى القانون الدولى وهى المكان الذى يجتمع فيه وحوله كبار فقهاء القانون الدولى فى العالم كله .

وبدأ رحلة البحث فى المكتبة ، وعرف أن موضوعات القانون الدولى مفهرسة فى أدراج مرقمة وعرف أن رقم الدرج الذى يحوى موضوع الاعتراف هو رقم «٤١» ، ذلك الرقم الذى ما زال يذكره رغم مرور أربعين عاما على بدء التقائه به .

وكما أن ندرة المراجع تمثل بالنسبة لطالب الدكتوراه مشكلة حقيقية فإن وفرة المراجع بدورها تمثل مشكلة أشد لأنها تضعك فى موضع قد لا تستطيع أن تأتى فيه بجديد .

وقد فوجئ بوفرة المراجع فى الموضوع على نحو لم يكن يتوقعه ، وتبين له أن أحد قضاة محكمة العدل الدولية - لوثر باخت - قد كتب كتابا فى «الاعتراف» يعد من مراجع الموضوع الأساسية وقد قرأ كتاب لوثر باخت من صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة .

ولكن الكتاب الذى أوشك أن يصيبه بنوع من الإحباط هو كتاب باحث صينى الأصل اسمه «شن» وكان كتاب شن هو رسالته للدكتوراه فى موضوع الاعتراف فى واحدة من أعرق الجامعات الانجليزية بل وجامعات العالم - جامعة كمبريدج .

وقد أصابه كتاب «شن» بما أصابه نتيجة ما لمسه من اقتراب

أفكاره من أفكار هذا الأخير فى المسائل الكلية بل وفى كثير من الجزئيات .

ماذا سيستطيع أن يأتى به من جديد بعد هذين المرجعين الأساسيين ؟ .

وأثناء جلوسه ذات مرة فى المكتبة كانت جلسته فى مواجهة شاب سويسرى كان مثله يدخل المكتبة عندما تفتح أبوابها فى الساعة العاشرة صباحا ويظل على مقعده لا يبرحه - مثله أيضا - حتى تغلق المكتبة أبوابها فى الساعة السادسة مساء وتوجه إليه ذلك الشاب وسأله فى أى موضوع تكتب ؟ فلما أخبره بموضوعه إذا به يقول باللغة الفرنسية طبعا «تانى ، واحد تانى فى موضوع الاعتراف» .

وأدرك صاحبنا ماذا يريد أن يقوله ذلك السويسرى ، وأخبره أن مشكلته هى مع كتاب «شن» ووافقه السويسرى على الفور فى أن رسالة هذا الأخير من أحسن ما كتب فى الموضوع ، ولم يكن أمامه مجال للتراجع .

كان التحدى الذى أمامه هو أن يأتى بجديد فى هذا الموضوع الهام، وكان الجديد أمامه يتمثل أساسا فى الموقف العربى من قضية الاعتراف بإسرائيل خاصة بعد أن أصبحت عضوا مع الدول العربية فى هيئة الأمم .

واستطاع أن يجد بعض المصطلحات الجديدة لبعض النظريات القائمة واستطاع أيضا أن يتابع ما كتب من أبحاث بعد هذين المرجعين الأساسيين .

وإنه ليذكر أنه طلب مرجعا فيه مقال عن «الاعتراف بثورة الجزائر» وجاء الرد من سكرتارية المكتبة بأن المرجع غير موجود . فأعاد طلبه بعد يومين وجاء نفس الرد ، وأعاد طلبه بعد يومين آخرين فإذا بمديرة قاعة المطالعة وكانت سيدة كبيرة السن رقيقة الجسم مهيبة الطلعة بيضاء الشعر تأتى إليه بنفسها لتقول له يبدو أنك فى حاجة ماسة إلى هذا المرجع لأنك طلبته ثلاث مرات فأخبرها أنه يكتب فى موضوع الاعتراف وأنه عربى وأن بحثا عن ثورة الجزائر يعنيه فهزت السيدة رأسها علامة الموافقة وقالت له إنى آسفة فذلك المرجع لا توجد منه نسخة أخرى لأنه جزء من دورية وأن أحد قضاة محكمة العدل الدولية استعار الكتاب وأنه يقضى تلك الفترة فى بلده ومن الصعب مطالبته بإعادة ذلك المرجع ، وبدا على وجهه الابتئاس .

وأطرقت السيدة قليلا ثم قالت له : اصبر سأجد لك حلا .

ولم يمض غير يومين حتى كانت السيدة تأتى إليه فى مقعده الذى لم يتغير طوال الشهور التى قضاها فى مكتبة محكمة العدل الدولية بلاهاى وفى يدها كتاب معين ، ولما اقتربت منه قالت مبتسمة هذا هو المرجع الذى طلبته أرسلنا واستعرناه من جامعة ليدن لما شعرنا بحاجتك إليه .

يا سبحان الله . إلى هذا المدى الإحساس بالمسئولية ، وإلى هذا المدى الجدية ، وإلى هذا المدى الرغبة فى مساعدة الجادين .

★ ★ ★

كان يقضى يومه فى المكتبة يقرأ ، ويقضى مساءه فى المنزل يكتب .

وكان يوما السبت والأحد هما اليومان اللذان يرى فيهما الحياة فى لاهاى فإذا صادف أن أحد هذين اليومين كان مشمسا فإن الدنيا تتفتح وتبتهج ويخرج الناس زرافات إلى شاطئ بحر الشمال .

وكان يحاول فى هذين اليومين أن يعب من متعة الحياة ما استطاع أن يعب بعد أن قضى الأيام الخمسة من الأسبوع كلها بغير انقطاع مع أوراق الكتب .

★ ★ ★

ولما فرغ من مكتبة محكمة العدل الدولية وما فيها عن موضوع الاعتراف باللغات الثلاث الفرنسية والإنجليزية والعربية قرر أن يمر على باريس فى طريق عودته إلى القاهرة .

ولم تكن المراجع العلمية هى بغيته الأساسية وحدها فقد قيل له إنه بعد «الدرج رقم ٤١» فى مكتبة قصر السلام فإنك غير واجد جديدا يضاف إليه .

لم تكن المراجع وحدها إذن هى غايته ولكن باريس نفسها كانت بغيته ولم يكن قد رآها من قبل .

★ ★ ★

ووقع فى حب باريس من أول نظرة .

جمالها وعراقتها وتخطيطها وأهلها وشوارعها وكل ما فيها ، الأيام التى قضاها فى باريس متنقلا بين متاحفها وحدائقها

ومزاراتها المختلفة جعلته من عشاق باريس منذ تلك الأيام فى أول الستينات حتى يومه الذى يكتب فيه ، ولم ينقطع من يومها عن زيارة باريس بين الحين والحين .

وتردد على مكتبة كلية الحقوق - البانتيون - أكثر من مرة ولكنه فى الحقيقة لم يجد جديدا يضيفه إلى ما حصله فى مكتبة محكمة العدل الدولية بلاهاى .

وبدأ يستعد للعودة إلى القاهرة .

وكان أول ما شغله فى القاهرة أن يطلب موعدا من أستاذه المشرف الدكتور / حامد سلطان لكى يقابله ويعرض عليه ما توصل إليه .

وما زال يذكر أن أستاذه الكبير حدد له موعدا الساعة الخامسة من اليوم التالى لوصوله .

وفى اليوم التالى أخذته بعد الغداء سنة من النوم وهذه من عاداته الملازمة له والتى لا يريد أن يتخلص منها ، واستيقظ ليجد الساعة الرابعة والنصف وارتدى ملابسه بسرعة ثم انطلق كالسهم إلى حيث منزل أستاذه الكبير فإذا به يصل بعد الموعد بخمس دقائق على وجه التحديد ، وفتح له الأستاذ الدكتور / حامد سلطان ونظر فى ساعته ثم كانت أول كلمة يقولها له «يبدو أن الموعد كان مبكرا عليك» وكان درسا له لم ينسه قط .

ثم سأله أستاذه عن حديقة قصر السلام فى لاهاى - مقر المحكمة - وعن زهورها ومجارى المياه فيها ثم سأله بعد ذلك عما

فعل ، وبدأ يعرض عليه عمله ولم يبد على الأستاذ علامة الرضا ولا علامة السخط إلا أنه طلب منه بعد أن انتهى من عرضه أن يعد رسالته على النحو النهائي بعد الانتهاء من الملاحظات التي أبداها المشرف ثم نصحه أن يذهب بها إلى الأستاذ الدكتور / على صادق أبو هيف أستاذ القانون الدولى فى جامعة الاسكندرية والأستاذ الدكتور / حافظ غانم أستاذ القانون الدولى بجامعة عين شمس - وثلاثتهم انتقل إلى رحمة ربه - لكى يقرأوا الرسالة ويبدوا له ملاحظاتهم عليها باعتبار أنهم سيكونون لجنة مناقشته .

وانتهى من «الرتوش» الأخيرة للرسالة ثم عرضها على الأساتذة لكى يبدوا له ملاحظاتهم .

وأبدى الأستاذان الخارجيان - أبو هيف وغانم - رضاهما عن رسالته واستعدادهما لمناقشتها .

والتقى بأستاذه المشرف فى الكلية وسأله رأيه فإذا به يقول له : «الآن أصبحت رسالتك معقولة» .

و«الآن» هذه كانت بعد أربع سنوات من المرار والمعاناة والكتابة والمراجعة والإعادة ، الآن أصبحت معقولة ؟؟ هل هذا هو كل ما هناك .

وذهب إلى الدكتور / حافظ غانم وهو يرتعد من داخله ويوجس خيفة فقد رأى فى الأسبوع السابق مناقشة رسالة للدكتوراه فى الاسكندرية كان الأساتذة الثلاثة هم الذين يناقشونها ورأى فى تلك المناقشة ما أفزعه، لقد «مسح الأساتذة الأرض» بالطالب وطلبوا

منه أن يعيد كتابة الرسالة على نحو ما أبدوه له من ملاحظات وأوشك الدكتور سلطان أن يقول له أن الرسالة كانت غير جديرة بالمناقشة، ومنح صاحبنا الدكتوراه بغير تقدير، وهى حالة أولى منها عدم الحصول على الدرجة.

واستقبله حافظ غانم وطيب خاطره وقال له صراحة «من الظلم أن تقارن رسالتك برسالة فلان، إن الفارق بعيد».

وتنفس الصعداء.

★ ★ ★

وحدد الدكتور حامد سلطان يوم المناقشة، التاسع من مارس عام ١٩٦٢م.

وكان يوما مشهوداً.

فى المدرج الكبير - الذى يطلق عليه الآن مدرج العميد بدر - تمت المناقشة .

حضر أهله أجمعون وفى مقدمتهم أبوه وأمه.

وحضر عدد كبير من أساتذة الكلية : الدكتور/ حسين خلاف والدكتور/ جابر جاد والدكتور/ رمزى سيف والدكتور/ زكى شافعى - رحمهم الله جميعا - وعدد آخر من أعضاء هيئة التدريس.

وامتلأ المدرج بجمهور من الحاضرين من المحامين والطلبة ورجال القانون ما يظن أنه امتلأ بمثلهم قط فى مناقشة رسالة من الرسائل.

وكان من الحاضرين طالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية اسمه «مصطفى الفقى» الذى أصبح الآن السفير الدكتور/ مصطفى الفقى والذى مازال يذكره ببعض العبارات التى كان يرددها أثناء عرضه للرسالة.

وجرت المناقشة على نحو ما تجرى به عادة.

بدأ هو بعرض موضوع الرسالة بلغة مشرقة وفى أداء طيب وعندما انتهى من عرضه ضج المدرج بالتصفيق.

ثم بدأ الأستاذ الدكتور/ حامد سلطان المناقشة فأثنى على الرسالة كما هى العادة ثم أخذ يناقش صاحبنا فيما كتب وكان الطالب يختلف مع أستاذه فى بعض النظريات الأساسية فى تكييف موضوع الاعتراف.

وأنهى الدكتور سلطان مناقشته بثناء مماثل لما بدأ به وتلاه الدكتور أبو هيف ثم الدكتور غانم ، وكان هو رابط الجأش يرد على ما يثيره أساتذته من ملاحظات بثقة وأدب شديد فى نفس الوقت.

وانتهت المناقشة بعد قرابة أربع ساعات حافلة وحاسمة وخلت لجنة المناقشة للمداولة ثم عادت بعد قرابة نصف ساعة لتعلن قرارها:

منح الطالب درجة الدكتوراه في القانون من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى وتبادل الرسالة مع جامعات العالم.

واختلط الفرح بالدموع وأمسك يد أستاذه حامد سلطان – رحمه الله – يريد أن يقبلها فمنعه من ذلك بشدة ومودة فى آن معا.

وبدأ مرحلة جديدة من حياته.

الفهرس

رقم الايداع
٢٠٠٠ / ١٠٦٦٤
977- 07 - 0906 - 9

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

يوليو ٢٠٠٠ عدد ممتاز

تقرأ فيه:

- أحـوال مـصـر فى مطلع القرن العشرين.
- أصل الإنســان بين داروين وعبدالصبور شاهين كما جاء فى كتاب «أبى آدم».
- القصة الكاملة ليهود الجزائر.
- أزمة اليسار المصرى.

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

تقدم

صالح هيصة

تأليف

خيرى شلبى

تصدر ١٥ يوليو ٢٠٠٠

كتاب الهلال

تقدم

الإسلام وأصول الحكم

بقلم

على عبدالرازق

يصدر ٥ أغسطس ٢٠٠٠

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

هذا الكتاب لوحات نفيسة تصور حياة شاب مصرى نشأ فى أعماق الريف المصرى وتأثر بكل ما كان يحيط بالحياة فى الريف فى السنوات السابقة على منتصف القرن العشرين .

وكان مقدراً للمؤلف أن يدخل الأزهر ولكن تصاريف الحياة شاءت أن تقذف به إلى التعليم العام لكى يتم دراسة الحقوق فى سنوات ما بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٢ . وكانت تلك هى سنوات الغليان فى الحياة المصرية بعامة وفى الجامعة بخاصة .

وعاش المؤلف مع الشباب من جيله هذه الفترة القلقة الخصبة وشارك فيها .

ولما تخرج فى كلية الحقوق عمل فى النيابة العامة فى صعيد مصر فترة وفى القاهرة فترة .

واكتسب من وراء ذلك خبرة كبيرة حاول أن يصفها فى هذا الكتاب .

وأعير إلى ليبيا فى أول عهدها بالتنظيم القضائى الحديث وعمل رئيسا للنيابة إحدى ولاياتها الثلاث ولكن لم يقدر له أن يستمر طويلا وعاد إلى عمله فى مصر .

وكان أمله فى الحياة يدور حول غير النيابة والقضاء على إجلاله وإحترامه للعمل القضائى .

كان أمل حياته الذى استبد به وملك عليه أقطار نفسه أن يكون استاذاً فى الجامعة .

وكانت المقدمة لذلك هى الحصول على الدكتوراه .

وفى نهاية هذا الكتيب يصور لنا المؤلف رحلته من أجل الحصول على الدكتوراه .

إنها صفحات من القلق والمشاعر والكفاح تصور حياة شاب رى بما فيها من ضعف وقلق وتصميم .

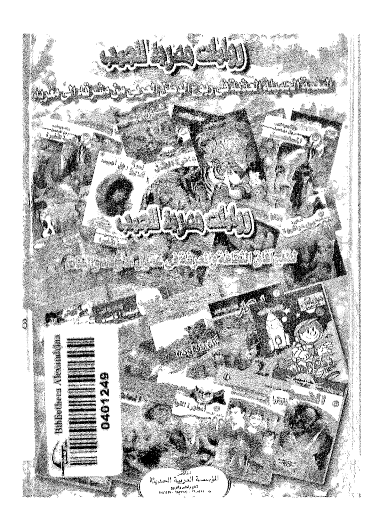


بمناسبة موسم الصيف
تعلن عن رحلاتها المنتظمة
من الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط
إلى الدول العربية واليونان

- الإسكندرية / جدة
يوميًا عدا السبت
- الإسكندرية / الرياض
الخميس
- الإسكندرية / الظهران
الخميس
- الإسكندرية / الكويت
الاثنين - الثلاثاء - الأربعاء - الخميس
- الإسكندرية / أبوظبي
الثلاثاء
- الإسكندرية / العين
الثلاثاء
- الإسكندرية / دبي
الأربعاء
- الإسكندرية / البحرين
الخميس
- الإسكندرية / الدوحة
الخميس و الاثنين
- الإسكندرية / مسقط
الأربعاء
- الإسكندرية / دمشق
الثلاثاء
- الإسكندرية / بيروت
الأربعاء
- الإسكندرية / أثينا
الأربعاء و السبت

الحجز والاستعلام بمكاتب مصر للطيران بالاسكندرية
- مكتب جليم ت: ٥٨٢٥٤٢٤٠ - ٥٨٢٥٤٦١
- مكتب الرمل ت: ٤٨٩٥٩٣٧/٨٠ - ٤٨٢٠٧٧٨
- مكتب النزهة ت: ٤٢٥٠٩٨٤/٨٥/٨٦

مصر للطيران
ترحب بكم



روايات مصرية للجيب
في ربوع الوطن العربي من مشرقه الى مغربه
روايات مصرية للجيب
Bibliotheca Alexandrina
0401249
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع